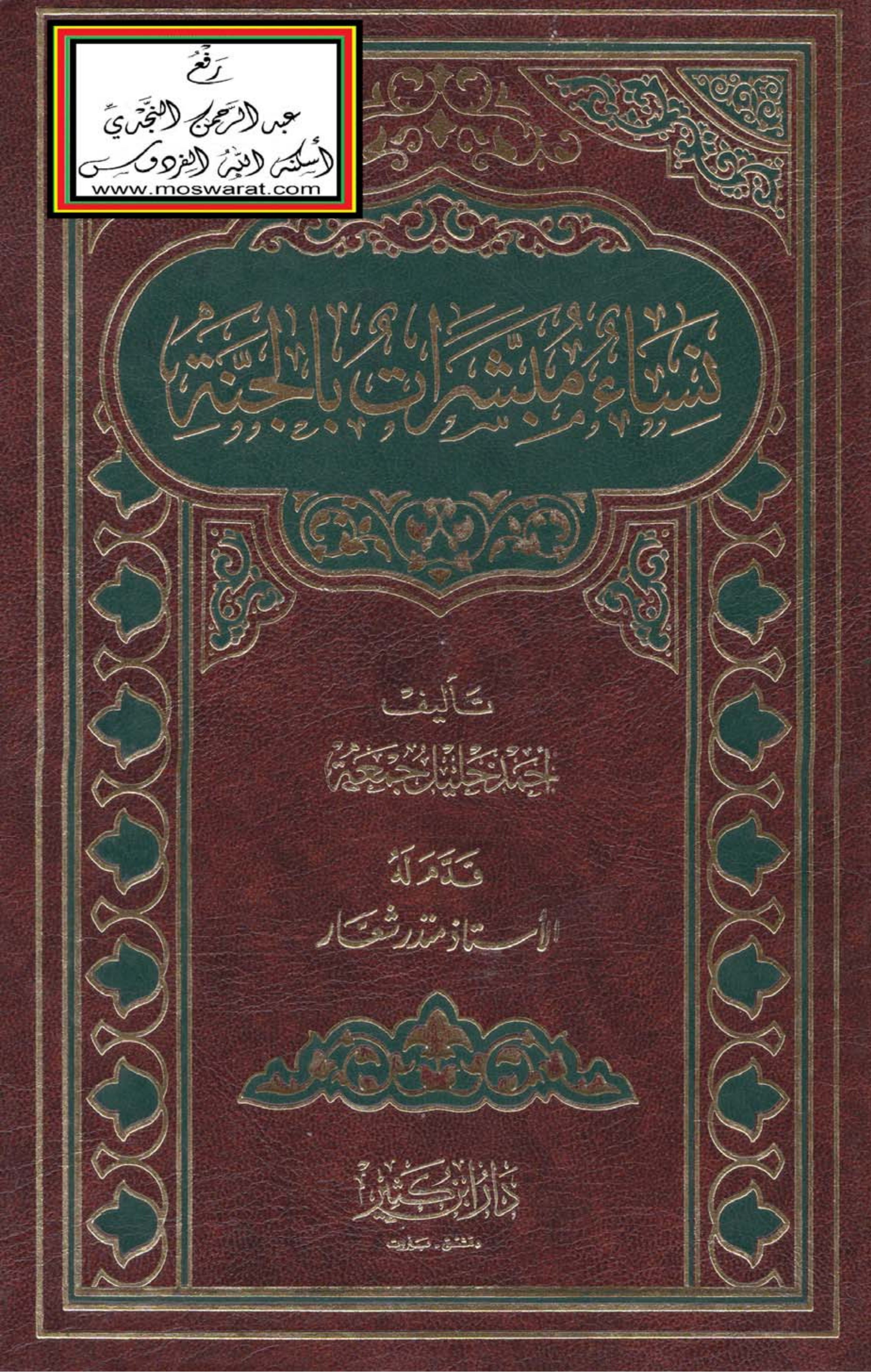
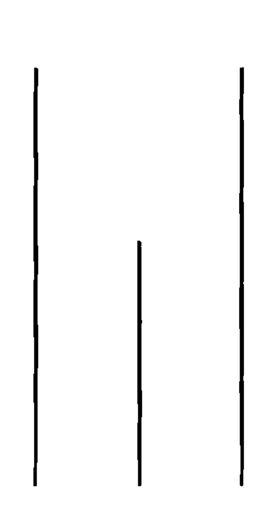

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
نساء مبشرات بالجنة
تأليف
أحمد خليل جمعة
قدم له
الأستاذ منذر شعار
دار ابن كثير
دمشق - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com




نساء مبشرات بالجنة

● الموضوع: تراجم
العنوان: نساء مبشرات بالجنة
التأليف: أحمد خليل جمعة

الطبعة السادسة

1433 هـ - 2012 م

ISBN 978-614-415-028-3

ISBN 978-614-415-028-3
9 786144 150283

● الطباعة: مطبعة الحافظ - بيروت ـــ التجليد: شركة كاتبة ومحايري للتجليد - دمشق

● الورق: أبيض ـــ ألوان الطباعة: لون واحد ـــ التجليد: فني

● القياس: 17×24 ـــ عدد الصفحات: 356 ـــ الوزن: 680 غ



دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



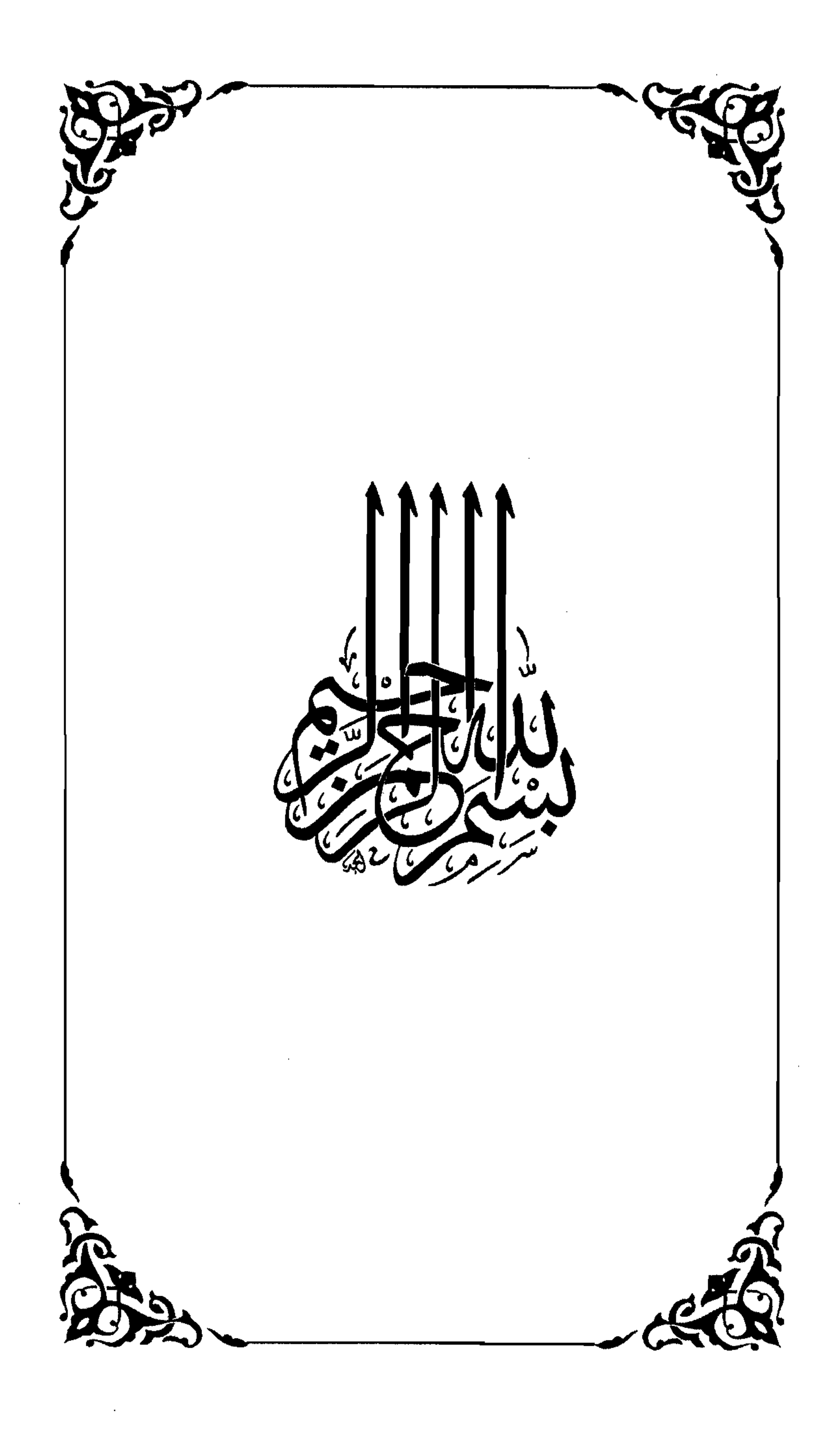
نساء مبشرات بالجنة

خديجة بنت خويلد — بركة بنت ثعلبة — عائشة بنت أبي بكر — أم سليم بنت ملحان
فاطمة بنت أسد — الربيع بنت معوذ — فاطمة بنت رسول الله — أم ورقة الأنصارية
أم حرام بنت ملحان — سمية بنت خباط — الفريعة بنت مالك — أسماء بنت يزيد
نسيبة بنت كعب — كبشة بنت رافع — أم المنذر بنت قيس — أم هشام بنت حارثة
أم رومان بنت عامر — زينب بنت جحش — أسماء بنت أبي بكر — حفصة بنت عمر

قدم له
الأستاذ منذر شعار



دمشق - بيروت

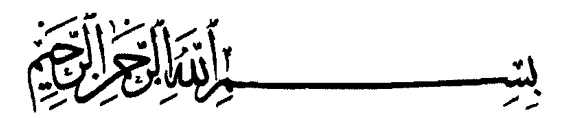

بسم الله الرحمن الرحيم



• إلى كلِّ امرأةٍ تؤمنُ بالله عزَّ وجلَّ.

• إلى السَّائرات على طريق الحقِّ والخيرِ والصَّلاحِ، ويرغَبْنَ في التَّعرُّفِ على سِيَرَ السَّلفِ الصَّالحِ من النِّساءِ المبشراتِ بالجَنَّة.

أحمد



مقدمة بقلم الأستاذ منذر شعار

الحمد لله والصلاة على نبيه وآله.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثاني للمؤلف، في هذا الباب الكريم الجميل، وكان الأول في الصحابة المبشَّرين بالجنة، وهذا في المبشَّرات بها، رضي الله عنهم أجمعين. وإن العمل في هذا الثاني لأصعب، لعدم شهرة المبشَّرات عند الناس، في هذا العصر خاصَّة، ولعسر التتبع في المراجع، ويستوي الكتابان في حرص المؤلف على الصحيح غير الضعيف، من حديث شريف، وتاريخ حصيف. لكن السَّرد - هنا - يقتضي - ولابد - رواءً أدبياً بحَسَبِ الخُطور، وشجيّ نبيلاً يرقِّق ستور السطور، مما يجعل هذا الكتاب كسابقه، حقيقاً أن يُقتنى فيُجتنى، وَيُستحلى فيُستجلى، إذا قرأه القارىء أضاء، واختالت حوله «الأحزاب» و «النساء».

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق

منذر شعار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً وافراً، يوافي نِعَمه، ويدفع نِقَمه، ويكافىء مزيده.

والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن استنَّ بِسُنَّته الغرَّاء، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ التأمُّل في ثنايا التاريخ الإسلامي يكشف لقطات رائعة لأناس آمنوا بالله تعالى، وتمسَّكوا بِسُنَّة المصطفى ﷺ في القول والفعل والحال، فانداح سلوكهم في رحاب الحياة فيَّاضاً بالخير والإخلاص والإيثار، فبنوا بإيمانهم معاقل النور، وشيَّدوا قلاع الاستقامة، وهم يغذُّون السَّير إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد أشار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى طائفةٍ من أولئك الصحابة العظام، الذين أدركوا ما عليهم، وعرفوا أنهم مخلوقون للعبادة، فبقدر صلابتهم في دينهم، وتمسُّكهم بعقيدتهم، فإن الله عزّ وجلّ يُهيِّىء لهم أسباب الخير ومقوّمات النجاح، ويفتح أمامهم سُبُل الفَضْل العميم.

وقد رأيتُ أن أجمع طاقاتٍ مُنَورة، يفوح شذاها، وينتشر أريج عبقها، في كل مكان، يُعطِّر الأرجاء، ويدفع إلى التمثُّل الحسن في المواصفات والمعايير التي التزمها ضيوف كتابنا هذا، فكانوا بحقٍّ خير القرون، وكانوا بصدقٍ أفضل الناس، لما التزموا به وعاشوا من أجله.

وكنت في كتاب سابق قد تحدَّثتُ عن ثلَّةٍ من الرجال المبشَّرين بالجنة على لسان النبي ﷺ، إذ شهد لهم بالإيمان، وخَبَرَ بواطن نفوسهم، وأدرك ما في قرار ضمائرهم، من إيمان وصَبْر ويقين وسخاء وتضحية وفداء. . . فكان أن وقَّع ﷺ لهم شهاداتٍ تخولّهم دخولَ الجنَّة بإذن الله عزّ وجلّ.

ونحن اليوم نحيا مع طائفة أخرى من النساء المبشَّرات بالجنة، مُبْرِزاً دورهنّ الرائد عبر الوقائع والأحداث التي جرت في عصر النبوة المعطاء، وذلك بقصد رسم الصورة المعبّرة، والإطار العام لكل شخصية مع كَشْف الفوائد، والدروس المستفادة، والعِبَر الهادفة، وصولاً إلى الحِكَم المبثوثة في ثنايا العَرْض لكل شخصية، ومن ثمّ نجلو الأسوةَ الحسنة، ونوضّح الاقتداء الصالح بهن، فيما عُرِفْنَ به وأُثِرَ عنهنَّ.

وقد سجلّتُ حياة كل امرأة، وما اتصفت به من خُلُق قويم، ومشاعر مفعمة بالإيمان واليقين الصادق، مُعرِّجاً على أهم الأحداث في حياتها، وما تتمتع به من مكانة مرموقة، وما يتّصل بها من أخبار تومض، وأحداث تضيء.

وحاولتُ أن أسجّل حياة أولئك الطاهرات المبشَّرات بالجنة بأسلوب واضح مشرق، مع التركيز في العبارة، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء وشهادتهم، لتتَّضح الصورة، وتنكشف الأبعاد للأُطر العامة، مستعيناً في عملي هذا بأمهات الكتب التاريخية والمصادر الحديثية وأسباب النزول وكتب السيرة النبوية مع طائفة من التفاسير، وذلك للوقوف على الشخصية بوضوح وبيان وجلاء.

وكانت الرحلة شيّقة جميلة رائعة ، فتمَّ الحديثُ عن عشرين امرأة مبشرات بالجنة، هن:

- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.
- فاطمة بنت أسد.
- أم حرام بنت مِلْحان.
- نَسيبة بنت كعب أم عمارة.
- أم رومان بنت عامر.

ـ بركة بنت ثَعْلبة أم أيمن.

ـ الربيع بنت معوِّذ الأنصارية.

ـ سُميَّة بنت خُبَّاط.

ـ كبشة بنت رافع، أم سعد بن معاذ.

ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش.

ـ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق.

ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

ـ الفُريعة بنت مالك.

ـ أم المنذر بن قيس.

ـ أسماء بنت أبي بكر الصديق.

ـ أم سليم بنت ملحان.

ـ أم ورقة الأنصارية.

ـ أسماء بنت يزيد بن السكن.

ـ أم هشام بنت حارثة.

ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر.

ثم إني أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبَّله مني، ويجعل لي ثوابه في صحيفة أعمالي يوم الدين، يوم نلقاه سبحانه وهو راضٍ عنَّا بفضله ورحمته.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والحمد لله رب العالمين.

أحمد جمعة

نســاء مُبشَّرات بالجنــة

١ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد

٢ ـ فاطمة بنت أسد

٣ ـ أم حرام بنت ملحان

٤ ـ نسيبة بنت كعب «أم عمارة»

٥ ـ أم رومان بنت عامر

٦ ـ بركة بنت ثعلبة «أم أيمن»

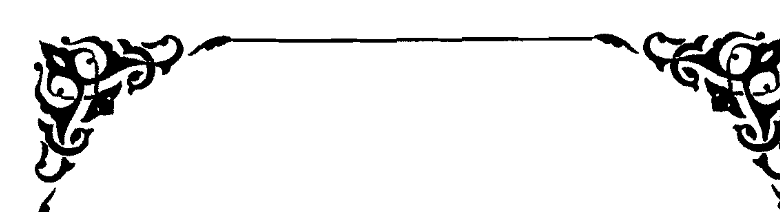
٧ ـ الربيع بنت معوذ الأنصارية

٨ ـ سمية بنت خبّاط

٩ ـ كبشة بنت رافع «أم سعد بن معاذ»

١٠ ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش

١١ ـ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق .
١٢ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ .
١٣ ـ الفُريعة بنت مالك .
١٤ ـ أم المنذر بن قيس .
١٥ ـ أسماء بنت أبي بكر الصديق .
١٦ ـ أم سليم بنت ملحان .
١٧ ـ أم ورقة الأنصارية .
١٨ ـ أسماء بنت يزيد بن السكن .
١٩ ـ أم هشام بنت حارثة .
٢٠ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر .



(١)

أم المؤمنين
خديجةُ بِنتُ خُوَيْلد
رضي الله عنها

* «أتى جبريلُ النَّبيَّ صَلى الله عليهِ وسلم فقال: أَقرىء خَديجة مِنَ اللهِ ومنّي السَّلَام، وبشّرها ببيتٍ في الجنَّةِ منْ قَصَبٍ لا صخب فيهِ ولا نَصَب».
* «أَفْضَلُ نِسَاءِ أهلِ الجنَّة خَديجةُ بنتُ خويلد. . .»

حديث شريف

الطَّـاهرةُ المُبــاركــةُ:

* في رحاب الطُّهْر والبركة، وفي ثنايا الصَّفاء والنَّقاءِ، نعيشُ سعداءَ في ظلالِ سيرة أمِّنا الطَّاهرة خديجة بنت خُويلد بن أسد القرشية الأسدية، زوج سيِّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ. ومَنْ مِنا يستطيع أَنْ يوفي أمَّ المؤمنين خديجة حقها أو جزءاً منه؟! ولكننا نحاول أن نلمسَ البركةَ والخير باقتطافِ عناقيدَ مباركةٍ من حياتها الفيّاضة بالعطاء.

* نشأت خديجةُ على التَّخلُّق بالفضائل والتَّحلِّي بالآداب، واتَّصفتْ بالعفة والشَّرف والكمال، حتى عُرِفتْ بلقب «الطاهرة»[1] بين نساء مكةَ في زمانها.

* خديجةُ. . . . السَّيدةُ الطّاهرةُ. . إنَّ هذا لشرفٌ عظيم أَنْ تحظى خديجة بهذا اللقب المِعْطَار المبارك!. وذلك في عصرٍ تموجُ فيه أدرانُ الجاهلية موجاً، وتضع من قيمة المرأة.

* في أمِّ القرى كانت ولادة الطَّاهرة خديجة سنة (٦٨) قبل الهجرة النَّبوية الشَّريفة، وكان ذلك قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة تقريباً[2].

وأمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم قرشية من بني عامر بن لؤي، أمّا أبوها فهو خُويلد بنُ أسد بن عبد العزى؛ من أشراف قريش، وقد مات يوم الفجار.

* كانت خديجةُ زوجاً لأبي هالة بن زرارة التَّميمي[3] فمات عنها، ثم خلف عليها عتيق بن عابد المخزومي[4]، ثم تزوَّجها النَّبيُّ الكريم ﷺ.

* وعندما ارتبطتْ خديجةُ بالنَّبي الكريم ﷺ، سَطَعَ نجمُها وبانَ فضلُها،

---

(١) انظر في هذا أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧)، والإصابة (٤/ ٤٧٣)، والاستيعاب (٤/ ٢٧١).

(٢) هذه السنة توافق عام (٥٥٦) من الميلاد.

(٣) الاشتقاق (ص١٤٢ و ٢٠٨).

(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧).

وسادت نساء مكةَ كلّهن، بل نساء الدُّنيا جميعاً، و«حسبك مِنْ نساءِ العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون»[1].

* * *

الطَّـاهِرةُ والمكانَــةُ العُـلْيَــا:

* كانتِ الطاهرةُ خديجة مثلاً رائعاً بين نساء مكةَ في المكانة والشَّرف والمال، ولها تجارةٌ واسعةٌ، وتستأجرُ مِنَ الرِّجال في مالها ممن تثق بهم ليتجروا لها، وتتَّفق معهم على نصيبٍ مِنَ الأجر تدفعه لهم، في تلك الأثناء كانت الطَّاهرةُ خديجة تعرفُ الفتى الأمينَ محمَّد بنَ عبد الله الذي يلتقي نسبه مع نسبها في قصي بن كلاب[2]. وعُرِفَ عن خديجةَ أنَّها صاحبة نظرة ثاقبة، وفراسة صحيحة، فكانت ترى محمّداً وتسمعُ أخباره العطرة من الغادي والرائح.

* وكانت أخلاقُ النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام، وصفاته الجميلة تُعطِّرُ الدّنيا وتدخل القلوب على اختلاف أصحابها، ولهذا رغبتْ في أَنْ يتجرَ لها بمالها، فأرسلتْ إليه وقالت:

إنَّه دعاني إلى البعثةِ إليكَ ما بلغني مِنْ صدق حديثك وعظَمِ أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعْفَ ما أعطي رجلاً مِنْ قومك.

فقبل النَّبيُّ ﷺ منها ذلك، ولما سمع أبو طالب بأعطية الطَّاهرة خديجةَ، قال لرسول الله ﷺ: هذا رزقٌ ساقَهُ الله إليك.

* * *

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، انظر جامع الأصول (٩/ ١٢٥).

(٢) قال الحافظ ابن حجر عن الطاهرة خديجة: وهي من أقرب نسائه ﷺ إليه في النسب.

الطَّــاهرةُ الخيِّــرةُ:

* ذكر أبو جعفر الطَّبري وابنُ كثير وابنُ سيِّد النّاس عن معمر، عن الإمام ابن شهاب الزُّهري؛ أنَّه قال: لما استوى رسول الله ﷺ، وبلغ أشدّه، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حُبَاشة ـ سوق بتهامة ـ واستأجرتْ معه رجلاً آخرَ مِنْ قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عنها: «ما رأيتُ مِنْ صاحبة أجير خيراً مِنْ خديجةَ، ما كُنا نرجعُ أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفةً مِنْ طعامٍ تخبئُه لنا».

* لمست الطَّاهرةُ خديجة صِدْقَ محمَّد ﷺ وأمانته وكرم أخلاقه، فكانت تجزلُ له العطاء، ولما بلغ سيّدنا رسول الله خمساً وعشرينَ سنة، سافر بتجارة لها إلى الشَّام مع غلامها ميسرة، وفي الشَّام باع ﷺ سلعته واشترى ما أراد، وربح ضعْفَ ما كانت تربح خديجة، وقفل راجعاً نحو البلد الأمين مكةَ، فأدّى لها ما عليه في أمانةٍ تامة، ونُبْلٍ عظيم، وقد حفظ الله سبحانه رسولَه ﷺ وحاطه برعايته؛ حتى كانت هذه السَّفرةُ بما كان فيها من الخير والبركة، ذات أثر مبارك في حياة محمّد ﷺ.

* وفي مكةَ انطلق ميسرةُ يحدِّثُ بما رأى من سيّدنا محمد ﷺ من كرم الخلق وحُسْنِ الصحبة وعظَمِ الأمانة، بل حدَّثَ بما رآه من إرهاصات النُّبوة التي لمسها وعاينها، وما أكْثَرَ ما رأى في تلك الرّحلة الجميلة من خصائصَ كثيرة للنَّبي ﷺ، وأدلى ميسرة أيضاً بشهادته الصادقة المباركة إلى خديجة، فسُرَّتْ بأمانته وصدقه، وما نالها من بركةٍ وربح بسببه ﷺ، وكان الله سبحانه وتعالى قد كَتَبَ لها الكرامة، وأراد بها الخير حيث ألقى في نفسها أمنية كريمة مباركة جعلتها سعيدة في الدَّارين.

* * *

الطَّــاهِرةُ والـزَّواجُ المُبَــارَكُ:

* كان السَّاداتُ والرؤساءُ في مكةَ يحرصون على الزَّواج من خديجةَ،

فتأبى ذلك عليهم، وتردّهم جميعاً، ولكنَّها وجدت ما تنشدُه وما تبغيه في سيِّدنا محمد ﷺ، وهنا أفضتْ عمَّا يدور في نفسها إلى صديقتها «نُفَيسة بنت منية»[1] فذهبتْ نُفَيسة إلى النَّبي الكريم ﷺ وكلمته أَنْ يتزوَّجَ الطَّاهرة خديجة، وقالت: يا محمد ما يمنعُكَ أَنْ تزَّوجَ؟.

فقال: «ما بيدي ما أتزوجُ به».

قالت: فإنْ كُفيتَ ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشَّرف والكفاءة ألا تُجيب؟.

قال: «فمَنْ هي»؟.

قالت: خديجةُ.

قال: «وكيف لي بذلك»؟.

قالت: عليَّ.

قال: «فأنا أفعلُ».

ورجعت نُفَيسة إلى الطَّاهرة خديجة تَحمل خبر نجاحها في مهمتها، وزفَّتْ إليها نبأَ موافقة محمّد ﷺ بالزّواج، فأرسلتِ الطَّاهرة خديجة إلى عمِّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر، وجاء رسولُ الله ﷺ إلى بيتِ خديجةَ في آل عبد المطلب، وفي مقدمتهم عمُّه حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وعمّه أبو طالب، وكان في استقبالهم عمّ الطَّاهرة خديجة، وابن عمِّها ورقة بن نَوفل، وقام أبو طالب خطيباً، وألقى خطبةً رائعةً نقتطف منها فِقْراتٍ كاشفةٍ، فكان مما قال:

الحمدُ لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزَرْع إسماعيل، . . . وجعلنا حضنَةَ بيته وسُوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يُوزنُ به رجلٌ مِنْ قريش شرفاً ونبلاً وفَضْلاً إلا رجح به، . . . ومحمد مَنْ عرفتم قرابته . . . وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتُم من الصّداق ـ المهر ـ فعليَّ.

---

(١) نفيسة ـ بالتصغير ـ ومنية نسبة إلى أمها، وفي بعض المصادر: بنت أمية وهو أبوها، وهي أخت الصحابي الجليل المشهور يعلى بن أمية ـ رضي الله عنه ـ.

وافق عمُّها عمرو بن أسد وكان شيخاً كبيراً[1] فقال: هو الفحلُ لا يُقْدحُ أنفُه[2].

* وتزوَّج النَّبي الكريم ﷺ الطَّاهرة خديجة، وأصدقها عشرينَ بكْرة، ونحر وأطعمَ النَّاس، وقد أشار البُوصيري ـ رحمه الله ـ إلى هذا عندما قال:

ورأَتْــه خــديجــة والتُّقــى والــزّهــ ـــدُ فيــه سجيــةٌ والحيــاءُ

وأتــاهــا أَنَّ الغمــامــةَ والسَّــر حَ[3] أظلَّتــه منهمــا أفيــاءُ

وأحــاديــثُ أَنَّ وعــدَ رســول الل ـــه بــالبعــث حــان منــه الــوفــاءُ

فَــدَعَتْــهُ إلــى الــزَّواج ومــا أَحْـ ســنَ أَنْ يبلــغَ المنــى الأذكيــاءُ

* كانت الطَّاهرةُ خديجة ـ رضي الله عنها ـ بنت أربعين في سنِّ اكتمال الأمومة، أمّا محمد ﷺ ففي سنِّ اكتمالِ الشَّباب ابن خمس وعشرين سنة.

* وفي هذا الزَّواج المبارك كانت الطَّاهرة خديجةُ هي الزَّوجةُ الوفية في حبِّها، وهي الأمُّ الرؤوم في حنانها وعطفها وبرّها ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

(1) انظر كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٩٢).

(2) هذا مثل يضرب للرجل الكفء الكريم، والفحل الذكر من الإبل، وكان العرب إذا وجدوا الفحل غير كريم ضربوا أنفه ومنعوه عن الناقة، وإن كان كريماً تركوه، فذهب مثلاً في العرب، وقصد عمّ خديجة إلى أن محمداً منهم وهو كفء كريم لا يُردّ.

(3) «السرح»: الشجر الكبير.

الطَّــاهرةُ الـوَدُودُ الولُــودُ:

* كان هذا الزَّواج زواجاً ميموناً سعيداً، فمحمّد ﷺ نِعْمَ الزّوج، والطَّاهرة خديجة نِعْم الزّوجة الوفيّة، وقد عاشا معاً زوجين هانئين، وسَرَتْ بينهما الألفةُ، وتوطّدت عواملُ الاستقرار، وضربتْ خديجة أروعَ الأمثلة في الصَّلاح وفي الإيثار والكرم، وذلك عندما شعرت أنَّ زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام يحبُّ زيدَ بن حارثة[1] مولاها فوهبته له، فازدادت بذلك منزلتها في نفسه ﷺ.

* ولما كفل رسول الله ﷺ ابنَ عمه عليّ بن أبي طالب، وَجَدَ عليٌّ عند الطّاهرة خديجة أمّاً عطوفاً، وقلباً حانياً، ومعاملةً طيِّبة. وقد أكمل اللهُ هذه السَّعادة الزَّوجيةَ بالأبناء؛ فولدت له القاسم ـ وبه كان يُكنى أبا القاسم ـ ثم ولدت له زينب ورقية وفاطمة وأمّ كلثوم، وكان ذلك قبل النّبوة، وولدت له في الإسلام عبد الله فسُمي الطيّب والطّاهر، وكان بين كل ولدين سنة، وكانت تسترضعُ لهم وتهيىء ذلك قبل أَنْ تلد.

وقد ذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أولادَ رسول الله ﷺ مِنْ الطاهرة الولود خديجة فقال: ولدت خديجةُ لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة، القاسم وعبد الله، وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية[2]. أما إبراهيم فهو من مارية القبطية ـ رضي اللهعنها ـ ومات بنوه كلهم في صغرهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، فرقية وأمّ كلثوم تزوجتا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وزينب زوجة أبي العاص بن الرَّبيع بن عبد شمس، وفاطمة زوجة عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[3].

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سيدنا زيد بن حارثة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

(٢) انظر في هذا دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٧٠).

(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٦٦)، والفصول لابن كثير (ص ٢٤٢).

وقد أدركتهُن الوفاة في حياة النَّبي ﷺ إلا ابنته فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر.

* * *

الطَّاهرةُ ومَطْلَعِ الفَجْر:

* امتاز النَّبي الكريم ﷺ في قومه بشمائلَ كريمةٍ فَاقَهُم فيها جميعاً، حتى أطلقوا عليه لقب «الأمين» لِمَا جُمِعَ فيه من الأحوال الصَّالحة والصِّفاتِ المُرْضية، وجَمَعَتِ الطَّاهرةُ خديجة شمائله هذه بقولها له: إنَّك لتصلُ الرّحم، وتحمل الكلّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحق[1].

* نعم فقد عَرَفَ أهلُ مكة صفات محمّد ﷺ، وكانوا يرضون بقضائه فيهم إذا ما ثارت خلافات فيما بينهم، ولكنَّه ﷺ ينكر ما هم عليه مِنَ الضَّلال وعبادة الأوثان. ولما قاربت سِنّه الأربعين حُبّبَ إليه الخلاءُ في غار حراء ـ قرب مكة ـ، فكان يخلو به، ويقضي وقته في العبادة والتفكر في الكون وفي مبدعه، ويمكث فيه الليالي ذوات العدد.

* وكانت الطَّاهرةُ خديجةُ إذا نهضتْ في الصَّباح الباكرِ، تتفقَّد زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام فلا تجده، فتعرفُ أنَّه في خلوته، فلا تسأله عن شيء، وذلك لكونها عاقلة لبيبة، وترى من أحواله ما لا يراه غيرها.

* كانت الرؤيا الصَّادقة أول ما أشرق عليه من نور النّبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصُّبح، وكانت تساوره المخاوف، فكان يفضي إلى زوجه الطَّاهرة العاقلة اللبيبة بمخاوفه ويقول لها: «إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء، وقد خشيتُ ـ والله ـ أنْ يكونَ لهذا أمر..»، فتطمئنه الطاهرةُ خديجة وتقول له: «معاذ الله! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنَّك لتؤدي الأمانة وتصلُ الرحم وتصدُقُ الحديث».

---

(١) الحديث في صحيح البخاري (١/ ٥).

* كانت كلماتُ السَّيدة الطاهرةُ خديجة نوعاً من فِراسَةِ الإلهام، وبرداً وسلاماً على رسول الله ﷺ، خفّفتْ بها عنه ما شعر به من آثار المفاجأة الرَّهيبة، ثمَّ إنَّ كلمات خديجة النّورانية نابغةٌ مِنْ معرفتها أخلاقَ رسولِ الله ﷺ التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها في جميع المجالات، ناهيك بما لمحمد ﷺ في مجتمعه مِنَ الإكبار وحُسْن الصِّيت وجمال الحديث.

* * *

الطَّـاهِرَةُ العَـاقِلـةُ:

* لما نزلَ جبريلُ بقولِ الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ـ٥]، كان للطّاهرةِ العاقلة دورٌ مباركٌ، ولنترك عائشةَ أمَّ المؤمنين تروي لنا موقفَ الطَّاهرة خديجة، وبشارتها رسول الله ﷺ بالنبوة، وتثبيتها له فتقول:

«. . . فرجعَ بها ـ أي سورة العلق ـ رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجةَ بنتِ خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: زمّلوني زمّلوني، فَزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً، إنَّك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضَّيفِ، وتُعِينُ على نوائبِ الحق. فانطلقت به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل بنَ أسد بن عبد العُزَّى ـ ابنَ عم خديجة ـ وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتبُ مِنَ الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أَنْ يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ.

فقالت له خديجة: يا بن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟.

فأخبره رسولُ الله ﷺ خبرَ ما رأى.

فقال له ورقة: هذا النَّاموس الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُك قومُك.

فقال رسولُ الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجيَّ هم؟.

قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، إنْ يدركني يومُك أَنْصرُك نصراً مُؤَزَّراً. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أَنْ تُوفِّيَ، وفتر الوحيُ»[1].

* وقد رُوي أنَّ ورقة قال يخاطبُ الطَّاهرةَ خديجة في ذلك:

فـإنْ يَـكُ حقـاً يـا خـديجـةُ فـاعلمـي
حـديثـك إيـانـا فـأحمـد مـرسـلُ

وجبـريـل يـأتيـه وميكـال معهمـا
مِـنَ الله روح يشـرحُ الصَّـدر منـزل[2]

* * *

الطَّـاهِرَة الصِّـدِّيقَـةُ الأُولـى:

* في حَلبةِ التَّسابق الإيماني، وفي ميدان السَّبْقِ على الإسلام، كانتِ الطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ الفائزة بالدَّرجة العُليا برتبة صِدِّيقة المؤمنات الأولى، فأكرمْ بهذا اللقب وأعظمْ به؟!.

* فالطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضوان الله عليها ـ أولُ مَنْ آمنَ وصدَّق رسولَ الله ﷺ، وأولُ مَنْ سمع ما تنزَّل عليه من الذِّكرِ الحكيم منْ فمِهِ الشَّريف عليه الصَّلاة والسَّلام.

* وإسلامُ الطَّاهرةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ كان إسلام الفطرة النَّقية الصَّافية الزَّاكية المتطلعة بسواطع الإلهامِ إلى المستقبل النُّوراني الصَّادقِ، فقد رزقها اللهُ عقلاً كبيراً وفطنةً مباركة نادرةَ الوجودِ في تاريخ النِّساء.

* وللطَّاهرة الصِّديقة الأولى ـ رضي الله عنها ـ سوابق مباركة في مطالع إيمانها، لم تكن لأحد مطلقاً، وفضائل انفردتْ فيها فلا يلحقها فيها لاحق،

---

(١) الحديث صحيح في البخاري (١/ ٥ و٦).
«الكل»: هو من لا يستقلّ بأمره. «الجَذَع»: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شاباً ليكون أمكن لنصره.
(٢) انظر البداية والنهاية (٣/ ١١)، وكتاب منح المدح (ص ٣٢٨).

وكيف تُلْحَقُ وقد حظيتْ بمكانة عظيمةٍ في نفس رسول الله ﷺ، حيثُ آمنت به حين كفرَ النَّاس، وصدَّقتْ به حين كذَّبَهُ النَّاس، وجادت بمالها وواسته بنفسها، ورزقه اللهُ منها الولد، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّـاهِرةُ وبيتُـهَـا المُبَـارَكُ:

* مِنْ دار الطَّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ سطعَ نورُ الإسلام، ومنها أضاء الدُّنيا كلّها، فلا عجبَ أَنْ تكونَ هذه الدَّار دانيةَ القطوفِ، طيِّبة الثرى، مباركة الموضع، وممّا يشيرُ إلى بركةِ الطَّاهرة خديجة، وبركة بيتها، أنَّ الطَّاهرةَ أمَّ المؤمنين خديجة وبناتها مِنْ سيدنا رسول الله ﷺ كُنَّ أول النَّاس إسلاماً، بل إنَّ كلَّ مَنْ أظلَّهم سقفُ بيتها كانوا مِنَ السَّابقين الأولين إلى الإسلام، وكلُّنا يعرفُ أسبقية سيّدنا علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ وهما مِمَّنْ عاشا ضمن أسرة رسول الله ﷺ في بيت الطَّاهرة المبارك.

* وسَبْقُ هؤلاء الغرّ الميامين إلى الإيمان بالله تعالى، والتَّصديق برسالة النَّبي الكريمِ ﷺ لدليلٌ على فطرتهم النَّقية التي اكتسبوها مِنْ سيدنا رسول الله ﷺ، ومنَ الطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجةَ ـ رضوان الله عليها ـ.

* ولِدارِ الطَّاهرة أمّ المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ كبيرة، وأفضليةٌ مباركة، فقد ذكر المحبُّ الطَّبريُّ أنَّ دارَ خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ أفضلُ الأماكنِ بمكةَ بعد المسجد الحرام ولا شك في ذلك[1] والله أعلم. ولعلّ هذا يرجعُ لطولِ سكنى النَّبي الكريم ﷺ، ونزول الوحي عليه فيها.

* وذكر الإمام الفاسي أنّ الدورَ المباركةَ بمكةَ دارُ خديجةَ بنت خويلد أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، ففي هذه الدار ولدت فاطمة سيّدة نساء العالمين هي وأخواتها، وذكر أنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ بنى بخديجةَ فيها، وأنّها توفيت

---

(١) عن كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٤٣٨).

فيها، ولم يزلِ النَّبِيُّ الكريمُ ﷺ ساكناً فيها حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فأخذها عقيلُ بن أبي طالب، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة فجعلها مسجداً يُصلى فيه[1].

* وفي دار الطَّاهرةِ خديجة يذكر الإمام الفاسي أيضاً أنَّ الدُّعاء يُستجاب فيها ليلةَ الجمعة، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّـاهرةُ البـرَّةُ الـوَصُـوْلَـةُ:

* قضتِ الطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ في كَنَفِ رسول الله ﷺ مرحلةً تُقاربُ ربع قرن مِنَ الزَّمنِ، فكانت في حياتها المباركة معه أوفى وأبرَّ زوجة لزوجها، كانت تشاركه مباهجه ومسرّاته، وتتطلّع إلى رضاه وسعادته، وتبرُّ مَن يحبُّهم لتزدادَ مكانة في نفسه ﷺ، وقد ظهر مِنْ برّها وكرمها ما رفعها إلى مكانةٍ عاليةٍ أثيرة، فقد أصابت النَّاس سنة جَدب بعد زواجها من رسول الله ﷺ، وفي هذه السَّنَةِ جاءتْ حليمةُ السَّعدية ـ مرضعته ﷺ ـ زائرة، فعادت من عنده؛ ومعها من مال الطَّاهرة خديجة بعيرٌ يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم.

* ووصل برُّ الطَّاهرةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى أبعد من ذلك، حيث كانت ثُوَيبةُ أول مرضعة للنَّبي ﷺ تدخل على النَّبي الكريم بعد أَنْ تزوَّج الطَّاهرة خديجة، فكانت تكرمُها وتصلُها وفاءً وكرماً لزوجها سيّدنا رسول الله ﷺ، ولذلك كان النَّبي الكريم ﷺ يجلُّها ويقدّرُها رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّـاهِرَة العَـابِـدَةُ:

* قال القائل:

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤٣٦).

وإذا حَلَّـــتِ الهـــدايـــةُ قلبـــاً

نشطـــتْ فـــي العبـــادةِ الأعضـــاءُ

* مكثتْ أمُّ المؤمنين خديجةُ ـ رضوان الله عليها ـ تُصلِّي مع النَّبي ﷺ الصَّلاة التي كانت وهي: ركعتان في الغداة، وركعتان في العشي، وذلك قبل أَنْ تُفْرضَ الصَّلوات الخمس في ليلة الإسراء.

* ذكر الإمام ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ قال: حَدَّثني بعض أهل العلم أنَّ الصَّلاة حين افترضتْ على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فَهَمَزَ له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرتْ منه عينٌ من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمّد عليهما السلام، ثم صلّى ركعتين، وسجد أربع سجدات، ثم رجع النَّبي ﷺ، وقد أقرَّ الله عينه وطابت نفسُه وجاءه ما يحبُّ مِنَ الله سبحانه وتعالى، فأخذَ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريلِ ثم ركع ركعتين وسجد أربع سجدات هو وخديجة، ثمّ كان هو وخديجة يُصلِّيان سرّاً.

* كانتِ الصَّلاةُ ـ بتلك الصّورة ـ آنذاك شيئاً غريباً عن المجتمع المكيّ وغيره لم يألفوه بعد، وفي حديث عفيف الكندي ـ أخي الأشعث بن قيس لأمّه وابن عمّه ـ ما يشيرُ إلى ذلك قال:

* كان العبّاسُ بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطرَ ويبيعه أيام الموسمِ، فبينا أنا عند العبّاسِ بمنى، أتاهُ رجل مجتمع ـ بلغ أشدّه ـ فتوضأَ فأسبغَ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأةٌ فتوضأت ثمّ قامت تصلي، ثم خرج غلامٌ قد رَاهَقَ فتوضأ ثم قام إلى جنبهِ يصلي، فقلتُ: ويحك يا عبّاس ما هذا الدِّين؟.

قال: هذا دينُ محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أنَّ الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابَعَهُ على دينه، وهذه امرأتُهُ خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف بعد أَنْ أسلم ورسخَ في الإسلام: يا ليتني كنتُ رابعاً[1].

* تلك صورة وضيئةٌ عن عبادة أمِّنا الطَّاهرةِ ـ رضي الله عنها ـ طليعة السَّابقين والسَّابقات إلى الإسلام قاطبة وإلى الصَّلاة أيضاً، تلك الصلة بين العبد ومولاه.

* وذكر ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ أنَّ الطَّاهرةَ خديجة أمّ المؤمنين روتْ عن رسول الله ﷺ حديثاً واحداً ولم يُذكَر في الصِّحاح[2].

* * *

الطَّاهِرةُ الصَّابِـرَةُ:

* ضربتِ الطَّاهرةُ أمّ المؤمنين خديجة في الصَّبر مثلاً شَروداً في حياة النِّساء، وفازتْ بالنَّجاحِ من جراء صبرها في الخطوات الأولى لسير الرِّسالة النَّبويةِ، فقد ذكر ابنُ إسحاق في السِّيرِ والمغازي قال:

كانت خديجةُ أولَ مَنْ آمنَ بالله ورسوله وصدَّق بما جاء به، فخفّفَ الله بذلك عن رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيب له فيحزنهُ ذلك إلا فرّجَ الله عنه بها، إذا رجع إليها تُثبّته وتُخفّفُ عنه، وتصدِّقُه وتهوِّنُ عليه أَمْرَ النَّاسِ رحمها الله[3]. وحالها كما قال القائل:

وهــيَ لا تنثنــي عــنِ الحــقِّ صَبــراً
ودفــاعــاً عــن خــاتَــمِ الأنبيــاءِ

* نَعم ـ عزيزي القارىء ـ فعندما نهضَ رسول الله ﷺ برسالته بشيراً ونذيراً، ودعا قومَه ليخرجهم من الظّلمات إلى النور، كذّبوه وخَذَلُوه في دعوته، كانت الطَّاهرة الصَّابرةُ بالمرصادِ لهذا الخذلان، وتفعل جاهدةً

---

(١) انظر عيون الأثر (١/ ١١٦)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٢٢ و٢٢٣)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٣٦ و ٤٣٧)، وانظر كذلك طبقات ابن سعد (٨/ ١٧ و ١٨) بلفظ قريب.

(٢) المجتبى لابن الجوزي (ص ٩١).

(٣) السير والمغازي (ص ١٣٢).

لتخفّفَ عن رسول الله ﷺ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنَّ قريشاً تمادت في طغيانها، وقاطعتْ بني هاشم مقاطعةً كاملةً ثلاث سنين، ودخلتِ الطَّاهرةُ أمُّ المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ حصار الشِّعْبِ مع رسول الله ﷺ.

* واشتدتِ الأزماتُ وتفاقمتِ الأحداثُ، واستشرى الأمر بين رسالة رسول الله ﷺ وبين الطغيان الوثني المتمثّل بصناديد قريش، فاضطربتْ عقولهُم في رؤوسهم الخاوية إلا مِنَ البغي والظُّلم واستعباد الضُّعفاء، ورجفتْ قلوبُهم الفارغة إلا من الفساد والتَّعبُّد للأصنام، غير أنَّ المسلمين صبروا صَبْرَ الكرام، وبرهَنوا على صبرهم بثباتهم وصدقهم.

وظلّتِ الطَّاهرةُ أمّنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ مِنْ وراء رسول الله ﷺ تشدُّ أزرَهُ، وتشاركه في حَمْلِ الأذى من قومه بنفس راضية صابرة محتسبة، حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظَّالمةِ المريرة التي مكثت سيفاً مصلتاً على أعناق المحاصرين المؤمنين برسالة محمَّد ﷺ.

* انتهى الحصارُ، وخرجتِ الطَّاهرةُ خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مِنَ الحصار ظافرة بثمرة صبرها لتتابعَ مع رسول الله ﷺ سيرها في الحياة زوجة أمينة مستظلة بظل الوفاء وصدق الإيمان وحسن الصَّبر، وفي ثبات المسلمين على هذه الشِّدة الرَّهيبةِ جعلهم الله من أصحاب المقامِ الرَّفيع في الآخرة، وجعلهم سادة الأرض في الدُّنيا، وذاك جزاء الصَّابرين، وأَجر الشَّاكرين.

وجــزاهــم فــي جنَّــةِ الخلــدِ فيمــا
صبـــروا وهـــي منـــه خيـــر جـــزاءِ

* * *

وَدَاعــاً أمَّــنا الطَّـاهِـرةَ:

* عندما خرجتِ الطَّاهِرةُ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مِنَ الحصار، لم تلبثْ إلا قليلاً حتى لبّتْ نداءَ ربِّها راضيةً مرضيةً، مبشّرةً من سيِّد الخلق سيّدنا

رسول الله ﷺ بمقْعَدِ صدق عند مليك مقتدر، وبالنَّعيم المقيمِ عند الكريم المتعال.

* توفيتِ الطَّاهرةُ ـ رضي الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنوات في مكة ولها من العمر خمس وستون سنة، ولما حضرتها الوفاةُ دخل عليها النّبي ﷺ فقال: «تكرهين ما أرى منك وقد جعل الله في الكره خيراً». وعند دفْنِها نزلَ رسولُ الله ﷺ في حفرتها[1]، وأدخلها القبر بيده الشريفة في الحجون[2]، ووَجَدَ عليه الصَّلاة والسَّلام لفقدها، وتركت وفاتها في نفسه أثراً عميقاً، إذ كانت الزّوجة الوفية التي يجد فيها سكن النَّفْس، وراحة الرُّوح، كما كان لموت عمِّه أبي طالب قبلها[3] أثر كبير في نفسه أيضاً حتى أطلق النَّبي ﷺ على ذلك العام اسم «عام الحزن»؛ لشدة ما كان فيه منَ الشَّدائد في سبيل الدّعوة أيضاً.

* وأودُّ ـ عزيزي القارىء ـ أَنْ أسجّلَ في هذا المجال فضلاً للدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي ـ حفظه الله ـ إذ يقول كلاماً طيّباً عن عام الحزن في كتابه القيّم «فقه السِّيرة»:

. . . بعض النَّاس يحسبون أنَّ سببَ تسمية الرَّسول ﷺ لهذا العام عام الحزن إنَّما هو مجرد فقده ﷺ لعمِّه أبي طالب وزوجته خديجة بنت خويلد، وربما استساغوا إقامة علائم الحزن والحِداد على موتاهم مدة طويلة منَ الزَّمن مستدلين بهذا؛ والواقع أنَّ هذا خطأ في الفهم والتقدير.

فالنَّبيُّ ﷺ لم يحزنْ على فراق عمّه وفراق زوجه ذلك الحزن الشَّديد، ولم يطلق على تلك السَّنة عام الحزن؛ لمجرد أنَّه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم، بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاقِ معظم أبواب الدَّعوة الإسلامية في وجهه، فقد كانت حماية عمّه له تترك مجالات كثيرة للدعوة

---

(١) المجتبى (ص ٩١).
(٢) جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها.
(٣) قيل: بثلاثة أيام.

وسُبُلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتَّعليم، وكان يرى في ذلك بعض النجاح في العمل الذي أمره به ربّه[١].

* * *

الطَّاهـرةُ أمُّ العِيالِ:

* ترك موتُ الطَّاهِرَةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ فراغاً هائلاً في حياة رسول الله ﷺ، أحسَّ به إحساساً قوياً، وحزن بسببه حزناً شديداً، وغلب عليه الوجد حتى خُشي عليه، فلقد غدا البيتُ بموتها خلاءً موحشاً لاأنيس به ولا سمير، ولما قالتْ له خولة بنت حكيم: يارسول الله كأنّي أراك قد دخلَتْكَ خَلَّة[٢] لفَقْدِ خديجة، قال: «أجل كانت أمّ العيال وربّة البيت».

ولله در القائل:

ولـــو كـــان النِّســـاء كَمَـــنْ فَقَـــدْنـــا
لفُضلـــتِ النِّســـاء علـــى الـــرِّجـــالِ

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ في السِّيرة: ثم إنَّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب، ماتا في عام واحد، فتتابعتْ على رسول الله ﷺ المصائب بموتهما، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، كان يسكن إليها[٣].

*وذكر الإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ أنَّ الطَّاهرة خديجة بقيتْ مع النَّبي الكريم ﷺ أربعاً وعشرين سنة وأشهراً ثم توفيت[٤].

* * *

---

(١) انظر فقه السيرة (ص ١٣٥).
(٢) أي: حزن وحاجة.
(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٣٦)، والإصابة لابن حجر (٤/ ٤٧٤).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤١).

الثَّنـاءُ علـى الطَّـاهِـرَةِ:

* يقولُ الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن الطَّاهرة خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ: ومناقبها جَمّةٌ، وهي ممَّنْ كَمُلَ مِنَ النِّساء، كانت عاقلةً جليلةً ديّنة مصونةً كريمةً، من أهل الجنّة، وكان النبي ﷺ يثني عليها ويُفضلها على بقية أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: ما غرتُ من امرأة ما غرتُ من خديجة من كثرة ذِكْرِ النبي ﷺ لها[١].

* وقد كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يحبُّها ويكرمُها ويثني عليها، وفي حقِّها يقول:

* «كملَ من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلا ثلاث: مريمُ بنت عمران، وآسيةُ امرأة فرعون، وخديجةُ بنت خويلد، وفضلُ عائشة على النِّساء كفضل الثَّريدِ على سائر الطعام».

* وقد عقَّب أحدُ الفُضلاء على هذا الحديث تعقيباً لطيفاً فقال: مِنَ الموافقاتِ اللطيفة التي جَمَعَت الثَّلاث في نسقٍ واحد أنَّ كلَّ واحدة منهن كفلت نبيّاً مرسلاً، وأحسنت صحبَته وآمنتْ به، فآسية ربَّت موسى، وأحسنت إليه، وصدّقت به حين بُعثَ، ومريم كفلت عيسى وربّته، وصدّقت به حين أُرسل، وخديجةُ رغبتْ في النَّبي وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول مَنْ صدّقه حين نَزل عليهِ الوحي.

* وكان النَّبي ﷺ يذكر الطَّاهرة خديجة كثيراً ويقول: «إنّي رُزِقْتُ حُبَّها»[٢].

وقال ﷺ في الثَّناء عليها أيضاً:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١١٠)، والحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.
(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل.

«خيرُ نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة» وأشارَ إلى السَّماء والأرض[1].

* ولقد ظلَّ زواجُ النَّبيِّ الحبيب ﷺ بالطَّاهرةِ خديجة قائماً حتى توفيت عن خمسة وستينَ عاماً، وقد ناهز النَّبي الكريم ﷺ الخمسين، وقضى أجمل سني حياته معها، وتركتِ الطَّاهرةُ في نفسه ﷺ أثراً نبيلاً لم تزدْهُ الأيام إلا بركةً ووفاءً لها وثناء عليها.

* ومن كرامتها عليه ﷺ أنَّه لم يتزوج امرأة قبلها، وكل أولاده منها ما عدا إبراهيم ابن مارية، ولم يتزوج عليها قطّ إلى أَنْ قضتْ نحبها ـ رضي الله عنها ـ.

* وبقي النَّبي الكريم ﷺ وفيّاً لها، يثني عليها دائماً، يحبُّ مَنْ يحبُّها، وترتاح نفسُه لنبرة صوتها؛ فقد كانت تستأذنُ عليه هالة بنت خويلد أخت الطَّاهرة خديجة، فيذكِّرهُ صوتها صوتَ خديجة وحديثها الطّيب وأيامها الحلوة المباركة، فيهشُّ لها، وترتاح نفسه لذلك، وتشرقُ أسارير وجهه الشَّريف ﷺ.

* * *

الوَفَاء للطَّاهِرة:

* كان النَّبي الكريمُ ﷺ ـ وهو الوفيّ ـ قد وفّى للسيدة الطَّاهرةِ خديجة أمّ المؤمنين في حياتها بكرمِ الصُّحبة وطيبِ العشرة، وظلَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام وفيّاً لها بعد وفاتها أشدَّ الوفاء، فقد كان دائم الذِّكر لها والإشادة بفضائلها وأولياتها، ومن ثَمَّ التَّرحم عليها، بل والإحسان إلى كل مَنْ يَمتُّ إليها بسبب.

* وقد كان النَّبيُّ الكريم ﷺ وفيّاً لمن لم يستحق الوفاء، فكيف بالطَّاهرة

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

منبع الوفاء ومعدن الفضائل كلّها؟! إذاً فلا عجب أَنْ يكونَ وفاؤه ﷺ وفاءً منقطع النَّظير.

* ومن الدَّلائلِ الرائعة على وفائه ﷺ للطَّاهرة خديجة، ما حَدَثَ في غزوة بدر الكبرى، إذ أُسِرَ أبو العاص بن الرَّبيع صِهْر الرَّسول الحبيب ﷺ وزوج ابنته زينب ابنة زوجه الوفية الكريمة خديجة، فأرسلتِ الوفيةُ زينب فداءً لزوجها أبي العاص؛ ومن ضمن الفداء قلادة كانت قلدتها بها والدتها المعطاء خديجة ـ رضي الله عنها ـ ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقّةً شديدة، وتذكَّرَ زوجه المباركة الوفية خديجة، وقال لأصحابه:

«إن رأيتم أَنْ تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا».

فما كان من أصحابه الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ إلا أَنْ سارعوا بالاستجابة للنَّبي الكريم ﷺ الذي حرّكته مشاعر الذكرى للصِّدّيقةِ الوفيّة الطَّاهرة ـ رضوان الله عليها ـ خديجة أمّ المؤمنين؛ فللّه هذهِ الطّاهرة المِعطاء أمّنا خديجة التي لها دَينٌ كبير في عنق كل مسلم ومسلمة، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

أوّليّاتٌ للطَّاهرة ـ رضي الله عنها ـ:

* للطَّاهرة الصِّديقة أم المؤمنين خديجة ـ رضوان الله عليها ـ أوّليّاتٌ لم تُسْبَقْ إليها، فهي كما قال الإمام عزُّ الدِّين أبو الحسن بن الأثير ـ رحمه الله ـ: خديجةُ أولُ خلقِ الله أَسْلَمَ بإجماع المسلمين لم يتقدمْهَا رجل ولا امرأة[1]. وهذه منقبة عظيمة لأم المؤمنين لا يدانيها فيها فضل.

* وقال الأئمةُ؛ الزُّهري، قتادةُ، موسى بن عقبة، ابنُ إسحاق، الواقدي،

---

(١) انظر في هذا أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧)، والكامل في التاريخ (٢/ ٥٧)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩).

وسعيدُ بن يحيى الأموي رحمهم الله تعالى: أولُ مَنْ آمنَ بالله ورسوله خديجة، وأبو بكر، وعلي[١].

* وقال الإمام الزُّهري ـ رحمه الله ـ: كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ أول مَنْ آمن بالله، وقَبِلَ الرسول رسالة ربّه وانصرف إلى بيته، وجعل لا يمرُّ على شجرة ولا صخرة إلا سلَّمت عليه، فلما دخل على خديجة قال: أرأيتُك الذي كنتُ أحدثُكِ أنّي رأيتُه في المنام، فإنَّه جبريل استعلن لي أرسله إليَّ ربي، وأخبرها بالوحي فقالت: أَبْشِر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً؛ فاقبلِ الذي جاءَكَ مِنَ الله فإنَّه حق[٢].

* وفي كتابه النَّفيس «الفصول» ذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أوليّات للطَّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال:

أولُ صِدّيق له رضي الله عنها وأكرمها[٣].

وفي موضع آخر يقول:

* أولُ مَنْ تزوّج رسول الله ﷺ خديجة، وأولُ مَنْ آمن به على الصَّحيح خديجة[٤].

ومن أوّليات الطَّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها:

* أولُ مَنْ صَلّى مع رسول الله ﷺ.
* وأولُ مَنْ رُزق منها الأولاد.
* وأول مَنْ بشَّرها بالجنَّة مِنْ أزواجه.
* وأول مَنْ أقرأها ربُّها السَّلام.
* وأول صدّيقة مِنَ المؤمنات.
* وأول زوجات النَّبي ﷺ وفاة.
* وأولُ قبر نزل فيه النَّبي الكريم ﷺ قبرها بمكة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ١٢٧).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ١٢٨).
(٣) الفصول (ص ٩٧).
(٤) الفصول (ص ٢٤٣)

الطَّـاهرةُ خديجـةُ والصِّديقـةُ عائشةُ ـ رضي الله عنهمـا ـ:

* كان الإمام مسروق بن الأجدع الهمداني التّابعي الثّقة المشهور، إذا حدَّثَ عن أمِّ المؤمنينَ عائشة قال:

حدّثتنا الصِّديقة بنتُ الصِّديق حبيبةُ رسول الله ﷺ المبرأة من السَّماء.

* هذه الصّديقة عائشة كانت لها مكانتُها في نفس رسول الله ﷺ، ذَكَرَتْ ذاتَ مرّةٍ الطَّاهرةَ خديجةَ أمَّ المؤمنين بدافع الغيرة، ولكنَّها نُهيَتْ أَنْ تذكرَ الطَّاهرةَ خديجة بهذه الصُّورة، فإنّها لم تصلْ إلى مكانها، فالطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ سابقةُ إسلام، وذاتُ رأيٍ سديد ومواساة لرسول الله ﷺ، وفضلُها عظيمٌ وخيرها عميم، تحدثت الصِّديقةُ بنتُ الصِّديق ـ رضوان الله عليهما ـ عن هذا فقالت:

كان رسولُ الله ﷺ لا يكاد يخرجُ مِنَ البيت حتى يذكرَ خديجة فيحسن الثَّناءَ عليها، فذكرها يوماً من الأيام، فأخذتْني الغيرةُ فقلتُ:

هل كانتْ إلا عجوزاً قد أبدلَكَ اللهُ خيراً منها؟!

فغضب ثم قال: «واللهِ ما أبدلني خيراً منها، آمنت بي إذْ كفرَ النَّاسُ، وصدّقتني إذ كذبني النَّاس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها».

قالت عائشةُ: فقلتُ في نفسي: فلا أذكرُها بعدها بسبّةٍ أبداً[1].

وروتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما غرتُ من امرأة ما غرتُ على خديجةَ من كثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرُها[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٧)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٢٤) بلفظ مشابه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

وفي تعليق الإمام الذَّهبيِّ ـ رحمه الله ـ على هذا الحديث ما يشيرُ إلى بركةِ ومكانةِ الطَّاهرة أمِّنا خديجةَ فيقول:

وهذا مِنْ أعجب شيء أَنْ تغارَ ـ رضي الله عنها ـ مِنْ امرأة عجوزٍ توفيتْ قبل تزوّج النَّبي ﷺ بعائشةَ بفترة مديدة، ثمَّ يحميها الله من الغيرة من عدةِ نسوة يشاركنها في النَّبي ﷺ، فهذا مِنْ ألطاف الله بها وبالنَّبي ﷺ لئلا ينكدر عيشهما[1].

* الله أكبر، أيُّ امرأة ـ الطَّاهرة خديجة ـ هذه التي ظلت ذكراها تصاحبُ النَّبيَّ ﷺ في حياته وهي تحتَ التُّراب؟! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* وفي بيت عائشة كرامات أخرى للطاهرة خديجة، فقد جاءت النَّبي ﷺ ذات يوم امرأةٌ عجوزٌ من صويحبات الطَّاهرة خديجةَ فأحسن لقاءها، وأكْرَمَ مثواها، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وصار يسألُ عن أحوالها وما صارت إليه، فقالت عائشة لمَّا خرجت: تُقبلُ على هذه العجوز هذا الإقبال! فقال: «إنَّهاكانت تأتينا زمان خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمان»[2].

* وفي صحيح الإمام مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النَّبي ﷺ كان إذا ذبحَ الشَّاة قال: «أرسلوها إلى أصدقاء خديجة» فذكرت له يوماً فقال: «إنيّ لأحبُّ حبيبَها».

* * *

الطَّاهرةُ وبشارتُها بالجنَّة:

* قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، [الواقعة: ١٠ـ١٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٥).

(٢) رواه الحاكم والبيهقي في الشعب.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٧ ـ ٨].

* للطَّاهرة أمِّ المؤمنينَ خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ منزلةٌ عظيمةٌ في حياة المصطفى ﷺ، وقد ظلّت مكانتها سامية عند النَّبيّ رسول الله ﷺ طوال حياته، ثَبتَ في الصحيحين أنَّها خيرُ نساءِ زمانها على الإطلاق، وقد بشَّرها ﷺ بالجنَّةِ مراراً؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

* أتى جبريل النَّبي ﷺ فقال: «أقرىء خديجةَ من الله ومني السَّلام، وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَبٍ لا صخبَ فيه ولا نَصَب»[1].

* وفي لفظٍ آخر روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ بشارة الطَّاهرة خديجة بالجنَّةِ فقال:

* «أتى جبريل عليه السَّلام إلى النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة أَتَتْكَ معها إناء فيه إدام طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربها وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَب لا صخَب فيه ولا نَصَب»[2].

* وفي هذا الحديث الشّريف ـ عزيزي القارىء ـ فضيلةٌ عظيمةٌ مباركة للطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجة ـ عليها رضوان الله ـ، حيثُ إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أقرأها السَّلام وكذلك جبريل عليه السَّلام، وإنَّه سبحانه وتعالى لا يقرىء السَّلام إلا لمن كانت عنده منزلة عالية، ومرتبة رفيعة، كما أنَّ الله قد بشَّرها ببيتٍ في الجنَّةِ ليس فيه صياح ولا منازعة، ولا ما يوجب المشقة والتّعب.

وللسُّهيلي ـ رحمه الله ـ تعليقٌ لطيف على هذا الحديث يشير إلى مكانة

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان، وانظر فضائل الصحابة للنسائي (ص ٧٥)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٣ و ٢٢٤).

(٢) رواه الإمام البخاري.

الطَّاهرة خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها [1] ـ.

* والطاهرة خديجة تتلقى السَّلام من الله وهي عند النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فعن سيّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:

«جاء جبريلُ إلى النَّبي ﷺ وعنده خديجة فقال: إنَّ الله يُقرىء خديجة السَّلام. فقالت: إنَّ اللهَ هو السَّلام، وعلى جبريل السَّلام، وعليك السَّلام ورحمة الله وبركاته»[2].

* وذكر أهلُ العلم أنَّ هذا الجواب مِنَ الطَّاهرة خديجة يدلُّ على فقهها ووفور عقلها وحسن أدبها ـ رضي الله عنها ـ.

* وفي حديث آخر ـ يرويه ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ إشارة إلى بشارة الطاهرة أمّ المؤمنين خديجة بالجنَّة فيقول:

* خطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض خطوطاً، قال: «أتدرون ما هذا؟».

قالوا: اللهُ ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «أفضلُ نساء أهل الجنَّة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريمُ بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[3].

* وعن سيّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ أنَّها قالت للنَّبي ﷺ: أين أمّنا خديجة؟.

قال: «في بيتٍ من قَصَب لا لغو فيه ولا نَصَب بين مريم وآسية».

* قالت: مِنْ هذا القَصَب؟.

* قال: «لا، بل مِنَ القصبِ المنظوم بالدُّر واللؤلؤ والياقوت»[4].

---

(١) راجع هذا إن شئت في كتاب «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٤٢٨ و ٤٢٩).
(٢) فضائل الصحابة للنسائي (ص ٧٥ و ٧٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٣).

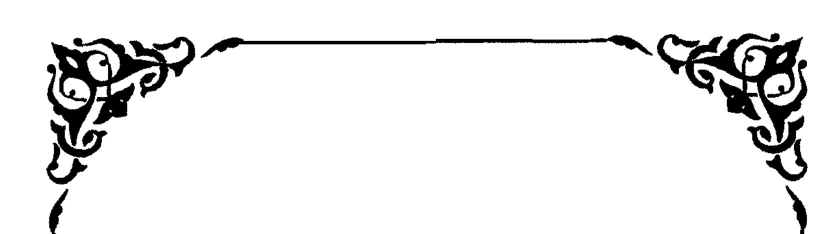
* نعم فقد كانت الطَّاهرةُ خديجة وزيرة صدق على الإسلام، ووفَّرت كُلَّ وسائل الرَّاحة للنَّبي ﷺ في دنياها، فكان جزاءً وفاقاً أَنْ يوفرَ اللهُ سبحانه لها كلّ وسائل الراحة والنَّعيم في أخراها. ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

* وبعد، فهذه صفحاتٌ مباركة مشرقةٌ مِعْطار من حياة الطَّاهرة أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها وأرضاها - سيّدة نساء العالمين؛ التي شرّفها الله فجعلها أولى زوجات النَّبي الطَّاهرات رضوان الله عليهن.

* والحديث - أخي القارىء - عن الطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجة حديث ممتعٌ وطويل، ولكنّي حاولتُ إبراز بعض مواقفها العطرة وتبيان كرامتها وبشارتها بالجنّة - رضي الله عنها وأرضاها -.

* مرة أخرى نقول: رضي الله عنِ الطَّاهرةِ خديجة أمّ المؤمنين، وقبل أَنْ نودّعَ أمّنا في عليين عند العلي القدير نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ـ ٥٥].

* * *



(٢)

فاطمة بنت أسد

رضي الله عنها

«. . . . . . إنَّما أَلبستُها قَميصي لتُكسى من حُلَلِ الجَنَّةِ. . . .»

حديث شريف

«الله الذي يُحيي ويُميتُ، وهو حيّ لا يَموتُ، اغْفِر لأمّي فَاطمةَ بنت أَسَد. . . »

حديث شريف





تعريفٌ وتَقْديم:

* نحن اليوم في رحاب صحابية جليلة، حافظت على رسول الله ﷺ حفاظَ الصَّدر على القلب، والأجفان على العين، أحبّته حبَّ الأمّ الرؤوم لوحيدها.

هذه السّيدة الجليلة واحدة من النّساء الفاضلات اللاتي كان لهنّ نصيبٌ في تاريخ الإسلام في مراحله الأولى، وكان لها خدمات حِسَان ومواقف رائعة، سُجِّلت لها بأحرف تشعّ بالنّور وتفيض بالبركة.

* وهذه الصّحابية الكريمة لها مِنَ الآثار والمناقب ما جعلها مِنَ الأوائل، فقد حظيتْ بتربية خير خَلْق الله على الإطلاق محمّد ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب.

وهي كذلك والدةُ رابع الخلفاء الرّاشدين وفارس النّبي الكريم سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وهي أيضاً جدة سَيّدَي شباب أهل الجنة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

أضف إلى ذلك أنّها أُمُّ الشّهيد سيدنا جعفر الطيار أحد الأمراء الثّلاثة في سرية مؤتة.

وهي فوق هذا وذاك حماة سيدة نساء العالمين في زمانها، بنت سيد الخَلْق رسول الله ﷺ، الصّابرة الدّينة الخيّرة الصيّنة القانتة الشّاكرة لله، فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها.

* والآن، فمَنْ كبيرةُ القَدْر من الصّحابيات التي جُمعَتْ لها وفيها تلكم الفضائل؟.

الإمام شمس الدين الذّهبي ـ رحمه الله ـ يقدِّمُ لنا بطاقة هذه الصّحابية فيقول: «فاطمةُ بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، الهاشمية، والدة علي بن أبي طالب»[1].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٨) وانظر كذلك تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٦٢١).

* كانت فاطمة[1] ـ رضي الله عنها ـ من المهاجرات الأُوَل، وتلتقي مع رسول الله ﷺ في جَدِّه هاشم.

* * *

رعـايتُهـا للنّـبي ﷺ:

* لما أحسّ عبد المطلب جدّ النّبي ﷺ بدنو أجله، أوصى ولده أبا طالب بأنْ يحوطَ ابنَ شقيقه محمّد بن عبد الله، ولعلَّ عبد المطلب قَصَدَ مِنْ هذا إلى أنَّ اليَدَ الحانيةَ الأمينة تكمن في بيت أبي طالب، وعند زوجه فاطمة بنت أسد صاحبة القلب الرّحيم، وبرهنَ أبو طالب وزوجه فاطمة على حُسْنِ الرِّعاية لمحمّد ﷺ، فقد جعلت فاطمة تشمله برعايتها، وتشرف عليه مع زوجها، وكانت ترى البركةَ تحلُّ في طعام أولادها إذا أكل معهم محمّد ﷺ.

* وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أَنْ يغديَهم أو يعشيهم يقول: كما أنتم حتى يأتي ابني، فيأتي رسولُ الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبناً شرب رسول الله ﷺ أوّلهم، ثم تناول القَعْب ـ القدح ـ فيشربونَ منه، فيروون عن آخرهم من القَعْب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قَعْباً وحده، فيقول أبو طالب: إنّك لمبارك.

وكان الصّبيان يصبحون شعثاً رُمصاً[2]، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً[3].

---

(١) ذكر أبو بكر بن الحسن بن دريد في كتابه النفيس «الاشتقاق» أن اشتقاق فاطمة من الفَطْم وهو القَطْع، ومنه فُطِم الصبي إذا قُطع عنه اللبن. . . . . . . ويقول الرجل للرجل: والله لأفطمنَّك عن كذا وكذا، أي لأمنعنَّك عنه. كتاب الاشتقاق (ص ٣٣ و ٣٤).

(٢) الرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في مُوق العينين.

(٣) انظر عيون الأثر (١/ ٥١)، والسيرة الحلبية (١/ ١٨٩).

* وكانت فاطمة بنت أسد ترى كل هذا، فتزداد حباً ورعاية للنّبي الكريم، وتُحسنُ إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لذلك كان النّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يتمثّل شخص أمِّهِ - آمنة بنت وهب - في شخص فاطمة بنت أسد زوج عمه التي وفّرت له سُبُل الرّعايةِ في طفولته وفي شبابه، فكانت له من بعد أمِّه أمّاً، ومن بعد جدّه قلباً حانياً يفيض بالعطف والإيثار، وظلت ترعاه إلى أَنْ تزوجَ بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها.

* كانت فاطمة تسمعُ ما يتكلم به النّاس عن محمد عليه الصّلاة والسّلام، وكثيراً ما كانت تسمع من زوجها أبي طالب قوله: إنّ ابنَ أخي ليخبر بنعيم[1] - أي بشرف عظيم -.

وكذلك سمعتْ عما حصل له ﷺ من البركة عندما سافر مع زوجها إلى الشّام، وسمعت ما حدّثَ به ميسرة غلام خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - من خصال الخير عندما سافر بتجارتها إلى الشَّام.

وها هي تدفَعُ بفلذة كبدها عليّ بن أبي طالب ولدها ليعيشَ في بيت رسول الله ﷺ، وكانت ترى فيه الأبَ الرّحيم، وقد لاحظتْ عناية الرسول الكريم بولدها منْ قَبْل، فقد رُوي عنها أنّها قالت: لما ولدته سمّاه علياً، وبصق في فِيه - فمه - ثم ألقمه لسانه، فما زال يمصّه حتى نام، فلما كان من الغَدِ طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثديَ أحد، فدعونا له محمداً ﷺ فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله عزّ وجل[2].

* لهذا كله ظلت فاطمة بنت أسد تخصّه بالاحترام والتقدير، لما حباه الله سبحانه من صفات الكمال، فقد عصمه الله من عبث الجاهلية وأدرانها، فكان ﷺ نموذجاً حياً للفضيلة والخير والصّدق.

* * *

---

(١) انظر السيرة الحلبية (١/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٣٢).

إسلامُها ـ رضي الله عنها ـ:

* أوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم أَنْ ينذر عشيرتَه، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: ٢١٤]. فامتثل النّبي الكريم أمْرَ ربّه، ودعا أقاربه إلى خيرَي الدّنيا والآخرة، وكانت فاطمة بنت أسد من النّساء اللاتي سارعن إلى الإيمان بالله ورسوله، واعتذر زوجها أبو طالب اعتذاراً لطيفاً، بينما أسلم أولادها وأولهم سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

* وهنا بدأت حياة الصّحابية الفاضلة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ، تسير في طريق آخر يختلف عن ذي قبل، فقد بدأت قريش تهاجم محمداً ﷺ، وتقفُ في وجه الإسلام تحاربه بكل السُّبل، وخاصمت بني هاشم من أجله، وهالَهم عندما رأوا عمَّه أبا طالب قد حَدَب على ابن أخيه وقام دونه فلم يُسلمه إليهم، وراحوا ينتقمون من الذين آمنوا وتبعوا محمداً ﷺ.

ولما رأى النّبي ﷺ أنَّ قريشاً ممعنة في تعذيب أصحابه، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، ووقفتْ فاطمة بنت أسد تودِّع ابنها الأثير ـ جعفر ـ وزوجه أسماء بنت عميس، ودّعته وقلبها يتفطّر حزناً، فقد كانت ترى فيه شَبَه[1] النّبي الكريم ﷺ، وكان ابنها جعفر أمير المهاجرين في الحبشة.

* ولما رأت قريش أنَّ الأمر يكاد يخرج من يدها، لجأت إلى مقاطعة بنت هاشم، وحُصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشعب، وصبرت فاطمة بنت أسد مع مَنْ صبر من النّساء تبتغي بذلك رضوان الله،

---

(١) كان الذين يشبهون النبي الكريم ﷺ خمسة، وكلّهم من قريش وهم: جعفر بن أبي طالب، وقثم بن العباس، والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، والحسن بن علي بن أبي طالب، وقد نظمهم شعراً ابن سيد الناس فقال:

بخمسة شبه المختار من مضر ... يا حَسْنَ ما خوِّلوا من شبهه الحسَنِ
بجعفر وابن عم المصطفى قثم ... وسائب وأبي سفيان والحسنِ

وقاست واشتد عليها البلاء، وأكلت ورق الشّجر مع المسلمين المحاصرين، ورأت قريش أنَّ بني هاشم وبني عبد المطلب قد صبروا للمحنة كراماً، واحتملوها أعزة شمّاً، بل عجبوا من صَبْر نسائهم على تحمّل المحنة التي استمرت نحواً من ثلاث سنين، وذكر هذا ابن سعد في الطّبقات فقال: «فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفوا أنّهم لن يسلموهم، وكان خروجهم من الشِّعب في السَّنة العاشرة من البعثة».

* وفي هذه السّنة توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج الرّسول الكريم، ثم توفي عمّه أبو طالب، فاشتدت المصائب على المسلمين، وأخذت قريش تجتهد أكثر في إيذاء الرّسول الكريم ﷺ إلى أَنْ أذن اللهُ بالهجرة إلى المدينة المنورة.

* ولما هاجر الرّسول الكريم وأصحابه إلى المدينة، هاجرت فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ هاجر، ونالت بذلك أَجْر الهجرة مع المهاجرات، وذكر الزّبير بن بكار إسلامها وهجرتها فقال: وقد أسلمت وهاجرت إلى الله ورسوله[١].

* * *

مكـانتُهـا ومناقبُهـا ـ رضـي الله عنها ـ:

* ذكر الإمام الشَّعبي أحد سادة التَّابعين رحمه الله، إسلامَ فاطمة بنت أسد وهجرتها فقال: أمُّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فاطمة بنت أسد بن هاشم، أسلمت وهاجرت إلى المدينة[٢].

* وتحدث ابن سعد عن مكانة فاطمة بنت أسد عند رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٧٠).
(٢) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨) والإصابة (٤/ ٣٦٨).

أسلمت فاطمة بنت أسد وكانت امرأة صالحة، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويقيل في بيتها[1].

* وكان رسول الله ﷺ يحترمها احتراماً شديداً لما كانت عليه من صلاح ودِين، وكان يحسن إليها لما كانت عليه من أخلاق وحسن رعاية وبرّ بالنَّبي ﷺ.

* ولما تزوج ابنها علي - رضي الله عنها - فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، كانت فاطمة بنت أسد مثال الحماة الطيبة والأم الرؤوم، ويحدثنا سيدنا علي عن هذا فيقول: قلت لأمي فاطمة بنت أسد: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء، والذّهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل الطحن والعجن[2].

* ولمكانتها الرفيعة عند رسول الله ﷺ، كان يتحفها بالهدية، فعن جعدة بن هبيرة عن عليّ قال: أهدى إليّ رسولُ الله ﷺ حلّة إستبرق فقال: «اجعلها خُمُراً بين الفواطم» فشققتُها أربعةَ أخمرة، خماراً لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخماراً لفاطمة بنت أسد، وخماراً لفاطمة بنت حمزة، ولم يذكر الرّابعة[3].

* وما دمنا في ذكر الفواطم، فالفواطم الصَّحابيات أربع وعشرون صحابية، كل واحدة منهن اسمها فاطمة، والفواطم اللاتي ولدنَ النَّبي ﷺ: قرشية، وقيسيتان، ويمانيتان، وأزدية، وخزاعية[4].

* ومن الطريف هنا أن لفاطمة بنت أسد - رضي الله عنها - أوليات في التّاريخ، فقد ذكر ابن الأثير - رحمه الله - هذا فقال: هي أولُ هاشمية وَلَدَتْ

---

(١) انظر الطبقات الكبرى (٨/ ٢٢٢) وصفة الصفوة (٢/ ٥٤).

(٢) انظر صفة الصفوة (٢/ ٥٤) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٦٢١) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٥٦).

(٣) انظر الإصابة (٤/ ٣٧٠)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٢). قال ابن حجر: ولعلها - أي الرابعة - امرأة عقيل بن أبي طالب، واسمها فاطمة بنت شيبة.

(٤) انظر مادة «فطم» في القاموس المحيط ولسان العرب.

لهاشمي، وهي أيضاً أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولدت الحسن، ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين لا نعلم غيرهن.

* وكان لفاطمة بنت أسد ـ رضوان الله عليها ـ مكانة سامية في نفوس الصّحابة رضي الله عنهم، وخاصة شعراء الصّحابة؛ فقد ذكرها حسان بن ثابت شاعر الرّسول لما رثى ولدها جعفر بن أبي طالب عندما استشهد في مؤتة[1]، وهذا الحجاج بن علاط السُّلمي ـ يمدح سيدنا علي بن أبي طالب، عندما قتل طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين يوم أحد، ويذكر أمّه فاطمة:

لله أيُّ مـــذنـــبٍ عـــن حُـــرمـــة
أعنـــي ابـــن فـــاطمـــة المُعَـــمَّ المُخْـــوِلا

جـــادت يـــداك لـــه بعـــاجـــلِ طَعْنـــةٍ
تـــركـــتْ طُلَيْحَـــةَ للجبيـــن مُجَـــدَّلا[2]

* * *

وفـاتُهـا وكرامتُهـا ـ رضي الله عنهـا ـ:

* ذكر السَّمهودي ـ رحمه الله ـ في كتابه النّفيس «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» أنَّ رسولَ الله ﷺ قد دفن فاطمة بنت أسد بن هاشم بالرّوحاء في المدينة المنورة.

وكانت لفاطمة مكانة كبيرة في نفس النّبي الكريم، فلما توفيت لم ينسَ

---

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٢٢) طبعة دار المعارف.
(٢) انظر هذا الخبر في ديوان حسان بن ثابت (ص ٩٠)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٥١)، وانظر ترجمة الحجاج بن علاط في الإصابة، وانظر البداية والنهاية (٧/ ٣٣٦).

رسول الله إكرامها، فقد ذُكر أنَّه كفَّنَ فاطمة في قميصه، واضطجع في قبرها، وأثنى عليها خيراً[1].

* ومن الأخبار الذّهبية التي تضاف إلى كرامات الصّحابية الجليلة فاطمة بنت أسد، ما ذكره السّمهودي من أنَّ النّبي ﷺ، لم ينزلْ في قَبْرِ أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قبر خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ بمكة، وأربع بالمدينة، قبر ابن خديجة كان في حجر النّبي ﷺ وتربيته، وقبر عبد الله المزني الذي يقال له ذو البِجَادين، وقبر أم رومان[2] أم عائشة بنت أبي بكر الصديق، وقبر فاطمة بنت أسد[3] رضي الله عنهم جميعاً.

* وكان لوفاة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ أثرٌ كبيرٌ في نفس النّبي الكريم، وفي نفوس الصّحابة، وقد أثنى عليها رسول الله وكفّنها ببُرده ودعا لها، روى ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال:

بينا نحن جلوس مع رسول الله ﷺ، إذ أتاه آتٍ فقال: يا رسول الله إنَّ أمَّ عليّ وجعفرَ وعقيل قد ماتت، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى أمي» فقمنا وكأنَّ على رؤوس مَنْ معه الطير، فلما انتهينا إلى الباب نَزَعَ قميصَه فقال: «إذا غسلتموها فأشعروها إياه تحت أكفانها».

فلما خرجوا بها جعل رسول الله ﷺ مرة يحمل، ومرة يتقدم، ومرة يتأخر، حتى انتهينا إلى القبر، فتمعَّك في اللحد ثم خرج فقال: «أدخلوها باسم الله وعلى اسم الله» فلمّا أنْ دفنوها قام قائماً فقال: «جَزَاكِ الله من أم وربيبة خيراً، فنعم الأم ونعم الربيبة كنتِ لي» قال: فقلنا له أو قيل له: يا رسول الله لقد صنعت شيئين ما رأيناك صنعت مثلهما قط! قال: «ما هما»؟ قلنا: نَزْعُك قميصك وتمعّكك في اللحد، قال: «أمّا قميصي فأريد ألا تمسها

(١) أسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨).
(٢) انظر سيرة أم رومان في هذا الكتاب.
(٣) عن وفاء الوفا للسمهودي (٣/ ٨٩٧).

النار أبداً إنْ شاء الله تعالى، وأما تمعكي في اللحد فأردتُ أَنْ يوسِّعَ الله عليها في قبرها»[1].

وفي رواية أخرى تُضاف إلى كرامة فاطمة وهي أنَّ النّبي ﷺ، اضطجع في لحدها ثم قال: «الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حُجَّتها، ووسِّع عليها مدخلها؛ بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحم الراحمين». ثم كبّر عليها أربعاً فأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصّديق رضي الله تعالى عنهم[2].

* * *

بشارتُها بالجنَّة:

* قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

* الصَّحابية الجليلة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ واحدة من النّساء اللواتي سارعن إلى نصرة الرّسول والإسلام بكل ما تقدر عليه، وقد أسدت صنيعاً طيّباً إلى رسول الله، ووقفت وقفةً مباركة منذ فجر الإسلام إلى أَنْ لقيت ربَّها في المدينة المنورة.

ورسول الله ﷺ، وهو الكريم الرَّحيم لا يضيع الإحسان، ولا ينكر الجميل مع أحد صَنَعَ معه معروفاً أو جميلاً، فكيف بفاطمة بنت أسد التي كانت تقوم مقام أمّه، وهاجرت إلى الله ورسوله[3]، ولم تتوقف عن العطاء يوماً واحداً، ولذلك ذكرها عليه الصّلاة والسّلام بالفضل والخير عندما توفيت، فعن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ علي ـ رضي الله عنها ـ، دخل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها فقال:

---

(١) انظر وفاء الوفا (٣/ ٨٩٧).
(٢) انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٧).
(٣) انظر النجوم الزاهرة (١/ ١١٩).

«رحمك الله يا أمي، كنتِ بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيّباً وتطعميني؛ تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة»[١].

* وقد نالت فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ البشارة بالجنة، ولنترك سيّدنا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقصُّ علينا نبأ هذه البشارة العظيمة فيقول:

لما ماتت فاطمة أمّ علي ألبسها النّبي ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقالوا: ما رأيناك يا رسول الله صنعتَ هذا! فقال:
«إنَّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستُها قميصي لتكسى مِنْ حلل الجنة واضطجعتُ معها ليهوَّن عليها»[٢].

* وأودّ هنا أَنْ أوردَ خبراً مباركاً لفاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ، فقد ذكر صاحب السّيرة الحلبية نقلاً عن القرطبي في التّذكرة، أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خصّ رسوله الكريم محمداً ﷺ بأنَّه لا يُضغط في قبره، وقد سَلِمَتْ فاطمةُ بنت أسد من ضغطة القبر ببركته ﷺ، حيثُ اضطجع عليه الصَّلاة والسَّلام في قبرها[٣].

* وبعد، فهذه فاطمة بنت أسد الصّحابية الجليلة التي حظيت بتكريم الله وتكريم رسوله فنالت الجزاء الأوفى، ولعلنا ونحن في ختام سيرتها المعطار أَنْ نذكر لها منقبة شريفة، وهي أنَّها مِنْ روايات الحديث، فقد روت عن النَّبي الكريم ﷺ (٤٦) حديثاً، أخرج لها منها في الصّحيحين حديث واحد متفق عليه.

ولعله من الخير أيضاً أن نذكر هنا ما قاله ﷺ في فضيلة نساء قريش، فعن

---

(١) انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٦) وذكر الهيثمي أن الطبراني قد روى الحديث.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٨)، وقد أورد الهيثمي بلفظ قريب في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وانظر الاستيعاب (٤/ ٣٧٠) وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨)، ووفاء الوفا (٣/ ٨٩٨).
(٣) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٦٧٣).

أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:
«نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أَحْنَاه[1] على طفل في صغره، وأرعاه[2] على زوج في ذات يده»[3] وكان أبو هريرة يقول: ولم تركب مريم ابنة عمران بعيراً قط[4].

* رحم الله فاطمة بنت أسد الصحابية الخيرة من أهل الجنّة التي صلّت عليها الملائكة، ونضَّر الله قبرها.

ومع وداع سيرة هذه الصّحابية المباركة المعطاء نقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ و٥٥].

* * *

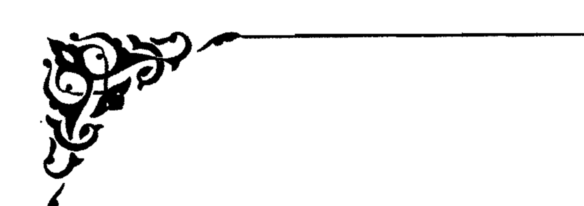
---

(١) من الحنو: العطف.

(٢) من الحفظ والمراعاة.

(٣) في جامع الأصول لابن الأثير (٩/ ٢١٠) تتمة لقول أبي هريرة وهي: «ولو علمت أنها ركبت بعيراً ما فضلت عليها أحداً».

(٤) رواه البخاري في عدة مواضع في كتاب الأنبياء، والنكاح، والنفقات، ورواه مسلم والإمام أحمد أيضاً.



(٣)

أم حَرام بنتُ مِلحَانَ
رضي الله عنها

«أولُ جَيشٍ منْ أُمّتي يغْزونَ البحر قَدْ أوجَبوا» قالت أمّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم»

حديث شريف

«أنت منَ الأوّلينَ ولسْتِ منَ الآخِرينَ»

حديث شريف







السَّـابقَـةُ السَّـابقَـةُ:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان بن خالد الأَنْصَارية النَّجارية المدنيّة، واحدةٌ مِنْ عليّة النِّساء اللاتي كُتِبَ لهنَّ الخلودُ، وكان لهنَّ شأن بين نساء الإسلام.

* عاصرتْ أمُّ حرام أحداث النُّبوة في المدينة المنورة، وكانت منَ اللائي حظينَ بشرفِ صحبة رسول الله ﷺ، فقد أسلمتْ وبايعتْ رسول الله ﷺ، واصطبغت بصِبْغة الإسلام وذاقت حلاوته، فاستقرتْ محبّته في قلبها النقي، وبدأت نفسها الصَّافية تشرق بنور النُّبوة، وتفيض بالبذل والإيثار والخير.

* وأمَّ حرام بنت ملحان إحدى السَّابقات الأنصاريات إلى الإسلام، ومن أوائل النِّساء اللواتي أعلنَّ إسلامهنَّ قبل هجرة النَّبي الكريم إلى المدينة، وهي كذلك مِنَ المؤمنات اللاتي شهد الله سبحانه لهنَّ وللمؤمنين بكمال الإحسان بقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التّوبة: ١٠٠].

* * *

الشَّـجرةُ الطَّـيّبـةُ:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان أخت الغيمصاء، والغميصاء هي أمّ سُلَيم بنت ملحان[(١)] إحدى النِّساء الفاضلات المبشّرات بالجنّة اللاتي تركنَ أثراً مباركاً وضّاءاً في عصر النُّبوة.

* وضيفةُ حلقتنا خالة سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وأخت البطلَيْن الشَّهيدين حرام وسُلَيم ابني ملحان بن خالد، شهدا بدراً وأُحُداً،

---

(١) انظر سيرة أم سليم في هذا الكتاب.

وقُتِلا شهيدين يوم بئر معونة، وحرامُ بن ملحان أخوها؛ هو الذي حمل كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل زعيم بني عامر وأحد الشُّعراء الفرسان، فلما أتاه بالكتاب لم ينظرْ فيه حتى عدا على حرام فقتله[١].

ورُوي عن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ خاله حرام بن ملحان طُعِنَ يوم بئر معونة في رأسه فتلقّى الدمَ بكفِّه وقال: فُزْتُ ورب الكعبة[٢].

* وأمُّ حرام كذلك هي أمّ الشَّهيد قيس بن عمرو بن قيس وزوج الشَّهيد عمرو بن قيس بن زيد، فقد شهد ابنها قيس بدراً، وشهد مع أبيه أحداً وقُتلا شهيدين يومها ـ رضي الله عنهما ـ.

* وحتى تكتمل أغصان الشَّجرة الطَّيبة فقد تزوّجها أحدُ أبطال الإسلام وعلمائهم سيّدنا عبادة بن الصامت، وما أدراك ما عبادة! فهو واحدٌ مِمَّنْ شهدوا العقبة مع السَّبعين منَ الأنصار وأحد النُّقباء الاثني عشر، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان عقبياً نقيباً بدرياً أنصارياً، فأكرمْ بهذه الأوسمة المباركة.

وأنجبتْ منه ابنها محمّد بن عبادة بن الصَّامت، وكان سيِّدنا عبادة ـ رضي الله عنه ـ يحسِنُ لزوجه أمّ حرام وإلى ابنها عبد الله بن عمرو بن قيس ربيبه، وكان عبد الله بن عمرو هذا؛ خيّراً فاضلاً صلى القبلتين، وصحب النَّبي الكريم ﷺ وروى عنه[٣].

* في هذه البيئة الطَّيبة المتفرِّعة بالبركة والخير كانت حياة الصَّحابية الجليلة أمّ حرام بنت ملحان، ومن زوجها الصَّحابي الجليل عبادة بن الصَّامت اقتبستْ كلّ معالم الخير والفضائل التي كانت موجودة فيه، فقد كان أحد كُتّاب الوحي، وأحد معلِّمي القرآن وجامعيه، وأحد النّجوم الأبرار ليلة العقبة، وبطل الأبطال في بدر أمِّ الأبطال، وغيرها من المشاهد، وكان عَلَماً

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص١٨٠).

(٢) انظر الاستبصار (ص٣٦).

(٣) انظر في هذا كتاب الاستبصار (ص٦٨).

مُنيراً في بيعة الرّضوان، وغير ذلك منَ المكارم التي استوحتْها منه، فشاركت في نُصْرة الإسلام ونشره ـ رضي الله عنها وعنه ـ.

* * *

المَكَانَةُ العُلْيَا:

* اشتهرت الصَّحابية الجليلة أمّ حرام بالتَّقوى والورع والفضل، وهي كما قال عنها الإمام الذَّهبي رحمه الله تعالى: كانت من علية النِّساء[1].

ولذلك كان النَّبي الكريم ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها في قباء[2] ذلك المكان الذي نزل فيه رسول الله ﷺ أول ما هاجر إلى المدينة المنورة.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام إذا ذهبَ إلى قباء استراح عندها، فكانت تكرمه وتُسَرُّ به، وكان رسول الله ﷺ يدخل عليها زائراً وعلى أختها أمّ سليم، حدَّثَ عن هذا أنس ـ رضي الله عنه ـ فقال: دخل علينا رسول الله ﷺ ما هو إلا أنا وأُمّي وخالتي أمّ حرام فقال: «قوموا فلأصلِّ بكم» فصلى بنا في غير وقتِ صلاة[3]. ولما انتهت هذه الصَّلاة دعا لأهل البيت بكل خير من خيري الدُّنيا والآخرة.

ومن الجدير ذكره هنا أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ أمَّ حرام وأمَّ سُلَيم كانتا محرماً لرسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر أنَّهما كانتا إحدى خالاته من الرَّضاعة، وذكر آخرون أنَّهما كانتا خالتان لأبيه أو لجدّه، لأنَّ عبدَ المطلب كانت أمُّه من بني النَّجار[4].

* وكانت لأمِّ حرام مكانة كبيرة عند النَّبي الكريم؛ فقد رُوي أنَّه ﷺ كان

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٦).
(٢) انظر وفاء الوفا للسمهودي (٣/ ٨٨٢).
(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب: جواز الجماعة في النافلة، وانظر الاستبصار (ص ٣٩ و٤٠).
(٤) انظر النووي على شرح مسلم (١٣/ ٥٧) وانظر السيرة الحلبية (٣/ ٧٣).

يدخل على أخت أمِّ سُليم وهي أمّ حرام ـ رضي الله عنها ـ وتفلِّي له رأسه الشَّريف وينام عندها[1]. روى سيدنا أنس ما يتوافق مع هذا مِنْ حديث؛ فذكر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحتَ عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسولُ الله ﷺ فأطعمته ثم جلستْ تُفَلِّي رأسَه فنام رسول الله ﷺ[2].

* * *

حُبُّها للجِهَاد:

* كانتِ الصَّحابيةُ الكريمة أمّ حرام ـ رضوان الله عليها ـ تتمنّى أَنْ تكونَ مع ركْبِ الشُّهداء، وذلك لِمَا للشُّهداء مِنْ منزلةٍ وكرامة عند الله سبحانه، وكانتِ الشَّهادة في سبيل الله نصْبَ عينيها، وحلماً تودُّ تحقيقه، وكثيراً ما كانت تسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يرزقَها الشَّهادة إلى أَنْ بشَّرها رسولُ الله بذلك ودعا لها بالشَّهادة[3]، وأخبرها بأنَّها شهيدة[4] ستغزو في البحر.

* وفي كتابه النَّفيس ـ الاستبصار ـ ذكر ابنُ قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ حرام كانت تُدعى الشَّهيدة لحديث روتْه عن رسول الله ﷺ يبشِّرُها فيه أنَّها مِنَ الأوَّلين[5].

* * *

مِنْ مَنَاقِبِهَا:

لأمِّ حرام ـ رضي الله عنها ـ مناقبُ تفيضُ بالبركة، وتتّسِم بالكرم؛ فمن ذلك أنَّها كانت حافظةً واعيةً لحديث رسول الله ﷺ، روت عنِ النَّبي الحبيب ﷺ خمسة أحاديث، أخرج لها منها في الصَّحيحين حديثٌ واحد متفق

---

(١) انظر نسب قريش (ص ١٢٤) والسيرة الحلبية(٣/ ٧٣).
(٢) انظر دلائل النبّوة للبيهقي (٦/ ٤٥٠)، وانظر وفاء الوفا (٣/ ٨٨٢).
(٣) الاستيعاب (٤/ ٤٢٤).
(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣).
(٥) انظر نسب قريش (ص١٢٥).

عليه[1]، وروى عنها زوجُها سيّدنا عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ، وسيّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وروى عنها كذلك عُمير بن الأسود وعطاء بن يسار ويعلى بن شداد بن أوس[2] وغيرهم.

* ومما يُضَاف إلى مناقب أمِّ حرام رضوان الله عليها، البذل والإيثار لرسول الله ﷺ والقيام على خدمته كلَّما زارها، وفضيلة الجود والإيثار منْ صفات الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم غيرهم، وخاصّة المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ، وهذا بلا شك يدلُّ على صفاء النَّفس من أكدار الدُّنيا وزُخْرفها، ويدلُّ على قوة الرُّوح والبعد عن الشُّح، لأنَّ الشُّحَّ داءٌ عُضَال لا يصدر عنه خير، وقد سجَّلَ الله سبحانه هذه الميزة المباركة للأنصار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* * *

بشارتُـهَـا بالجنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣ ـ ٢٤].

* الصَّحابيةُ المِعْطاء أمُّ حرام ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ واحدة من النساء اللائي عُرفنَ بنقاء السَّريرة وصدْقِ الإيمان، والإخلاص في العبادة، فحملَها الشوقُ إلى الجنَّة، وكانت تطلب مِنَ الله الشَّهادة في سبيله، وسألتِ النَّبيَّ الكريمَ أنْ يدعو الله لها ليجعلَها مِنَ الشَّهداء في سبيله، فاستطار قلبُها فرحاً

---

(١) المجتبي (ص ١٠٥). وقيل أنها روت سبعة أحاديث.
(٢) انظر الإصابة (٤/ ٤٢٤) وتاريخ الإسلام (٢/ ٣١٨).

واستبشاراً بذلك، واستقرَّت صورةُ الشَّهادة في أعماقها، وباتت ترجوها، فالرَّسول الكريمُ ﷺ لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى علَّمه شديد القوى.

* وانتقل النَّبي الكريم ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى وهو راضٍ عن أمِّ حرام، وجاء عهدُ الخلفاء الرَّاشدين رضوان الله عليهم، وكانت أعظم الفتوحات، ولما كان عهد سيّدنا عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ استمرت الفتوحات وتوسَّعت، وفي سنة (٢٧) هجرية غزا سيِّدُنا معاوية بن أبي سفيان قبرص في البحر، وخرجت أمُّ حرام ـ مع زوجها عبادة ـ رضي الله عنهما ـ غازية في البحر، وهنا حملتها الذِّكريات إلى أعوام مضت، وتذكَّرت بشارة النَّبي الكريم ﷺ بأنَّها ستغزو في البحر وستكونُ شهيدة.

ولنترك الآنَ حديث البشارة ترويه لنا صاحبة البشارة نفسها أمّ حرام ـ رضي الله عنها ـ، فقد ذكر عُمير بن الأسود العنسي أنَّه أتى سيِّدنَا عبادَة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ وهو بساحلِ حمصَ وهو في بناء له ومعه امرأته أمّ حرام، قال عُمير: فحدثتْنَا أمُّ حرام أنَّها سمعتْ رسول الله ﷺ يقول: «أولُ جيش مِنْ أمتي يغزون البحَر قد أوجبوا» ـ أي وجبت لهم الجنّة ـ قالت أمُّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم»[(١)].

* وتحققت أمنيةُ المجاهدة أمّ حرام بالاستشهاد أثناء غزو البحر، إذا صُرِعَتْ عن دابّتها حينما خرجت مِنَ البحر حيث رمتها بغلة لها فماتت ـ رضي الله عنها ـ.

ولنستمعْ إلى سيِّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ يحدّثنا عن قصّة استشهاد خالته أمّ حرام فيقول: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان، فاتكأ عندها ثم ضحك.

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب الجهاد برقم (٢٩٢٤) باب فيما قيل في قتال الروم، وانظر جامع الأصول (٩/ ١٤٩ و١٥٠)، وانظر صفة الصفوة (٢/ ٧٠) وانظر تاريخ الإسلام (١/ ٣٩٥).

فقالت: لِمَ تضحك يارسول الله؟

فقال: «ناس من أمتي يركبون البحرَ الأخضر[1] في سبيل الله مثَلُهُم مَثَلُ الملوك على الأسرة».

فقالت: يارسول الله، ادعُ الله أَنْ يجعلَني منهم.

فقال: «اللهمّ اجعلها منهم».

ثم عاد فضحك، فقالت له: مثل أو مم ذلك؟.

فقال لها: «مثل ذلك».

فقالت: ادعُ الله أَنْ يجعلني منهم.

قال: «أنتِ من الأولين ولَسْتِ منَ الآخرين».

قال أنس: فتزوّجت عبادة بن الصامت، فركبتِ البحرَ مع بنت قرظة[2]، فلما قفلت ركبت دابّتها، فَوَقَصَت[3] بها فسقطت عنها فماتت[4].

* وهكذا نالت أمّ حرام الجنَّة وحظيت بالشَّهادة كما أخبرها بذلك رسولُ الله ﷺ.

* * *

منْ كَـرَامَـاتِهَـا بَـعْـدَ مَـوتِـهَـا:

* للشُّهداء مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وأمُّ حرام الشَّهيدة قد أكرمها اللهُ بعد موتها، وفي قبرصَ قبرٌ يُدعى بقبر المرأةِ الصَّالحة، ومنَ الطَّريف أنَّ البلاذريّ قد ذكر في كتابه «فتوح البلدان» خبراً مباركاً فقال: لما غُزيت قبرس ـ قبرص ـ الغزوة الأولى ركبت أمّ حرام بنت ملحان مع زوجها

---

(١) هو البحر الأبيض المتوسط.

(٢) هي فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) أي: وثبت ورمتها.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، وانظر البداية والنهاية (٦/ ٢٢٢)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦٣)، وانظر كذلك دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٥٠ و ٤٥١ و ٤٥٢).

عبادة بن الصَّامت، فلمّا انتهوا إلى قبرصَ خرجت منَ المركب، وقُدِّمت إليها دابّة فعثرتْ بها فقتلتها، فقبرُها بقبرصَ يُدعى قبر المرأة الصَّالحة[١].

وذكر أبو الحسن بن الأثير وغيره خبر تلك الغزوة فقالوا: وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدُفنت فيها، وكان أميرُ الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمانَ ومعه أبو ذر وأبو الدَّرداء، وغيرهما من الصَّحابة وذلك سنة سبع وعشرين[٢] التي توافق سنة (٦٤٧) من الميلاد.

* ومن الأخبار المباركةِ ما ذكره هشام بن الغاز إذْ قَال: قبرُ أمِّ حرام بنت ملحان بقبرس وهم يقولون: هذا قبرُ المرأة الصَّالحةِ رحمها الله[٣].

* وقال هشامٌ أيضاً: رأيتُ قبرها ووقفتُ عليه بالسَّاحلِ بقاقيس[٤] سنة إحدى وتسعين. وقال الذَّهبي رحمه الله: وبلغني أنَّ قبرَها تزوره الفِرنج[٥]. وذكر الزَّبيدي ـ رحمه الله ـ في تاج العروس كرامتها ومشاهدتهُ للجزيرة فقال: ولها مقام عظيمٌ بظاهرِ الجزيرة، اجتزتُ بها في البحر عند توجُّهي إلى بيت المقدسِ، وأُخبِرْتُ أنَّ على مقامها أوقافاً هائلة وخدماً وينقلون عنها كرامات.

* وذُكِرَ عن كرامة أمّ حرام أنَّ النَّاسَ يقولونَ: هذا قبرُ المرأةِ الصَّالحة وهم يعظِّمونَه ويستسقون به.

* ومن الخير هنا أن نُوردَ ما علَّقَ به الدّكتور وهبة الزُّحيلي على الاستسقاء بالصَّالحين وزيارتهم فيقول: لا شكَّ بأنَّه ليس تعظيم عبادة وشرك، وإنّما حبٌّ واحترام، وأمَّا الاستسقاء بالصَّالحين أو التّوسل فهو كالاستسقاء بالعبّاس عمِّ النَّبي ﷺ الثَّابت في الآثار، والمرجع في الحقيقة هو الله، والذي

---

(١) فتوح البلدان (١/ ١٨٢)، وانظر كذلك الأعلام للزركلي (٢/ ١٨٢).
(٢) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٨٥)، وانظر الأعلام للزركلي (٢/ ١٨٢).
(٣) انظر الحلية(٢/ ٦٢) وصفة الصفوة (٢/ ٧٠) وورد في معجم البلدان قبرس بالسين.
(٤) انظر صفة الصفوة (٢/ ٧٠) ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٥٢).
(٥) انظر سير أعلام النبلاء(٢/ ٣١٧).

دلَّ عليه القرآن الكريم هو دعاء الله مباشرة دون توسل(١).

* وبعد، فهذه لمحات عبِقة شذيّة من حياة هذه الصَّحابية التي عاشت حميدةً، وماتت شهيدةً، وتحققت بشارةُ النَّبي ﷺ بأنَّها «مَلكٌ على سرير»؛ فقد كانت أول مجاهدةٍ في البحر، وأول مَنْ غزت في البحر الأبيض المتوسط منَ النِّساء ـ رضي الله عنها ـ.

* رحم الله أمَّ حرام بنت ملحان ورضي عنها، ورحم الله أبا نعيم الذي استهلَّ ترجمته لأمِّ حرام بقوله: حميدةُ البرِّ، شهيدةُ البحر، التَّواقة إلى مشاهدة الجِنَان، أمّ حرام بنت ملحان(٢).

* ونحن في وَدَاع سيرتها الطَّيّبة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) عن كتاب عبادة بن الصَّامت للزّحيلي (ص ٢٩).

(٢) الحلية (٢/ ٦١).



(٤)

أم عمارة
نسيبَةُ بنتُ كَعْبٍ
رضي الله عنها

«اللهُمَّ اجْعَلْهُم رفقَائي في الجنَّة» حديث شريف

قال رسول الله ﷺ يوم أحد عن نسيبة: «ما التفتُّ يميناً وَلا شِمَالاً إلاّ وأنا أَرَاهَا تُقَاتِلُ دُوني»

حديث شريف




المُجــدَّةُ المُـجتَهِــدةُ:

* الحديثُ عن هذه الصَّحابية شائقٌ وجميل، آسرٌ للنفس بقدْرِ ما هو مؤثر فيها، فقد أخذتْ من كل فضيلة بطرف.

* إذا تحدثت عن الأمِّ المثالية، وجدت الأمَّ الرؤوم.

* وإن تحدثت عن الزَّوجة الوفيّة، جاءت في أُولى الأسماء.

* وإن تحدثتَ عن السَّبْقِ إلى الإيمان، كانت مِنَ الأوائل.

* وإن طلبتها في الجهاد، ألفيتَها من الأبطال المعدودين الذين ينافحون عن رسول الله ﷺ.

* أمَّا إذا بحثت عن العبادة والنُّسك، ألفيتَها قانتةً عابدة.

* وإذا سألتَ عن الحديث وعن العلم، وجدتها محدِّثةً راويةً متقنة لحديث رسول الله ﷺ.

* فأيّ امرأة هذه التي جَمَعتْ هذه الفضائل كلّها؟! وإن شئتَ فقُلْ: جُمِعتْ فيها هذه المكارم.

* لا شك ـ عزيزي القارىء ـ أنَّه شاقك معرفة هذه الصَّحابية الجليلة. الإمام أبو نُعيم الأصبهاني يصفها في حليته بقوله: أمُّ عمارة المبايعة بالعقبة، المحاربة عن الرِّجال والشّيبة؛ كانت ذات جدٍّ واجتهاد، وصوم ونسك واعتماد.

* والآن، نستضيفُ الإمام شمس الدِّين الذَّهبي ليعرّفنا صحابية اليوم فيقول: أمُّ عمارة نَسِيبةُ بنتُ كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول، الفاضلةُ المجاهدةُ الأنصارية الخزرجيّة النَّجارية المازنية المَدَنية[1].

* إذاً، فهذه الصَّحابية الفاضلةُ من الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٢٧٨).

ولو كان بهم خصاصة، ومن بني النَّجار الكرام أخوال النَّبي الحبيب ﷺ الذين نزل في ديارهم عند الهجرة الشَّريفة.

* رسمت نسيبة[1] بنت كعب ـ في حياتها ـ صفحات من البطولة؛ ظلت الأجيال ترويها جيلاً بعد جيل بإعجاب وتقدير، وظلتْ نسيبةُ تحظى بالمكانة اللائقة بين نساء الإسلام، من يوم أَنْ بايعت العقبة إلى حين وفاتها، إلى أَنْ يرثَ الله الأرض ومن عليها.

* * *

وامْرأَتَـان:

* يذكرُ معظم المؤرخينَ وكتَّاب التَّراجم وأصحاب السِّير والمغازي، أنَّ الأنصار الذين حضروا بيعة العقبة الثَّانية ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وقد تكفَّلَ الإمام محمّد بن إسحاق في السِّيرة النَّبويةِ بسرد أسمائهم وقبائلهم، وتابَعَه على ذلك المؤرخون ومنهم الإمام ابن كثير في البداية والنهاية[2].

* أمَّا المرأتان: فالأولى ضيفة حلقتنا هذه، أمُّ عمارة نسيبةُ بنت كعب المازنية النَّجارية، والأخرى أمُّ منيع أسماء بنت عمرو بن عدي السُّلمية ـ رضي الله عنهما ـ.

في تلك الليلة المباركة بزغ نجمُ أمِّ عمارة، وأشرقت نفسُها بالإسلام من قبل على يدي الصَّحابي الجليل سيّدنا مصعب بن عمير سفير رسول الله ﷺ،

(١) نسيبة: ضَبَطَها بفتح النون وكسر السين كل من الفيروزابادي في القاموس المحيط، والزبيدي شارح القاموس، والأمير ابن ماكولا، وابن الجوزي في صفة الصفوة. بينما ضبطها غيرهم بضم النون بالتصغير وهو المشهور، والعرب تميل إلى التصغير في هذا الشأن. ذكر الزبيدي في التاج فقال: نَسيبة بنت كعب أم عمارة، ونَسيبة بنت سماك بن النعمان بفتح النون.
ونُسيبة بنت نيار، ونُسيبة بنت الحارث أم عطية بضم النون. وهن صحابيات رضوان الله عليهن أجمعين. (عن تاج العروس ٤/ ٢٦٤ طبعة الكويت).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨).

الذي أَثْرى المدينة بأخلاقه العطرة، وأَثَّرَ في نفوس أهلها ببيانه السَّاحر وحُجَّته اللطيفة وأسلوبه الآسر الهادئ، وهو من نجباء مدرسة النُّبوة، ومن تلاميذ النَّبي الكريم ﷺ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

* * *

البيعَـةُ المبارَكَــةُ:

* في تلك الليلة المباركة، كان رسول الله ﷺ قد أخذ العهد على الأنصار بأنْ يبايعوه، وتكلَّم ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أنْ تمنعوني مما تمنعون من نساءكم وأبنائكم»[1].

وأجاب الأنصار ليلتئذ، وأقبلوا على مبايعةِ رسول الله ﷺ، وتمَّتِ البيعةُ، وبايعت أمُّ عمارة رسول الله ﷺ على ما بايع عليه النِّساء[2]، وفتحَ التَّاريخُ صفحة مباركة، سجَّل فيها هذه البيعة، وجاء فيها اسم نسيبة بنت كعب إحدى نساء الأنصار اللائي واكبن مسيرةَ الإسلام في العهد المدني كله، وعن هذه البيعة العظيمة تتحدث أمُّ عمارة فتقول: شهدتُ عَقْدَ النَّبي ﷺ والبيعة له ليلة العقبة، وبايعت تلك الليلة مع القوم[3].

* ولكنْ كيف بايعت أمُّ عمارة رسول الله ﷺ، والرّسول الكريم لا يصافحُ النِّساء؟ أمُّ عمارة نفسُها تحدثنا عن صفة بيعتها فتقول: كانتِ الرِّجالُ تصفِّقُ على يَدي رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعبَّاس ـ عمُّ النَّبي ـ آخذٌ بيد رسول الله ﷺ، فلمّا بقيتُ أنا وأمُّ منيع نادى زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك، فقال: «قد بايعتُهما على ما بايعتكم عليه، إنّي لا أصافح النِّساء»[4].

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ١٧٥).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/ ٢٥٠).

(٣) طبقات ابن سعد(٨/ ٤١٢).

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب البيعة، والإمام أحمد في مسنده، وانظر الإصابة (٤/ ٤٥٧). =

* ولما رجع الأنصار من العقبة إلى المدينة، شاركت أمُّ عمارة في نشر الإسلام بين نساء الأنصار، وعزّزت إيمان ولديها وأهلها وقومها.

* * *

أسرتُهــا:

* كانت أمُّ عمارة متزوجةً من زيد بن عاصم المازني النَّجاري، فولدت له عبد الله وحبيباً، وصحِبَا النَّبِي الكريم ﷺ، ثم خلف عليها غزية بن عمرو المازني النَّجاري، فولدت له خولة، وكان لأولادها وأسرتها شأن كبير في الإسلام.

وفي تاريخ التَّضحية والثَّبات أبدَعَ حبيبٌ ابنها إبداعاً مباركاً بقي أريجه المعطار يرطِّبُ الأسماعَ إلى يومنا هذا.

* * *

مشَاهِدُهَـا:

* ذكر المؤرخون وكتَّاب التَّراجم والسِّير أَنَّ الصَّحابية الجليلة أمَّ عمارة شهدت عدة مشاهدَ مع رسول الله ﷺ وهي: بيعة العقبة، وأحد، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضية، والفتح، وحُنين[1]. وكانت ممن شارك في حرب المرتدين في يوم اليمامة، والقضاء على مسيلمة الكذاب وأعوانه.

* في كتابه القيم «سير أعلام النُّبلاء»: ذكر الإمام الذَّهبي جهادَ أمّ عمارة ومشاهدها فقال: شهدتْ أمُّ عمارة ليلة العقبة، وشهدت أحداً والحديبية ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت الأفاعيل.

* وفي هذه المشاهد كانت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ تسجِّلُ المواقفَ

---

(١) انظر في طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢)، وصفة الصفوة (٢/ ٦٣)، والإصابة (٤/ ٤٥٧)، والأعلام للزركلي (٨/ ٣٣٤).

الوضّاءة واحداً بعد الآخر، وهي أولُ مقاتلة في تاريخ الإسلام.

ومن الطَّريف أنَّها بايعتِ النَّبي الكريمِ ﷺ على النُّصرة ووفَّت بهذا في غزوة أحد، فأحسنت وأجادت، بل كان لها من المواقف العظيمة يومذاك ما جعلها تنال البشارة بالجنة مع أسرتها كلها، فإلى تلك المواقف المباركة الوضَّاءة نجد فيها مقام الصَّحابية الكبيرة قربَ رسول الله ﷺ، ذلك المقام الذي سبقت فيه كثيراً من النَّاس.

* * *

مَوَاقِفُهَـــا وبُـطُولاتُهـا يـومَ أُحُــدٍ:

* لأمِّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ بطولاتٌ رائعةٌ، ومواقفُ نادرة في غزوة أحد، وكل موقف منها يفيض بركةً وتضحية وحبّاً ووفاءً لرسول الله ﷺ، وفي الصَّفحات التَّالية نلمس بركة هذه المواقف.

أمُّ عمَـارة قُـرْبَ الـرَّسول ﷺ:

* في غزوة أحد، خرجتِ الأسرةُ المؤمنة: أمُّ عمارة وولداها عبد الله وحبيب وزوجها، واندفع زوجها وأولادها يجاهدون في سبيل الله، بينما ذهبت أم عمارة تسقي العطشى وتضمِّدُ الجرحى، ولكنَّ ظروفَ المعركة جعلتها تقبلُ على محاربة المشركين، وتقف وقفة الأبطال تدافع عن رسول الله ﷺ غير هيّابةٍ ولا وجلة وذلك عندما تفرَّقَ النَّاس؛ من هول ما أصابهم في ذلك اليوم، عندها أخذت سيفاً وترساً ووقفت بجانب رسول الله ﷺ تقيه بنفسها، ولنستمع من أمِّ عمارة تصف لنا ذلك الموقف الرَّهيب وتلك السَّاعة العسرة فتقول:

رأيتُني وانكشفَ النَّاس عن رسول الله ﷺ؛ فما بقي إلا في نُفَير ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذُبُّ عنه ـ ندافع عنه ـ والنَّاس يمرُّون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي، فرأى رجلاً مولياً ومعه ترس فقال: «ألقِ ترسَك إلى مَنْ يقاتل» فألقاه، فأخذته فجعلتُ أُترسُ به عن رسول الله ﷺ،

وإنّما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إنْ شاء الله[1].

* وفي هذا الموقفِ يلاقي أحد فرسان المشركين حَتْفَه على يدي أمِّ عمارة، ولنتابعِ السَّماعَ من أمِّ عمارة لتكمل لنا بقية القصة فتقول:

ويقبِلُ رجلٌ على فرس فيضربني، وترّستُ له فلم يصنعْ شيئاً وولّى، فأضربُ عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النَّبي ﷺ يصيح: «يا بن أمّ عمارة، أمَّك أمَّك» قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شَعوب[2].

* إنَّ الإنسانَ ليدهش ويُسَرُّ في آنٍ واحد لشجاعة أمِّ عمارة التي لا نكاد نجد لها مثيلاً في تاريخ النِّساء، بل إنَّ لهذه الصَّحابية تاريخاً حافلاً بالعطاء مرصَّعاً بالجهاد، يزينُ جِيْدَ الدهر بجماله وصفائه، وفي الموقف التالي نرى مصداق ذلك.

* * *

استَقَـدْتِ يــا أمّ عـمَــارة:

* مرة ثانية نرى أمَّ عمارة حول الرَّسولِ ﷺ وقد رآها عليه الصَّلاة والسَّلام، والدم ينزفُ من كتفها، ولكن هذا لم يجعلها تتوقفُ عن الجهاد، بل ازدادت إصراراً على متابعة القتال حتى حظيت بدعاء الرَّحمةِ من رسول الله ﷺ، يحدثنا عبد الله بن زيد ـ ابنها ـ عن ذلك فيقول:

شهدتُ أُحُداً مع رسول الله ﷺ، فلمَّا تفرّقَ النَّاس عنه، دنوتُ أنا وأمّي نذبُّ عنه فقال: «ابن أمّ عمارة»؟ قلتُ: نعم، قال: «ارمِ». فرميتُ بين يديه رجلاً مِنَ المشركين بحجر وهو على فرسٍ فأصبتُ عينَ الفرس، فاضطرب الفرسُ حتى وقع هو وصاحبه، وجعلتُ أعلوه بالحجارة حتى نضدتُ عليه منها وِقْراً ـ حملاً كبيراً ـ والنَّبي ﷺ ينظرُ يبتسم، ونظر جُرْحَ أُمّي على عاتقها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٩)، والمغازي (١/ ٢٧٠).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤). والشعوب: من أسماء المنية، تعني قتلته.

فقال: «أمّك أمّك، اعصبْ جرحَها، رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خيرٌ من مقام فلان وفلان رحمكم الله أهلَ البيت»[١].

* ثم بعد ذلك دعا النّبي الكريم ﷺ لهذه الأسرة بمرافقته في الجنّة، وما إن سمعت أمّ عمارة وابنها هذا الدعاء المبارك الطّيب حتى انطلق كل واحد منهما يضاربُ ويقاتل، ولقيَ عبد الله به زيد رجلاً من المشركين، فضربه المشرك فجرحه جرحاً بليغاً في يده اليسرى ثم تركه ومضى بعيداً، وجعل الدمُ ينبعث من الجرح بكثرة، فرآه رسول الله ﷺ وقال: «اعصبْ جرحَكَ». ولمحت أمُّ عمارة ابنها والدم يتدفقُ من جرحه، فأقبلتْ وأخرجتْ عصائب قد أعدّتها للجراح، وربطت جرحه، وكان النّبيُّ الكريم ﷺ ينظر إلى هذين البطلَيْن، ثم قالت لابنها: انهض بني فضارب القومَ، فسرَّ الرّسول الكريم ﷺ وجعل يقول: «ومَنْ يطق ما تطيقين يا أمَّ عمارة»؟.

* وظلت أمُّ عمارة - رضي الله عنها - قريبةً من النّبي الكريم ﷺ، والسَّيفُ مُصْلتٌ بيدها تخطف به مَنْ يودُّ الاقترابَ من رسول الله ﷺ بسوء، ولم تمضِ لحظات حتى أقبل المشركُ الذي جَرَحَ ولدها، ورآه النّبيُّ الكريم ﷺ فقال لها: «هذا ضرب ابنك» واعترضته أمّ عمارة وضربته على ساقه فوقع، ثم أجهز عليه النّاس بالسّلاح حتى مات، فقال لها رسول الله ﷺ: «استقدتِ يا أمَّ عمارة».

* وتصفُ أمَّ عمارة سرور النّبي ﷺ لتلك الحادثة فتقول: رأيتُ رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه.

ويقبلُ رسول الله ﷺ على أمِّ عمارة قائلاً: «الحمد لله الذي أظفرك وأقرَّ عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك»[٢].

* وبهذا نالت أمُّ عمارة - رضي الله عنها - الثّناء العَطِرَ من رسول الله ﷺ،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤ و ٤١٥).

(٢) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤) بتصرف. وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٠)، وأعلام النساء (٥/ ١٧٣).

كما نالت شهادة الشَّجاعةِ منَ الدَّرجةِ الأولى أيضاً، روي أنَّ سيِّدَنا عمر بن الخطاب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما التفتُّ يوم أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتلُ دوني»[1].

* وروى عمارة بن عربة ـ ابنها ـ أنَّ أمَّه قَتَلَتْ يوم أحد فارساً من فرسان المشركين[2].

* * *

أُمُّ عمارةَ تَصدُّ هُجوماً:

* لم تتوقفِ الصَّحابيةُ البطلة أمّ عمارة لحظةً واحدة في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، بل جُرِحتْ بضعة عشر جرحاً منها جرحٌ أجوف كبير أصابها به ابن قميئة، ولنتركْ إحدى الصَّحابيات تجري هذا اللقاء الطَّريف مع أمِّ عمارة التي تروي ذكرياتها عن بطولاتها يوم أحد، والرَّاوية هي أمّ سعد بن سعد بن الرَّبيع ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ تقول أمُّ سعد:

دخلتُ على أمِّ عمارة فقلتُ لها: حدثيني خبرَكِ يوم أحد، فقالت نسيبةُ:

خرجتُ في أول النَّهار إلى أحدٍ وأنا أنظرُ ما يصنعُ النَّاس ومعي سِقَاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ والدَّولةُ والرِّيحُ للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ؛ فجعلتُ أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله بالسَّيف، وأرمي بالقوس حتى خَلُصتْ إليّ الجراح.

وتصف راويةُ الخبرِ أمُّ سعد بن سعد جُرْحَ أمّ عمارة فتقول: فرأيتُ على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلتُ: يا أمّ عمارة مَنْ أصابك بهذا؟ وهنا تصفُ أمّ عمارة صدَّها لهجومِ عدو الله عمرو بن قميئة فتقول:

أقبلَ ابن قميئة ـ أقمأه الله ـ وقد ولّى النَّاسُ عن رسول الله ﷺ وهو يصيح:

---

(١) انظر حياة الصحابة (١/ ٥٩٥)، والإصابة (٤/ ٤٥٧)، وطبقات ابن سعد(٤/ ٤١٥).

(٢) الإصابة (٤/ ٤٥٧).

دلوني على محمّد فلا نجوتُ إنْ نجا، فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، وأناس ممَّنْ ثبتَ مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتُه على ذلك ضربات ولكنَّ عدوَّ اللهِ كانت عليه درعان[1].

ومن عظمِ تلك الجراح وتلك الضربة غُشي على أمِّ عمارة، ولما أفاقت لم تسأل عن زوجها أو عن ابنها، وإنّما قالت: أينَ رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فأجابوها بقولهم: إنَّه بخير والحمد لله.

الله أكبر ما أعظم هذه المواقف الفياضة بالحبِّ والفداء للنَّبي الكريم ﷺ!

* وإزاء هذه البطولات المباركة كانت نسيبة تنال الثَّناء تلو الثَّناء مِنْ رسول الله ﷺ، فقد سمعتْ رسول الله ﷺ يمتدحُ عملها ويثني على جهادها يوم أحد حيث قال: «لمقامُ نسيبة بنت كعبٍ اليوم خيرٌ مِنْ مقام فلان وفلان»[2].

* نعم فقد كانت أمُّ عمارةَ ـ رضوان الله عليها ـ تقاتلُ في ذلك اليوم أشدَّ القتال، وكانت قد شدَّتْ ثوبَها على وسطِهَا، وكانت حصيلة غزوة أحد ثلاثة عشر جرحاً، أعظمها ذلك الذي أصابها به ابن قميئة في عاتقها وظلّت تداويه سنة كاملة[3]، غير أنَّ آثار الجرح تشهد لها بالشَّجاعة والإقدام طيلة حياتها المعطاء.

* * *

أمُّ عَمـــارةَ ونِسَـــاءُ قُـرَيْش:

* موقفانِ مختلفانَ يستحقانِ الوقوفَ والتمعُّن، موقف أمّ عمارة ونساء المسلمين اللائي خرجن لغايات نبيلة، ومنهن مَنْ قاتلت حتى جرحت كأمِّ

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٣)، والبداية والنهاية(٤/ ٣٤)، والإصابة (٤/ ٤٥٧)، وعيون الأثر (٢/ ٢١) بتصرف يسير.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨ و ٢٧٩).

(٣) المصدر السابق.

عمارة، وموقفٌ آخر هو موقف نساء قريش اللواتي خرجن بصحبةِ الدُّفوف والحقد يملأُ نفوسهن، والمكاحل والمراود تملأُ جيوبهن، وقد وصفت أمُّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ نساء قريش وصفاً دقيقاً معبراً، ففي لقاءٍ مباركٍ كانت أمُّ عمارة تُسأَلُ فيه عن بطولاتها وعن ذكرياتها يوم أحد، سُئلتْ عن نساء قريش فقيل لها: يا أمّ عمارة هل كنَّ نساء قريش يومئذٍ يقاتلن مع أزواجهن[1]؟ فقالت أمُّ عمارة: أعوذ بالله، لا والله ما رأيتُ امرأةً منهن رمتْ بسهَم ولا حجر، ولكنْ رأيتُ معهن الدِّفافَ والأكْبَار يضربن ويذكِّرنَ القوم قتلى بدر ومعهن مكاحل ومراود، فكُلَّما ولّى رجل أو تكعكع ناولَتْهُ إحداهن مِروداً ومكحلة ويقلن: إنَّما أنت امرأة. ولقد رأيتُهن ولَّينَ منهزماتٍ مشمرات، ولَهَا ـ سها ـ عنهن الرجالُ أصحاب الخيل ونَجَوا على متون الخيل، وجعلن يتبعن الرِّجال على أقدامهن، فجعلن يسقطن في الطريق، ولقد رأيتُ هندَ بنت عتبة وكانتِ امرأة ثقيلة ولها خَلْقٌ، قاعدةً خاشيةً من الخيل ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى حتى كثُرَ القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ[2].

* * *

بَـعْـدَ غَــزوة أُحــد:

* عاد الرَّسولُ الكريم ﷺ إلى المدينة يوم غزوة أحد، وعادت أمُّ عمارة تحمل آلام بضعة عشر جرحاً، ولكنَّ المعركة لا تزال مستمرةً، فقد نادى منادي النَّبي الكريم ﷺ إلى حمراء الأسد قائلاً: إنَّ رسول الله يأمركم بطَلَبِ عدوكم ولا يخرج معنا إلا مَنْ شهدَ القتال بالأمس.

* ليلة واحدة قضاها المجاهدون في دورهم يداوون جراحهم، وفي

---

(١) من النساء اللاتي خرجن مع المشركين يوم أحد هند بنت عتبة، وأميمة بنت سعد، وبرزة بنت مسعود الثقفي، والبغوم بنت المعذل، وسلامة بنت شهيد، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة وغيرهن، وانظر أسماءهن في المغازي (١/ ٢٠٢ و ٢٠٣).

(٢) عن المغازي (١/ ٢٧٢)، وأعلام النساء (٥/ ١٧٣ و ١٧٤) بتصرف يسير جداً.

الصَّباح؛ خرج المسلمون إلى حمراء الأسد، ونهضت الصّحابيةُ المجاهدة أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتؤديَ واجب الجهاد، وشدَّتْ عليها ثيابها، ولكنَّ نزفَ الدمِ عوّقها عن ذلك فما استطاعتِ الخروج.

* ولما رجع النَّبي الكريمُ ﷺ من حمراء الأسد، وما أن وصل إلى بيته حتى أرسلَ إليها عبد الله بن كعب المازني ـ أخاها ـ يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسُرَّ بذلك النَّبي ﷺ[1].

* وقد ظلت أمّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ تعالج جراحتها سنة كاملة حتى التأمت، وظلَّ النَّبي الحبيبُ ﷺ يهتمُّ بأمرها ويسأل عنها وعن أصحابه كلِّهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ، كما ظلَّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ يذكر فضلَها، ويثني على بلائها وشجاعتها.

* وهكذا رأينا مواقفَ أمّ عمارة الوضّاءة في أُحُد، تلك الغزوة التي أوجبت فيها، كما أوجب فيها كثير من صحابة رسول الله ﷺ فنالوا الجنّة ببركة دعائه ﷺ، وبصدق قلوبهم ونقاء نفوسهم، والله ذو فضلٍ على المؤمنين.

* والآن، ماذا تبقّى في جعبة أم عمارة عن الجهاد؟ لا شك أنَّ رحلةَ جهادها لم تتوقفْ في أُحُد، بل استمرت إلى نهاية حياتها، وفي الصَّفحات التَّالية نتابع هذه الرحلة الشَّائقة في مقام الجهاد، ونرى بطولات أخرى للصَّحابية الجليلة أم عمارة ـ رضي الله عنها ـ.

رحْـلَـةُ الجهَـاد:

* وتمضي الأيام، ويخرجُ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لغزوِ بني قريظة الذين نقضوا العَهْدَ مع الله ورسوله وترافقه الصَّحابية الجليلةُ أمّ عمارة في هذه الغزوة المباركة، وأعطى رسول الله ﷺ النِّساء اللائي حضرن القتال من الغنيمة، ولم يُسْهِم لهن.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد(٨/ ٤١٣).

أمُّ عمَارةَ وبيعَةُ الرِّضْوَان:

* لأمِّ عمارةَ ـ رضوان الله عليها ـ ذكرياتٌ مباركةٌ في بيعة الرِّضوان ـ وما أدراكَ ما بيعة الرِّضوان ـ فقد بايعتْ ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ بايع، وها هي تروي خبر تلك البيعة عند الحديبية، عندما بعث رسول الله ﷺ سيّدنا عثمانَ بن عفان إلى مكةَ، وتأخَّرَ خبره، تقول أمُّ عمارة:

مَرَّ بنا رسول الله ﷺ يوماً في منزلنا، فإذا هو قد بلَغَه أَنَّ عثمانَ بنَ عفانَ ـ رضي الله عنه ـ قد قُتِلَ، فجلس في رحالنا ثمَّ قال: «إنَّ الله أمرني بالبيعة» فأقبلَ النَّاس يبايعونه في رحالنا، . . . . فكأنِّي أنظرُ إلى المسلمين قد تلبّسوا السِّلاح وهو معنا قليل، إنَّما خرجنا عُمّاراً، فأنا أنظرُ إلى غزية بن عمرو ـ زوجها ـ وقد توشح بالسَّيف، فقمتُ إلى عمود كنا نستظلُّ به، فأخذتُه في يدي ومعي سكين قد شددته في وسطي، فقلتُ: إنْ دنا مني أحد رجوتُ قَتْله، فكان رسول الله ﷺ يومئذ يبايعُ النَّاس وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ آخذ بيده، فبايعهم على ألاّ يفرّوا[1].

* ونالت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ رضاءَ الله مع المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشَّجرة ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

* وفي الحديبية نالت أمّ عمارة مكرمةً أخرى، فقد حَلَقَ رسولُ الله ﷺ رأسه، وتسابق النَّاس للتَّبركِ بأَخْذِ شعره الشَّريف، وتحدثنا أمُّ عمارة عن ذلك فتقول: وجعل النَّاس يأخذونَ الشَّعر من فوق الشَّجرة فيتحاصون فيه ـ يقتسمونه ـ وجعلت أزاحم حتى أخذتُ طاقاتٍ مِنْ شعر[2].

* وذُكر أنَّ أمَّ عمارة ظلت تحتفظ بشعْر النَّبيِّ ﷺ، وكانت تضعه في الماء ثم تسقيه للمريضِ تبرُّكاً بآثار رسول الله ﷺ.

* * *

(١) المغازي (٢/ ٥٢٢).
(٢) المغازي (٢/ ٦١٥).

فـي غَــزْوة خَـيْـبَـرَ:

* خرج النَّبي الكريمُ ﷺ إلى خيبَر، وخرج معه من المدينة عشرون امرأة، منهم أمُّ المؤمنين أمّ سلمة، وأمُّ عمارة بطلة الجهاد، وعدد آخر منْ نساءِ المهاجرين والأنصار، وفُتحت خيبر، وقد وصَفت أمُّ عمارة المغانم التي غنمها المسلمون في أَحَدِ حصون خيبر، وقد أعطى رسول الله ﷺ النِّساء اللائي كُن معه بعض الغنائم، وأخذت أمُّ عمارة نصيبها من مغانم خيبر خرزاً وبعضَ الملابس ودينارين، ذَكر أخوها عبد الله بن كعب هذا فقال:

رأيتُ في رقبة أمِّ عمارة خرزاً حمراً فسألتُها عن الخرز فقالت: أصابَ المسلمون خرزاً في حصن الصَّعب بن معاذ ـ أحد حصون خيبر ـ دُفِنَ في الأرض، فأُتي به إلى رسول الله ﷺ، فأمرَ بمَنْ معه مِنَ النِّساء فأُحْصِين، فكنا عشرينَ امرأة، فقسم ذلك الخرز بيننا، هذا وأرضخ لنا منَ الفيء قطيفة وبرداً يمانياً ودينارين، وكذلك أعطى صواحبي[١].

أمُّ عمارةَ في عُمرة القَـضيّـــة:

* عندما أزمعَ رسولُ الله ﷺ على عمرة القضاء خرجت معه أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتنالَ ثواب الله سبحانه ومرضاة رسوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام، وتروي أمُّ عمارة بنفسها عن أدائها هذه العمرة فتقول:

شهدتُ عمرةَ القضية مع رسول الله ﷺ، وكنتُ قد شهدتُ الحديبية، فكأنّي أنظر إلى النَّبي ﷺ حين انتهى إلى البيت، وهو على راحلته، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته، وقد صفَّ له المسلمون حين دنا من الركن حتى انتهى إليه[٢]. . . وتروي أمُّ عمارة أنَّه لم يتخلفْ أحدٌ من أهل الحديبية عن عمرة القضية إلا مَنْ ماتَ أو قُتِلَ.

*وهكذا فقد جَمعتْ أمُّ عمارة إلى مكارمها مكرمةً أخرى تفيض بالخير

---

(١) المغازي (٢/ ٦٨٨).

(٢) المغازي (٢/ ٧٣٥).

والبركات، كما تفيض بالعلم ورواية الحديث الشَّريف.

منْ بُطولاتِهَا يَومَ حُنَين:

* كانت لأمِّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ بطولاتٌ وضَّاءةٌ يوم حُنين لا تقلُّ عن بطولاتها في يوم أحد، ومن الطَّريف أنَّ أمَّ عمارةَ أبدعت في الغزوتَيْنِ، وقتلتْ رجلاً مِنَ المشركين بسيفها، وشاركها في هذه المعركة ولداها عبد الله وحبيب ـ رضي الله عنهما ـ.

* وفي حُنين يتكرّرُ الموقف نفسه الذي حدث في أحد، فينهزمُ بعض المسلمين لهولِ المفاجأة، وهنا تبرزُ البطلةُ أمّ عمارة لتؤدي واجبها وتصْدُق ما عاهدتِ اللهَ عليه، وها هي تروي جانباً من تلك الغزوة وتتحدث عن دورها فتقول:

لما كان يومئذٍ والنَّاس منهزمون في كل وجه، وأنا وأربع نسوة، في يدي سيف لي صارم، وأمّ سليم[1] معها خنجر قد حزمته على وسطها، وأمّ سليط وأمّ الحارث، وأصيحُ بالأنصار: أي عادة هذه! ما لكم وللفرار؟ وأنظرُ إلى رجل من هوازن على جمل أورق، معه لواء، يضع جمله في المسلمين، فأعترِضُ له فأضربُ عرقوب الجمل، وكان جملاً مشرفاً ـ عالياً ـ فوقع الجملُ، ووقع الرَّجل وأشدُّ على الرَّجل، فلم أزل أضربه حتى أثبته ـ تركته جريحاً لا يقدرُ على القيام ـ وأخذتُ سيفاً له وتركت الجمل يخرخر يتصفق ـ ينقلب ـ ظهراً لبطن، ورسول الله ﷺ قائمٌ مُصْلِتٌ السَّيفَ بيده، قد طرح غمده ينادي: «يا أصحاب سُورة البقرة»، وكرَّ المسلمون فجعلوا يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بني عُبيد الله، يا خيل الله! وكان رسول الله ﷺ قد سمّى خيله خيل الله، وجعل شعار المهاجرين بني عبد الرحمن، وجعل شعار الأوس بني عبيد الله.

فَكَرَّتِ الأنصارُ، ووقفت هوازن مقدار حَلْب ناقة، ثم كانت الهزيمةُ، فوالله ما رأيتُ هزيمةً كانت مثلها ذهبوا في كلِّ وجه، ورجع ابناي إليّ ـ حبيب

---

(١) اقرأ سيرتها وبطولاتها في هذا الكتاب.

وعبدُ الله ابنا زيد ـ بأسارى مكتَّفين فأقومُ إليهم من الغيظ، فأضربُ عنقَ واحدٍ منهم، وجعل النَّاس يأتون بالأسارى، فرأيت في بني مازنَ بن النجار ثلاثين أسيراً، وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كرّوا بعد وتراجعوا، فأسهم لهمُ النَّبي ﷺ جميعاً[1].

* وفي هذه الغزوة تختم أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ رحلة جهادها مع رسول الله ﷺ، ولكنَّ حبَّ الجهاد ظل يسري في عروقها، وسنرى جانباً منه يوم اليمامة إنْ شاء الله.

الصَّابِرَة أمُّ الشَّهِيْدِ:

* هذه الصَّحابيةُ الجليلة مَضْرب المثل في كلِّ مكرمة، فكما احتلت مكان الصَّدارة في الشَّجاعة والفداء، احتلت أيضاً مكاناً علياً في مقام الصَّبر، وذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، حيث قُتِلَ حبيبٌ ابنها فاحتسبته صابرة عند الله سبحانه.

* ولاستشهاد ابنها حبيب بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قصة شائقة تنبىء عن موقف مبارك لا يقلُّ روعةً عن مواقف أمِّه المجاهدة أمِّ عمارة ـ رضي الله عنه ـ، بل لا يقلُّ روعةً وثباتاً عن موقف سيِّدنا بلال بن رباح[2] ـ رضوان الله عليه ـ عندما صَبرَ وصَمَدَ في سبيل الله، فكلا الموقفين يشيرُ إلى مكانة هَذيْنِ الصَّحابيين الجليليْنِ، ويدلُّ على مكانةِ ومنزلة الصَّابرة المؤمنة أمِّ شهيد الحقِّ نسيبة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وقصة استشهاد حبيب بن زيد ذكرها الرُّواة وكتَّاب التَّراجم والسِّير، وأثنَوْا على حبيبٍ وأمِّه فقالوا: إنَّ مسيلمةَ الكذّاب وَفَدَ مع بني حنيفة على رسول الله ﷺ وخلّفُوه في رحالهم، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا، ولما رجعوا إلى منازلهم بنَجْدٍ ارتدَّ مسيلمةُ وزعم أنَّه نبيٌّ مرسلٌ إلى بني حنيفة،

---

(١) عن المغازي (٣/ ٩٠٢ و ٩٠٣) بتصرف يسير.

(٢) اقرأ سيرة الصحابي الجليل بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ في كتابنا رجال مبشرون بالجنة جزء (١).

وتبعه بعض قومه بدوافعَ مضطربة أهمُّها العصبية، واستشرى خطر مسيلمة، وعاث في الأرض فساداً.

وهنا برز الشَّهيدُ السَّعيدُ الصَّامدُ ابنِ أمِّ عمارة حبيب بن زيد، أحد نجباء مدرسة النُّبوة، الذي رضع الإيمان، وفُطِمَ على التَّقوى، وشبَّ على الجهاد، وعاش في حجر أمِّه يتعلَّمُ الخير، وشهد أحداً وما بعدها، فاختاره رسول الله ﷺ؛ ليؤدي رسالة إلى مسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه وغيِّه، ولم يَرْعَ مسيلمة حرمة الرُّسل بل قبض عليه وأوثقه، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهدُ أنَّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهدُ أنِّي رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمعُ، فَعَلَ ذلك مراراً فقطَّعه مسيلمة عضواً عضواً ومات شهيداً[1]، وصَعِدَتْ روحه إلى بارئها راضيةً مرضيةً.

وقد رثاه مالك بن عمرو الثَّقفي[2] بأبياتٍ رائعةٍ منها:

مضى صاحبي قبلي وخُلِّفتُ بعده
فكيف بأعضائي البقيةِ أصنَعُ

وقال له الكذَّابُ تشهد أنَّني
رسولٌ فأومأ أنَّني لستُ أسمعُ

فقال أتشهدُ أنَّها لمحمدٍ
فنادى بدعوى الحقِّ لا يتتعتع[3]

فضرَّبَ أمَّ الرَّأس فيه بسيفه
غويٌّ لحاه اللهُ بالفَتْكِ مُولَعُ[4]

* وانتشر خبر استشهاد حبيب ـ رضي الله عنه ـ، ولما بلغ أمَّ عمارة قَتْلُ ابنها عاهدتِ الله أَنْ تموتَ دون مسيلمة أو تُقتلَ، ورضيتْ بقضاء الله،

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٣٢٧)، وأسد الغابة ترجمة حبيب، والاستبصار (ص ٨١ و٨٢)، والحلية (٢/ ٦٤).
(٢) انظر ترجمة مالك بن عمرو في الاستيعاب (٣/ ٣٥٠) وفي الإصابة (٣/ ٣٢٩).
(٣) لا يتتعتع: العي بالكلام.
(٤) انظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص٣٠١ و ٣٠٢).

وصبرت صبراً جميلاً، فقد نذرت نفسها وأولادها وما تملكُ لله سبحانه وتعالى، لتكون في جنَّات وعيون، ويكفيها الآن أنَّ النَّبي الكريم ﷺ قد دعا لها ولآل بيتها بالبركة والخيرات، ومات عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهو راضٍ عنها وعن أولادها.

بطَـلَـةُ اليَمَـامَـةِ:

* هو ذا جيشُ المسلمين يتَّجهُ ـ بأمرِ الصِّديق أبي بكر ـ لقتال مسيلمَة الكذاب، وجاءت الصَّحابيةُ المجاهدة أمّ عمارة، إلى سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وطلبتْ أَنْ يأذنَ لها بالخروج إلى اليمامة، فقال رضي الله عنه وأرضاه: قد عرفنا جزاءك في الحرب فاخرجي على اسمِ الله، ثم أوصى سيِّدَنا خالدَ بنَ الوليد قائد الجيش بأمِّ عمارة ـ وكان مستوصياً بها ـ.

وانطلقتْ أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتتحفَنا بمواقفَ مضيئةٍ أخرى، وأسرعت لتفي بنذرها لا لتثأر لابنها حبيب فحسب، فحبيبٌ قد لقي ربَّه، وفاز بمرضاته، بل لتشارك في القضاء على جرثومة الكفر والرِّدة التي انبعثت في شخص مسيلمة الكذاب ومن تبعه مِنْ قومه.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ عمرها آنذاك قد زاد عن السِّتين واشتعل رأسُها شيباً، لكنَّ قلبها اشتعل حماسةً وامتلأ إيماناً، ولم يوهن العظمُ منها أو تضعف عزيمتها، وفي اليمامة جاهدت أروع جهاد، وجُرحت أحد عشر جرحاً وقُطعت يدها، ولكنها لم تكترثْ بما أصابها، بل كانت تريد أَنْ تلقى عدو الله مسيلمة، وبصرتْ بابنها عبد الله ومعه سيوف المسلمين تنهل من دماء مسيلمة، عندها سرى شعور بالسُّرور إلى نفسها، وأحست بالسعادة لقطع دابر الردة إلى غير رجعة، وقد رُوي عنها أنَّها قالت في هذا: قُطِعتْ يدي يومئذٍ فما ألويتُ عليها، ثم أتيتُ ابني فوجدته قد قَتَلَ مسيلمة وهو يمسح سيفه من دمه[1]. . . ثم سَجَدَتْ شكراً للهِ سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (ص٨٢)، وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٥٠٩)، واقرأ مقتل مسيلمة الكذاب في البداية والنهاية (٦/ ٣٢٣) وما بعدها.

* وعادتِ المجاهدةُ المؤمنةُ أمّ عمارة إلى منزلها بعد انتهاء هذه الحرب، وجاءها سيّدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ينفِّذُ وصيةَ سيّدنا أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ، وطلبَ مِنَ العرب مداواتها بالزيت المغلي، فكان أشدّ عليها من القطع، ولكنَّها شعرت براحةٍ عظيمة تغمر نفسها، لقد سبقها عضو منها إلى الجنَّة، يدُها التي طالما دافعتْ بها عن رسول الله ﷺ. وكان سيّدُنا خالد كثير التَّعاهد والبرّ بها، حَسَنُ الصُّحبة لها، يعرف حقَّها ويقدِّرُ مكانتها ويحفظ فيها وصيّة النَّبي ﷺ ووصية الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ.

معَ الصِّـديقِ والفَـارُوقِ ـ رضـي الله عنهما ـ:

* كانتْ أمُّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ تحظى بالمكانة اللائقة في ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين، فقد كان سيِّدُنا أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ يسأل عنها دائماً ويتفقَّدُ أحوالها، روى محمّد بن يحيى بن حبان هذا فقال:

جُرحتْ أمُّ عمارة بأحد اثني عشر جرحاً، وقُطعت يدُها يوم اليمامة، وجُرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحاً، فقدمتِ المدينةَ وبها الجراحة، فلقد رُئي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو خليفة يأتيها يسألُ عنها ـ رضي الله عنهما ـ[1].

* وفي عهد سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ ظلتِ الصّحابيةُ المجاهدة تحظى بالمكانة نفسها، فعن موسى بن حمزة بن سعيد عن أبيه قال:

أُتيَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بمروط، فكان فيها مِرْطٌ جيد واسع، فقال بعضهم: إنَّ هذا المِرْطَ لثمن كذا وكذا فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أَبْعثُ به إلى مَنْ هو أحقُّ به منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتلُ دوني»[2].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١).
(٢) انظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢٦).

* وبقيتْ أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ تحظى بالاحترام والتقدير مِنْ جميع الصَّحابة إلى آخر لحظة من حياتها في المدينة المنورة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

أمُّ عَمَارَة والقُرآن الكريم:

* في الصَّفحات السَّابقةِ، عشنا سعداءَ مع جهاد أمِّ عمارة في أُحُد وفي اليمامة، وشهدنا معها بيعة الرضوان، والمواقف الأخرى المشرقة، والآن نعيش لحظات في ظلال الذِّكر الحكيم مع الصَّحابية المؤمنة أمِّ عمارة.

* فقد ذُكر أنَّ أمَّ عمارةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت للنَّبي الكريم ﷺ: يارسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النِّساء يُذكرن بشيء[1]. فنزلتْ هذه الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أمُّ عمارةَ والحَديثُ النَّبويُّ:

* بالإضافةِ إلى حبِّها للقرآنِ الكريم كانت أمُّ عمارة راويةً للحديث النَّبوي الشَّريف، فقد ذكرَ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ عمارة قد روي لها أحاديث[2].

روى عن أمِّ عمارة ابن ابنها عبّاد بن تميم بن زيد، وابن أخيها الحارث بن

---

(١) انظر كتاب: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين للشيخ عبد الفتاح القاضي (ص١٨٠)، والاستبصار (ص٨٣)، والاستيعاب (٤/ ٤٥٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨)، وانظر في هذا أيضاً تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٧٤)، والإصابة (٤/ ٤٠٤). ذكر محمد بن علان الصديقي الشافعي في كتابه النفيس المبارك «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» أن أم عمارة روى لها أصحاب السنن ثلاثة أحاديث وذكر حديث الصيام. انظر دليل الفالحين(٧/ ٧٤).

عبد الله بن كعب، وعكرمة مولى ابن عباس، وأمّ سعد بنت سعد بن الرَّبيع، كما روى لها الإمام التّرمذي والنّسائي وابن ماجه في سننهم.

* ومن مرويات الصَّحابية التَّقية المؤمنة أمّ عمارة أنَّ النَّبي ﷺ دخل عليها فقدمتْ إليه طعاماً فقال: «كلي» فقالت: إنّي صائمةٌ، فقال: «إنَّ الصَّائمَ إذا أُكِلَ عنده صلَّتْ عليه الملائكة»[1].

* وأخرج ابن منده عن أمِّ عمارة بنت كعب قالت: أنا أنظرُ إلى رسول الله ﷺ وهو ينحر بدنة قياماً بالحربة[2].

بشَارَتها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

* تحتلُّ أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ مكانةً عاليةً بين النِّساء الصَّحابيات، فقد قدَّمتْ للإسلام كل ما تستطيع لتكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى.

وفضلها في مجال العبادة والصَّلاح يفوح بالطِّيب، وقصص جهادها وثباتها إمتاعٌ للأسماع، وظلت تجودُ بالعطاء المثمر في جميع المجالات إلى أَنْ لقيت ربَّها راضية مرضية ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ[3].

* أمَّا عن بشارتها العظمى، فقد نالت ذلك في يوم أحد مع أهل بيتها، حيث قال لهم النَّبيُّ الكريم ﷺ وهم حوله عند اشتداد المعركة: «رحمكم الله أهلَ البيت» فقالت له أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ: ادعُ الله أَنْ نرافقَك في

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وانظر طبقات ابن سعد(٨/ ٤١٦)، والاستيعاب (٤١٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣١١).

(٢) المغازي (٢/ ٦١٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٥٤٢).

(٣) ذكر الزركلي في الأعلام (٨/ ٣٣٤) أنها توفيت سنة ١٣ هجرية.

الجنَّةِ، فقال ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنةِ» فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدُّنيا[1].

* وقد حظيت نسيبة مِنْ قبل أحد ببشارتها بالجنَّة ـ عند العقبة ـ فهي عقبية، كما حظيت بعد أحد ببشارة عظمى وشهادة إلهية موقّعة من ربِّ العالمين بالرِّضوان وذلك في بيعة الرضوان، وفي حُنين كانت مِنَ المئة الصَّابرة الذين تكفَّل الله بأرزاقهم وأرزاق عيالهم في الجنَّة.

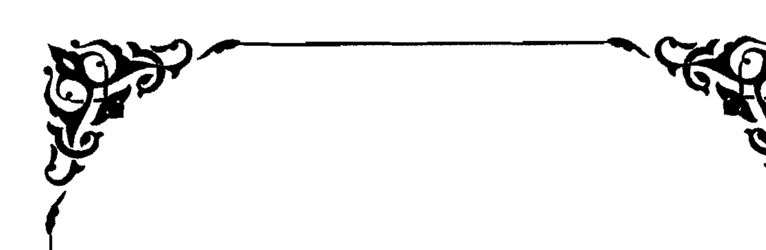
* والآن، فهذه رحلة شائقة قضيناها في رحاب الصَّحابية أمِّ عمارة الأنصارية الكريمة المعطاء، هذه الصَّحابية كانت مِنَ الأنصار الذين قال فيهم كعب بن زهير يذكر فضلَهم وأعمالهم الطَّيبة مع النَّبي الكريم ﷺ:

ورثــوا المكــارِم كــابــراً عــن كــابــر
إنَّ الخيـــار هـــم بنـــو الأخيـــار

* وبعد، رحمَ الله أمَّ عمارة نسيبة بنت كعب، ونضَّر الله قبرها، ورضي عنها وأرضاها، ومع وداع سيرتها العطرة المباركة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر المغازي (١/ ٢٧٣)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٠٩).



(٥)

أمُّ رُومَانَ بنْتُ عَامر
رضي الله عنها

«مَنْ سرَّهُ أَنْ ينظرَ إلى امرأةٍ منِ الحُور العِيْن فلينظر إلى أمِّ رُومَان» حديث شريف

«اللهمَّ إنَّه لم يخْفَ عليكَ مَا لقِيتْ أمّ رُومان فيكَ وفي رسولِك» حديث شريف

أمُّ الفَضَائل:

* نحن الآن في رحاب صحابية جليلة، حظيت بمكانة عاليةٍ في نفْسِ رسول الله ﷺ، وكان لها منزلة كبيرة بين نساء الإسلام اللاتي أثْرَيْنَ التَّاريخ بمواقفهنَّ العطرة التي يفوحُ شذاها على مرِّ الأيام.

* اجتمعت في هذه الصَّحابية خصالٌ مباركة جعلتْها من سادة نساء الدُّنيا، بل خصلة واحدة جعلتها من علية النِّساء.

* فصهرُها أفضل خلق الله على الإطلاق، نبينا محمّد ﷺ، فهل بعد هذا مِنْ فضل؟.

* وزوجها سيِّدُنا أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

* وابنتها زوجة أشرف الخلقِ في الدُّنيا والآخرة، حبيبة رسول الله ﷺ، الصِّديقة بنت الصِّديق الأكبر، حاملة شهادة الطَّهارة مِنَ الله، أمّ المؤمنين عائشة، أَفْقَه وأَعْلَم نساء الأمَّةِ على الإطلاق، رضي الله عنها وأرضاها.

* أمّا ابنها فهو أحد فرسان مدرسة النُّبوة، وأحد الصَّحابة الكرام الذين كُتبتْ لهم السَّعادة بصحبة المصطفى ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أحد الرُّماة الشُّجعان.

* أضف إلى ذلك كله، أنَّها افتتحت أول صفحات حياتها عند أبي بكر الصديق بالمسارعة إلى الإسلام، والإيمان برسالة النّبي الكريم محمَّد ﷺ.

* أعتقد أنَّك أيّها القارىء الكريم في شوق لمعرفة بطاقة هذه الصَّحابية الجليلة. عَدَدٌ مِنَ الفُضلاء يتسابقون لتقديم هذه الصَّحابية المعطاء؛ فهي أمُّ رومانَ بنتُ عامر بن عُويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة الكِنانية[1]، قال ابنُ عبد البر في الاستيعاب: يُقال: أمُّ رومان بفتح الرَّاء وضمها، وذكر ابن

(١) انظر مثلاً سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٤٢)، وأنساب الأشراف (١/ ٤٠٩).

إسحاق ـ رحمه الله ـ أنَّ اسمها زينب، وذكر آخرون أنَّ اسمها دعد[١]، ولكنَّ الذي اشتهرت به كنيتها أمّ رومان.

حيَاتُها فـي الجَـاهِليّـةِ:

* في منطقة السَّراة[٢] من جزيرة العرب، نشأت أمُّ رومان بنت عامر، وتزوجتْ رجلاً يُدعى عبد الله بن الحارث بن سخبرة الأزدي[٣]، فولدت له الطّفيل بن عبد الله، وكان زوجها عبد الله بن الحارث يرغبُ في الإقامة بأمّ القُرى مكة، فقدم من السَّراةِ ومعه أمّ رومانَ وولدهما الطفيل، وعلى ما جرت عليه عادات العرب عَصْر ذاك في الحلف، رأى أَنَّ أبا بكر خير حليف فحالفه، واستقرَّ بأسرته في مكةَ، ثم لم يلبثْ أَنْ توفي هناك، وبقيتْ زوجه وطفلها دون معيل لهما. ولكنَّ أمَّ رومانَ لم تبقَ وحيدةً، فتزوّجها أبو بكر وأكرمَ مثواها مع ابنها الطفيل، وأصبحت تعيش في كنف أبي بكر في بيته، وولدت له عبد الرحمن وعائشة زوج النّبي ﷺ.

* ومن المفيد ذكره هنا أنَّ أبا بكر قد تزوَّج في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزّى القرشية العامرية فولدت له عبد الله وأسماء.

* وتزوّج أبو بكر في الإسلام أسماء بنت عُميس ـ رضي الله عنها ـ فولدت له محمداً، وتزوّج حبيبة بنت خارجة، فولدت له بعد وفاته بنتاً اسمها أم كلثوم، وقد توفي عن واحدة هي حبيبة بنت خارجة.

أمُّ رومـانَ مِنَ السَّـابقــاتِ:

* قالتِ الصَّديقةُ بنت الصِّديق حبيبةُ حبيبِ الله المبرأة من السَّماء[٤]: «لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدِّين»[٥].

---

(١) انظر الإصابة (٤/ ٤٣٣).
(٢) انظر مادة «سراة» في معجم البلدان (٣/ ٢٠٤ و ٢٠٥).
(٣) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٢٠).
(٤) كان الإمام مسروق بن الأجدع الكوفي ـ رحمه الله ـ إذا حدث عن السيدة عائشة وصفها بتلك الصفة الجميلة المباركة.
(٥) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٨٣).

* إذن فإسلام الصَّحابية الجليلة أمّ رومان كان مبكراً، فما إنْ بُعثَ رسولُ الله ﷺ حتى كان أبو بكر أول مَنْ آمن وصدَّق دعوته مِنَ الرِّجال، وانطلق يفضي إلى زوجه أمِّ رومانَ بخبر الإسلام، وسرعان ما استجابت ووجدت دعوة الإسلام إلى قلبها النَّقي سبيلاً، فآمنت وصدَّقت، وعكفت على عبادة الله سبحانه، فكانت من رعيل المؤمنات الأُوَل اللائي حظين بشرف الصُّحبة النَّبوية، وفُزْنَ بالسَّبق والإيمان، وذكر ابن سعد هذا فقال: أسلمت أمُّ رومانَ بمكة قديماً وبايعت وهاجرت[1].

* وطفقت أمُّ رومانَ تتلقى تعاليم الإسلام غضة، وترى عظمة الإسلام مِنْ رسول الله ﷺ، فقد كان رسول الله يتردد على صَديقه وصدِّيقه أبي بكر، فكانت أمُّ رومان تشعر بالسُّرور لهذه الزِّيارة المباركة، وتبذل ما بوسعها لإكرامه، وقد حبا الله هذه الصَّحابية نفساً صافيةً، وقلباً حانياً امتلأ إيماناً وتسليماً، كما رزقها الله همةً عاليةً وصبراً عجيباً على تحمُّلِ المصاعب.

* وكانت أمُّ رومان تتألم كثيراً لما يحلُّ بالمسلمين المؤمنين من العذاب من الأيدي الآثمة المشركة، وكانت ترى الرَّسولَ الكريم ﷺ يُعلِّم أصحابه دروساً في الصَّبر، وضربت أروع الأمثلة في الوفاء للإسلام والمسلمين، وكانت تُسرُّ من زوجها أبي بكر وهو ينقذ المستضعفين ويعتقهم مِنْ خالص ماله، فتشدُّ من أزره وتشاركه عمله الطَّيِّب المبارك ولو بالكلمة الطّيبة.

المـؤمنَـةُ التَّـقيـة والأُمّ المثـاليـة:

* كانت أمُّ رومانَ بالإضافة إلى سابقتها ووفائها مثال الأمِّ الحانية الرَّؤوم، فقد راحت تربّي ولديها عبد الرحمن وعائشة على التَّقوى، وحبِّ الله ورسوله، وتحسن رعايتهما أحسنَ رعاية، وكأن إحساسَها ونفسَها الصافية المشرقة يشيران إلى أَنَّ ابنتها عائشةَ ستكون ذات شأن في الإسلام.

---

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ٢٧٦).

* وكان النَّبي الكريم ﷺ يختلف إلى بيت أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في النَّهار، وبكرةً وعشياً، ويوصي أمَّ رومان بعائشَة ويقول: «يا أمّ رومانَ استوصي بعائشة خيراً واحفظيني فيها»[1]. فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ولا يشعرون إلا بأمرِ الله فيها.

الحَمَاةُ الكَريمَةُ:

* توفيت أمُّ المؤمنين ـ خديجة بنت خُويلد ـ رضي الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنين، فلبث رسول الله ﷺ سنتين ثمَّ عقد على عائشة بوحي من الله سبحانه وتعالى، وقد أَخبر النَّبي الكريم عن هذا حينما قال لعائشة ـ رضوان الله عليها ـ: «أُريتُكِ في المنام ثلاث ليالٍ جاءني بكِ الملَكُ في سَرقة مِنْ حرير فيقول: هذه امرأتُك، فأكشفُ عن وجهك فإذا أنتِ هي فأقول: إنْ يكُ هذا من عند الله يُمْضهِ»[2].

* وتأتي خولةُ بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ وتعرض عليه الزَّواج من عائشةَ بنت الصِّديق، ومن سودةَ بنت زمعة المؤمنة المسلمة، فوافق عليه الصَّلاة والسَّلام، وهنا برزت أمُّ رومان لتحمل أعظم شرف تحظى به امرأة ألا وهو مصاهرة رسول الله ﷺ، وأخبرت زوجَها أبا بكر برغبة النَّبي الكريم ﷺ، وبما أدخل الله عليهم بهذا النَّسب مِنَ الخير والبركة، وتمَّ أمرُ الله، وأضحت عائشة واحدة من أمّهات المؤمنين، بينما سعدت أمُّ رومان بهذا الحدث المبارك وهذا الشَّرف الذي لا يدانيه شرف.

أمُّ رُومانَ وأَحْداثُ الهِجْرة:

* خرج أبو بكر الصِّديق مع رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وترك أسرته في مكة لتلحق به، وكانت أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ تتحمّل شدَّة العيش؛ بعد هجرة زوجها الذي احتمل معه ماله كلّه، ولكنَّ هذا كلَّه لم يكن يهمّها، بل كانت ترجو أنْ يسلَم رسولُ الله ﷺ من أيدي المشركين وأذاهم،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٨٧).
(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي، وانظر أيضاً البداية والنهاية(٣/ ١٣٠).

وصبرت على خوف إلى أَنْ جاء مَنْ يُخبر بأنَّ رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة آمناً مطمئناً، ومن ثم أرسل النَّبيُّ الكريم مَنْ يأتي بأهله وبناته، ويأتي بأهل أبي بكر وأفراد أسرته أيضاً.

* وجاء الركبُ المهاجر، وفي الطَّريق حدثت كرامة عظيمة لأمِّ رومان ـ رضي الله عنها ـ، فقد تعرضت ابنتها عائشة لخطر كبير أنقذتْها منه عنايةٌ إلهية، حيث شَرَدَ بعائشةَ ـ العروس المهاجرة ـ وأمّها الجمل، فجعلت أمُّ رومانَ تقول: واعروساه وابنتاه.

وتروي أمُّ المؤمنين عائشة هذه الحادثة فتقول عندما شرد الجمل: فسمعتُ قائلاً يقول: أرسلي خطامَه، فأرسلتُ خطامَهُ فوقفَ بإذنِ الله وسلَّمنا الله عزَّ وجَل[1].

* ووصل الرّكب المهاجر إلى المدينة وفي مقدمته أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ، ونزلتْ في البيت الذي أعدَّه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، وبعد أَنْ أعزَّ الله سبحانه النَّبي الكريم في غزوةِ بدر تزوَّج عائشة في شوال من السَّنة الثَّانية للهجرة النَّبوية الشَّريفة، وكانت أمُّ رومان قد هيّأتْ عائشةَ لتكون في بيت النُّبوة، ومن ثم غدا بيتُ عائشة مهبط الوحي جبريل عليه السَّلام، فأكرِمْ بهذه المنزلة!.

أمُّ رومـانَ والمحنـةُ الكُـبْرى:

* كانت أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ تشعر بالسُّرور لما كانت تراه مِنْ إكرام صهرها رسول الله لوحيدتها عائشة، وتتعاظمُ سعادتها لمحبة النَّبي الكريم لعائشة ـ رضي الله عنها ـ، وكانت تزداد صفاءً وعبادةً لله لاقترابها مِنَ البيت النَّبوي، ولمكانتها الرّفيعة عند رسول الله ﷺ الذي كان يجلُّها ويحترمها.

* وتمضي السنون، فإذا بأمِّ رُومانَ أمام محنة رهيبة عكَّرت صفاء حياتها لأيامٍ معدودات، وكانتِ المحنةُ سحابةً داكنةً لقيَتْ خلالها التَّعب وشعرت

---

(١) عن البداية والنهاية (٣/ ٢٢١)، والاستيعاب (٤/ ٤٣٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٧٤).

بثقل الأيام والسَّاعات، فقد رُميتْ ابنتها الصِّديقة بنت الصِّديق بالإفك، وكادت أمُّ رومان أن تفقد صوابها لِما أشاعه أصحاب القلوب المنافقة الحاقدة بقيادة ابن سلول زعيم المنافقين، بل إنَّها لمَّا سمعت بما رُميت ابنتُها بالإفك خرَّت مغشياً عليها لهولِ ما سمعت ؛ ولكن العنايةَ الإلهية كانت بالمرصاد لهؤلاء المرجفين، فنالوا الخزي، وجلّلهم العار إلى يوم القيامة.

* وفي هذه المحنة الكبرى، برزتْ أمُّ رومان ـ رضي الله عنها ـ لتؤدي دور الأم الواعية الحانية، والحماة الكريمة الأديبة التي تعرفُ الحقوق وتدركُ معنى الواجبات، والزَّوجة التي تشاطر زوجها نوائبَ الدَّهر، وكادت تقوم فتنةٌ ـ من جراء حديث الإفك ـ لولا أَنْ مَنَّ اللهُ على المؤمنين بفضله ورحمته، فاندثرت الفتنةُ.

* استطاعت أمُّ رومان ـ رضي الله عنها ـ أَنْ تتصرفَ بحكمة إزاء هذه المحنة التي أقضَّتْ مضجعَ الأسرة البكرية كلّها، وكتمتْ عن ابنتها عائشةَ خبر الإفك، ولكِنْ شاء الله سبحانه أَنْ يخبر عائشة ـ أمّ مسطح بن أثاثة ـ بتفاصيل ما يُشاع عنها في حديث الإفك الآثم، ولنترك الحديثَ للصِّديقة عائشة صاحبة القصة لتحدثنا عن حالها وحال والدتها أمّ رومان، والحديث رواه أصحاب السُّنن وأهل التَّفسير والسِّير، وسنقتطف فِقْرات كاشفة من الحديث الذي يوضح دور أمِّ رومان ـ رضي الله عنها ـ.

* تقول أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ بعد سماعها تفاصيل الخبر الآثم العَفِن:

«. . . . . . فجئتُ أبوي فقلتُ لأمّي: ياأمتاه ما يتحدَّثُ النَّاس؟

قالت: يا بنية هوِّني عليك، فوالله لقلَّما كانتِ امرأةٌ قط وضيئة عند رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائر إلا كثّرن عليها.

فقلتُ: سبحان الله ولقد.تحدَّث النَّاس بهذا؟!.

قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنوم حتى أصبحت أبكي . . . . . . »[1].

* ومكثتْ أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ قرابةَ شهر في قلقٍ وخوفٍ، وحديث الإفك قد استفحل في المدينة، ولأمر يريده الله سبحانه، ولدرس عظيم ألقاه الله علينا، لبثَ رسول الله ﷺ شهراً لا يُوحى إليه شيء في شأن هذا الحادث، ولنتابع فقراتٍ مِنَ الحديث مع أمِّ المؤمنين عائشة فتقول:

« . . . . . . فبينا نحنُ على ذلك دخلَ علينا رسولُ الله ﷺ فسلّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبثَ شهراً لا يُوحى إليه في شأني، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أمّا بعدُ يا عائشة فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه». فلما قضى رسول الله ﷺ قلصَ دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجب عني رسولَ الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ، فقلتُ لأمّي: أجيبي رسولَ الله ﷺ قالت: ماأدري ما أقول لرسول الله ﷺ[2] . . . . . . ».

* وتصوّر عزيزي القارىء هذا الموقف المؤثر، تصوّر شعور الصّحابية الجليلة أمّ رومان أمام رسولِ الله ﷺ في لحظاتٍ حرجة عانت فيها وطء هذه المصيبة غير المتوقعة، ولكن كان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

* * *

البَـراءةُ العُظمـى والفَرحَـة الكُـبْرى:

* كان رسول الله ﷺ ما يزال عند عائشة، وما إنْ أتمَّ كلامه حتى ساد

---

(١) من حديث أم المؤمنين عائشة وقد رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٧) في تفسير سورة النور، وانظر تفسير ابن كثير والقرطبي لسورة النور الآيات (١١ـ٢٠).
(٢) المصدر السابق نفسه.

صمتٌ قليل، ونزلَ الوحيُ حاملاً شهادة البراءةِ الرَّبانيةِ للصِّديقة عائشة، وفي اللحظة ذاتها عاد السُّرور والإشراق إلى نَفْس أمِّ رومان عندما سمعت رسول الله ﷺ يتكلّمُ بأول كلمة بعد الوحي: «يا عائشة أمّا الله عزَّ وجلَّ فقد برَّأكِ».

* وسُرَّ الجميع بهذه الشَّهادة الرَّبانية المباركة النَّاصعة، وفي تلك السَّاعة الحافلة بالبشر والسُّرور لم تنسَ أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ أصول الأدب أمامَ رسول الله ﷺ فأمرت ابنتها عائشة أنْ تقوم للنَّبي الكريم فقالت: «قومي إليه».

فقالت عائشةُ: «والله لا أقوم إليه ولا أَحْمَدُ إلا الله عزَّ وجلَّ. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ. . .﴾ الآيات العشر كلّها[1].

* وهكذا خرجتْ أمُّ المؤمنين عائشةَ ـ رضوان الله عليها ـ مِنْ هذه المحنة بشهادة وضّاءة موقّعة من ربِّ العالمين تشير إلى طهرها وبراءتها ونقاء عنصرها.

* * *

كرامَةٌ للأُسْرةِ البكْريّةِ الطَّاهرَةِ:

* عادت حياة النَّقاء إلى قلب أمِّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ بعد أَن انقشعت سحابة الإفك، وقد أكرم الله عزَّ وجلَّ بيتَ وأسرةَ أبي بكر الصِّديق ـ رضوان الله عليه ـ وأنزل في شأْن أمِّنا عائشة قرآناً يُتْلى إلى يوم الدِّين، فأكرمْ بهذه المنقبة، لهذه الأسرة البكرية الطَّاهرة! وكان هذا جزاءً وفاقاً منَ الكريم المُتعال عزَّ وجل لرجل دخل في الإسلام مِنْ أولِ يوم، وبذل نفسه وأهلَه ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله، وقد نوّه أبو بكر الصِّديق على طهارة أسرته ونقائها بقولته المشهورة: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أَنْ أعزنا

---

(١) الآيات العشر من (١١) حتى الآية(٢٠) من سورة النور، انظر صحيح الإمام مسلم في التوبة، باب حديث الإفك حديث رقم (٢٧٧٠) وانظر البداية والنهاية (٤/ ١٦٠).

الله بالإسلام. ويكفي أبا بكر شرفاً ومكرمة أنَّ الله جعله من أولي الفضل.

* * *

الخيِّرةُ الدَّيِّنَةُ:

* في حياة أمِّ رومان ـ رضي الله عنها ـ وقفاتٌ لطيفة، ونفحاتٌ مباركة جعلتها منَ النِّساء القانتات العابدات اللائي يُقتَدى بهنَّ، فقد كانت تسعى لمرضاة الله سبحانه وتعالى ولمرضاة رسوله الكريم ﷺ، ولم تخرجْ عن طاعة الزَّوج أيضاً.

* أما عبادتُها فكانت رائعةً، وصلاتُها سليمة صحيحة بتوجيه من زوجها أبي بكر الصديق، فقد روت كيف علَّمَها الصِّديقُ أداءَ الصَّلاة سليمة فقالت: رآني أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ أميلُ في الصَّلاة، فزجرني زجرةً كدتُ أنصرف مِنْ صلاتي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم في الصَّلاة فليسكنْ أطرافه ولا يميل ميل اليهود، فإنَّ تسكين الأطراف مِنْ تمام الصَّلاة»[1].

* وفي مجال الدُّعاء والاستغفار ضربت أمُّ رومان مع زوجها الصِّديق مثالاً عملياً رائعاً، فقد ذَكَرَ عليُّ بن بلبان المقدسي في كتابه النَّفيس «تحفة الصَّديق في فضائل أبي بكر الصِّدّيق» فقال: جاء أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ وأمُّ رُومان حتى دخلا على رسول الله ﷺ فقال: «ما جاء بكما»؟.

قالا: يا رسول الله تستغفرُ لعائشةَ ونحنُ شهود.

فقال: «اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر مغفرةً ظاهرة وباطنةً لا يغادرها ذنب».

فلما رأى سرورهما بذلك قال رسول الله ﷺ: «ما زالت هذه دعوتي لِمَنْ أسلم مِنْ أمَّتي مِنْ لدن بعثني الله إلى يومي هذا»[2].

---

(١) عن حياة الصحابة (٣/ ١٣٧).

(٢) انظر تحفة الصديق (ص٩٧)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥٨) بمعنى قريب من هذا.

* وكان النَّبي الكريم ﷺ يكرمُ أمَّ رومانَ التي كانت تسعى دائماً للفوز بمرضاة الله ومرضاة رسوله، وكانت تركنُ إلى الصَّمت إذا ما تكلَّم عليه الصَّلاة والسَّلام مع ابنتها عائشة، فقد ذَكَر صاحب السِّيرة الحلبية أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يذكرُ خديجة أمّ المؤمنين ويكرم صاحباتها، فقالت له عائشة يوماً: لكأنَّما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة! فغضبَ عليه الصَّلاة والسَّلام، فإذا بأمِّ رُومان تقولُ له: ما لك ولعائشة، إنَّها حديثة السِّن وأنت أحق مَنْ يتجاوز عنها، فأخذ عليه الصَّلاة والسَّلام بشدْقِ عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال: «ألستِ القائلة كأنّما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة؟ والله لقد آمنت بي إذ كفر بي قومك، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه»(١).

* وهكذا فقد سكتت أمّ رومانَ أمام رسول الله ﷺ، فالرّسول الكريم لا ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

ودَاعــاً أمّ الصِّديقَــة:

* ذكر ابن سعد في طبقاته وفاة الصَّحابية الجليلة أمّ رُومان وأثنى عليها فقال: وكانت أمُّ رومانَ امرأةً صالحةً، وتوفيت في عهد النَّبي ﷺ في ذي الحجة سنة ست من الهجرة(٢).

* كان لوفاة أمّ رومان ـ رضوان الله عليها ـ كبير الأثر في نَفْس رسول الله ﷺ، وكذلك في نفس ابنتها وزوجها رضوان الله عليهم جميعاً، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمها بكرامةٍ عظيمة جعلتها مِنَ السُّعداء إن شاء الله، فقد نزل رسول الله في قبرها واستغفر لها.

ومن عيون أخبار أم رومان ما حاصله أنَّ النبي الكريم ﷺ لم ينزلْ في قَبْر أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قَبْرُ خديجة أمّ المؤمنين

---

(١) عن السيرة الحلبية (٣/ ٤٠١) بتصرف يسير، وانظر المغازي والسير لابن إسحاق (ص٢٤٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧٦).

في مكة المكرمة، وأربع بالمدينة، منها قبر أمّ رومان ـ رضوان الله عليها ـ في البقيع[1]، ونزل رسول الله في قبرها وقال: «اللهم إنَّه لم يخفَ عليك ما لقيتْ أمّ رومان فيك وفي رسولك ﷺ»[2].

وقد كان آخر شيء في حياة أمّ رومان دعاء رسول الله ﷺ، فنعمَ الخاتمة ونعمَ الدُّعاء.

* * *

بشارتها بالجنة:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

* الصَّحابية الفاضلة أمّ رومان واحدة مِنْ نساء الإسلام اللواتي تركن آثاراً عبقةً في تاريخ حياتهن الوضَّاءة، فكانت مِنَ السَّابقات الكريمات إلى الإسلام وكانت مِنَ المهاجِرات الأُوَل ومن القانتات العابدات، ومن اللائي قدَّمنَ التَّضحيات لنصرة رسول الله ﷺ.

وقد حظيت أمُّ رُومان بالبشارة العظمى ـ الجنَّة ـ روى ابن سعد بسنده عن القاسم بن محمّد قال: لما دُلِّيَت أمُّ رومانَ في قبرها، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ ينظر إلى امرأةٍ منَ الحور العِين فلينظر إلى أمِّ رُومان»[3]. ولا يخفى ما في هذا الحديث مِنْ إشارة إلى البشارة بالجنّة، وأَنَّ الحور العين إنَّما يكنَّ في الجنَّة.

* ومن الأخبار التي تُضاف إلى رصيد أمِّ رومان، أَنَّها روتْ عن النَّبي

---

(١) البقيع ـ بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة، انظر معجم البلدان (١/ ٤٧٣).

(٢) انظر الاستيعاب (٤/ ٤٣١)، والإصابة (٤/ ٤٣٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٤٢) والسيرة الحلبية (٢/ ٢٧٤)، ووفاء الوفا (٣/ ٨٩٧).

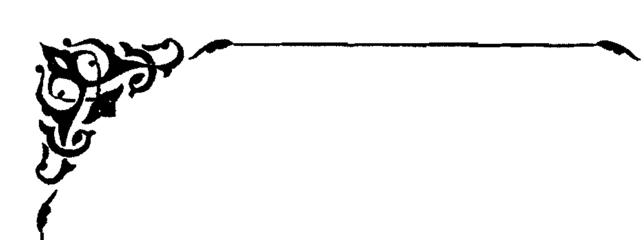
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧٧) وكنز العمال (١٢/ ١٤٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٤٢)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٧٤) وأنساب الأشراف (١/ ٤٢٠).

الكريم حديثاً واحداً انفردَ بإخراجه الإمام البُخاريّ[1] ـ رحمه الله ـ.

* رضيَ الله عن الصَّحابية الدَّيّنة الخيِّرة أمّ رومان، أمّ الصّديقة وزوج الصّديق، ونضَّر الله قبرها، ومع وداع سيرتها المعطار نقرأُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر المجتبى لابن الجوزي (ص ١٠٣).



(٦)

أمّ أيمن
بركَـةُ بنتُ ثَـعْلَـبَـة
رضي الله عنها

«مَنْ سرَّه أَنْ يتزوّج امرأةً مِنْ أهلِ الجنّة فليتزوّج أمّ أيمن» حديث شريف

«أمُّ أيمن أمّي بعد أمّي» حديث شريف

يـا أُمّـه:

* أمُّ أيمن، بركةُ، يُمْنٌ وبركةٌ جُمِعا في شخصية هذه الصَّحابِية الكريمة؛ التي حظيت بالتّكريم مِنْ رسول الله ﷺ.

* هذه الصَّحابية المباركة، عاشت مراحلَ النُّبوة كلها، وعاصرتِ الأحداثَ الإسلامية مِنْ ألفِها إلى يائها.

* عاشت مولاة، وعاشت حرّةً، وكانت زوجاً وأمّاً.

* كانت حاضنةً للنّبي الكريم ﷺ، وأضحت زوجاً لحبِّ رسول الله ﷺ ـ زيد بن حارثة ـ، وأُمّاً للشهيد «أيمن بن عُبيد الخزرجي»، وأُمّاً لأمير الأمراء وفارس مِنْ فرسان الرَّسول ـ الحب بنُ الحبِّ[1] ـ أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ.

* والآن فمَنْ أمُّ أيمنَ هذه؟ وما هي هويتها؟

* هي بركةُ بنتُ ثعلبة بن عمرو بن حصن. . . . الحبشية، وهي أمُّ أيمن، غلبت عليها كُنيتها حيث كنيت باسم ابنها أيمنَ من زوجها عُبيد بن زيد الحبشي[2]، ويقال لها: مولاةُ رسول الله ﷺ، وخادم رسول الله ﷺ.

* وهذه السَّيدةُ الفاضلة عرفت النَّبي الكريم طفلاً صغيراً، وعرفته شاباً ونبيّاً مرسلاً، وزوجاً وأباً وجداً، وكان النَّبي الكريمُ ﷺ يقول لها: «يا أُمّه» وقد عاشت بعد وفاته مدّةً مِنَ الزّمن، فهي تُعتبر إحدى مراجع السِّيرة النَّبوية المباركة.

* والآن لندخلَ رحابَ سيرة هذه الصَّحابية الجليلة، إحدى النِّساء المسلمات اللاتي كان لهن نصيبٌ في تاريخ الإسلام.

* * *

(١) أي: المحبوب بن المجبوب.
(٢) انظر الاستيعاب (٤/٤٣)، وانظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٧٦٢).

الحَاضنَـةُ الطَّـيِّبَـةُ:

* ذكر شيخ كُتّاب السِّيرة النَّبوية محمّدُ بن إسحاق ـ رحمه الله ـ، أنَّ عبد الله بن عبد المطلب قد توفي والنَّبيُّ لا يزال جنيناً في بطن أمِّه آمنة بنت وهب، وقد ترك عبد الله للجنين خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم، وسيفاً مأثوراً، ووَرِقاً ـ فضة ـ وجاريةً هي أمُّ أيمنَ بركة الحبشية ضيفتُنا المباركة اليوم، فكانت أمُّ أيمن تحضنه ويسميها أمي[1].

* واستُرضع النَّبي الكريم في بني سعد، وها هو قد عادتْ به حليمة السَّعدية في سنته الخامسة، وأسلمته إلى أمِّه آمنةَ، ولما بلغ السَّادسةَ، ذهبتْ به أمُّه إلى المدينة لزيارة بني النَّجار أخوال جده عبد المطلب، واصطحبت معها أمّ أيمن في هذه الزِّيارة، ولما عادت إلى مكة مرضت آمنة في الطّريق، وتوفيت في الأبواء[2] ـ قرية بين مكة والمدينة ـ وجلس محمّدٌ ﷺ يبكي على فراق أمِّه؛ الذي أثّر أثراً كبيراً في نفسه، وظلتِ الذّكرى إلى ما بعد الهجرة، فقد نظر ﷺ إلى دار بني النّجار عندما هاجر وقال: «هنا نزلتْ بي أُمّي، وفي هذه الدَّار قبر أبي عبد الله، وأحسنتُ العَوْمَ في بئر عَدي بن النّجار»[3].

* وفي هذا الموقف الأليم، برزت أمُّ أيمَن لتحتلَّ مكانتها بين النِّساء اللاتي تركن بصماتٍ واضحةً في التَّاريخ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى لها الخير كلّه، وعادت بالنَّبي ﷺ، وأضحت حاضنته، وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، وغمرتْه بعطفها، كما غمره جده عبد المطلب بحبِّه أيضاً، وقد عوّضه الله بحنانِ جده وأمِّ أيمن عن حنان الوالدين، وأُغرِمَ به عبد المطلب

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/ ١٠٠)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧)، وأنساب الأشراف (١/ ٩٦).

(٢) انظر شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقاني (١/ ١٦٧ و ١٦٨)، وانظر طبقات ابن سعد (١/ ١١٦).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (١/ ١١٨)، وعيون الأثر (١/ ٤٩)، والسيرة الحلبية (١/ ١٨٠).

غراماً شديداً، وكثيراً ما كان يوصي الحاضنة أمّ أيمن قائلاً: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإنّي وجدته مع غلمان قريباً من السِّدرة، وإنَّ أهلَ الكتاب يزعمون أنَّ ابني هذا نبيٌّ هذه الأُمّة.

* وكان عبدُ المطلب يُسَرُّ لما يرى مِنْ مخايل الشَّرف والكرامة على حفيده محمّد، ويوصي أعمامه بقوله: دعوا ابني فوالله إنَّ له لشأناً.

* ولكن المنية وافت عبد المطلب بعد أَنْ أوصى ابنه أبا طالب بكفالة النّبي وحياطته، وحزن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام حزناً شديداً، وكان ما يزال طفلاً صغيراً.

* وقد سُئل ﷺ: أتذكرُ موت عبد المطلب؟ قال: «نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين».

* وتروي أمُّ أيمنَ حُزْنَ الرَّسول الكريم على جدِّهِ فتقول: رأيتُ رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلفَ سرير عبد المطلب[1].

* * *

إنَّـكَ لمُبَـارِكٌ:

* ازدادت عنايةُ أمِّ أيمنَ بالنَّبي ﷺ، كما حاطَه أبو طالب وزوجه فاطمة بنت أسد[2] بعناية خاصّة، وتولاه الله برحمته، وخصَّه بالبركة، فكان يصبح دهيناً كحيلاً، بينما كان الصِّبيان يصبحون خلافَ ذلك، روى ابنُ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بنو أبي طالب يصبحون رُمْصاً شُعْثاً، ويصبح محمَّدٌ ﷺ دهيناً كحيلاً، وكان أبو طالب يحبُّهُ حبّاً شديداً[3].

* وحدّثت أمُّ أيمنَ عن هذه البركة فقالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ شكا جوعاً قطّ ولا عطشاً، فكان يغدو إذا أصبح فيشربُ مِنْ ماء زمزمَ شربة، فربما

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/ ١١٩).
(٢) اقرأ سيرة فاطمة بنت أسد في هذا الكتاب.
(٣) انظر هذا في البداية والنهاية (٢/ ٢٨٢)، وشرح المواهب للزرقاني (١/ ١٨٩).

عرضنا عليه الغداء فيقول: لا أريدُ أنا شبعان[1].

* وكان أبو طالب كثيراً ما يقول للنَّبي الكريم: إنَّك لمباركٌ، لما يَرى مِنَ البركة، والآثار الطيِّبة التي تكتنف عيال أبي طالب.

* * *

عتـقُها وزوَاجُهَـا:

* شبَّ رسولُ الله ﷺ وهو ينادي أمّ أيمنَ «يا أمّه»، فقد كانت ـ رضي الله عنها ـ تقومُ على أموره وشؤونه، وترعاه رعايةً حسنة، ولما تزوّج النَّبي الكريم من خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، أعتقَ أمّ أيمن، فتزوجها عُبيد بن زيد الخزرجي[2]، فولدت له أيمن ـ ولأيمن هذا هجرة وجهاد واستُشهد يوم حنين ـ رضي الله عنه ـ وهو الذي تُكنى به ـ رضي الله عنهما ـ.

* لم ينقطعْ برُّ النَّبي الكريم عن أمّ أيمنَ، بل ظلَّ يكرمها ويزورها، وكان رسولُ الله ﷺ إذا نظرَ إليها قال لها: «هذه بقيةُ أهل بيتي» كما يقول لها: «يا أُمّه»[3].

* وفي كتابه «تهذيب الأسماء واللّغات» ذكر النَّووي ـ رحمه الله ـ أنَّ الرَّسول ﷺ، كان يقول: «أمُّ أيمنَ أُمّي بعد أُمّي».

* ولما بُعِثَ رسول الله ﷺ، كانت أمُّ أيمنَ منَ السَّابقات إلى الإسلام، ومن المصدِّقاتِ برسالة محمّد ﷺ، ذكر ابنُ الأثير الجزري في كتابه النَّفيس

---

(١) انظر دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢١٠ و ٢١١).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٧١)، والسيرة الحلبية (١/ ٨٥)، والمجتبى لابن الجوزي (ص ١١٠).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٣)، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٤) والإصابة (٤/ ٤١٥).

«أُسْدُ الغابة» هذا فقال: أسلمتْ قديماً أول الإسلام[1]. ومن أول يوم من أيام إسلامها انخرطت في موكبِ المسلمات، فتركها زوجُها عبيد بن زيد وأبى أَنْ يسلمَ، ففرّق الإسلامُ بينهما.

* وكانت خديجةُ بنت خويلد أمُّ المؤمنين، قد ملكتْ زيدَ بن حارثة، اشتراه لها حكيمُ بنُ حزام بن خويلد[2] منْ سوق عكاظ، وسأل النّبي ﷺ زوجَه خديجةَ أَنْ تهب له زيداً، فوهبته له، فأصبحَ زيدٌ أثيراً لدى رسول الله فأعتقَه، ثم زوَّجه أمَّ أيمنَ حاضنَته وجعل له الجنَّة، فولدت له أُسامة فكان يكنى به[3] رضي الله عنهم جميعاً، وكان لهذه الأسرة المباركةِ شأنٌ كبيرٌ في عَصْر النُّبوة وصَدْر الإسلام.

* * *

الهِجْرةُ المبارَكـةُ:

* ذكر ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ أيمنَ أسلمتْ قديماً، وهاجرت إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة، ولهجرتها إلى المدينة قصّةٌ شائقة لطيفة تدلُّ على إكرام الله سبحانه وتعالى لها.

* لنستمعْ إلى هذه الكرامة المباركة التي حباها الله لهذه المؤمنة التَّقية

---

(١) أسد الغابة ترجمة رقم (٧٣٦٣).

(٢) هو أبو خالد حكيم بن حزام بن خويلد القرشي السدي المكي، وُلدَ قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة في جوف الكعبة، أسلم يوم فتح مكة سنة (٨هـ)، شهد بدراً مع المشركين، كان إذا اجتهد في يمينه قال: والذي نجاني أنْ أكونَ قتيلاً يوم بدر. عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، وكان جواداً كريماً. توفي حكيم بالمدينة سنة أربع وخمسين من الهجرة. وحكيم هذا ابن أخي خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وابن عم الزّبير بن العوام بن خويلد، وله مناقب كثيرة، وروى عن رسول الله ﷺ أربعين حديثاً. أخرج له منها في الصّحيحين أربعة متفق عليها (عن تهذيب الأسماء واللغات والمجتبى بتصرف يسير).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥).

النَّقية، فقد ذكر ابن سعد وغيره هذه المكرمة فقالوا: لما هاجرت أمُّ أيمنَ أَمْسَت بالمنصرفِ دون الرَّوحاء فعطشت، وليس معها ماء، وهي صائمةٌ فجهدها العطش فدُلّيَ عليها مِنَ السَّماء دَلْو مِنْ ماء برشاء أبيضَ، فأخذته فشربتْ منه حتى رُويتْ فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطشٌ، ولقد تعرضتُ للعطش بالصَّوم في الهواجر فما عطشتُ بعد تلك الشَّربة، وإني كنتُ لأصومُ في اليوم الحار فما أعطش[1].

* إنَّه تكريمٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لخروجها في سبيله تبتغي مرضاته ورضوانه، لذلك ذكرها أبو نُعَيم عندما ترجمَ لها بقوله: ومنهن أمُّ أيمنَ المهاجرةُ الماشية، الصَّائمةُ الطاوية، النَّاحبةُ الباكية، سُقِيت من غير راوية، شربةً سماوية، كانت لها شافية كافية[2].

* * *

صُورٌ مِنْ جِهَادِهَا:

* جمعتْ أمُّ أيمنَ ـ رضوان الله عليها ـ الصِّفات الطَّيِّبة التي ينبغي أَنْ تتوفرَ في المرأة، ولكنّها بالإضافة إلى خلالها الحميدة أضافت صفةً أخرى رائعة إلى صفحات حياتها المعطاء، ألا وهي صفة الجهاد، فقد أَبتْ رضي الله عنها ـ على الرغم مِنْ كبر سنِّها ـ إلا أَنْ تشاركَ رسول الله وأبطال الإسلام في مقارعة المشركين؛ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى، وكان لأمِّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ مواقف مشهورة في الغزوات التي حضرتها، سجلها لها التَّاريخ بأحرفٍ من نور.

* والآن دعونا نسعد في هذه السُّطور مع جهاد أمِّ أيمنَ، ونشهد جانباً مِنْ شجاعتها وأعمالها الوضَّاءة.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٤)، وانظر سير أعلام النبلاء(٢/ ٢٢٤)، والإصابة (٤/ ٤١٥)، والسيرة الحلبية (١/ ٨٥).
(٢) الحلية (٢/ ٦٧).

دورُهَــا في غَـزوةِ أُحُــدٍ:

* في غزوة أحد خرجت أمُّ أيمنَ ـ رضوان الله عليها ـ مع النِّساء اللائي خرجنَ، وكانت مهمة أمِّ أيمنَ مداواة الجرحى والاعتناء بهم، وسقاية العطاش من المجاهدين، وذكر سيّدنا كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مهمة أمّ أيمن، فقال: «وكانت أمُّ أيمنَ تسقي الجرحى».

* وبينما كانت تقومُ بسقاية الجرحى، أصابها سَهْم مِنْ يَدِ أحد المشركين وهو حبّان بن العَرِقَة فوقعت أرضاً، فضحكَ حبّانُ ضحكاً شديداً، فشَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، ودفع إلى سيِّدنا سعد بن أبي وقّاص سَهماً لا نَصْل له فقال له: «ارمِ»، فأصاب السَّهم حبّان فوقع مستلقياً وبدتْ عورته، فضحكَ رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «استقادَ لها سعدٌ، أَجابَ الله دعوتَك، وسدّدَ رميتَك»[1].

* وتابعتِ المجاهدةُ الجريئة أمُّ أيمن مهمتها، وكان لها موقفٌ يشيرُ إلى شجاعتها وحكمتها، فعندما خالفَ الرُّماة في أُحدِ أَمْرَ النَّبي الكريم ﷺ وانهزم بعضُ المسلمين، لقيتهم أمُّ أيمن تحثي في وجوههم التُّراب وتقول لبعضهم: هاكَ المغزل فاغزل به، وهلمَّ سيفك[2]. ثم اتجهتْ نحو رسول الله ﷺ تستطلعُ أخباره في نسوةٍ معها حتى اطمأنت على سلامته، فحمدتِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

مَوقفُهَــا في خَيبَــرَ:

* في غزوة خيبرَ كان لأمِّ أيمنَ موقفٌ لا يقلُّ روعةً عن موقفها في أحد، فقد خرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، ومن بينهن أمُّ أيمنَ،

---

(١) عن المغازي (١/ ٢٤١) وأنساب الأشراف (١/ ٣٢٠) بتصرف يسير جداً.

(٢) انظر المغازي (١/ ٢٧٨) وانظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢٦) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣١١).

وأمُّ عمارة نَسيبة بنت كعب، وأمُّ العلاء الأنصارية وغيرهن[1]، وتخلّفَ أيمنُ ابن أمِّ أيمن عن هذه الغزوة لظرفٍ منَعه مِنَ الخروج، فعيّرتْه بالجُبْن والخوف، علماً بأنَّ أيمنَ كان مِنْ فرسان النَّبي ﷺ، وقد أخَّرهُ عن الخروج مرضُ حصانه، وقد أشار لذلك سيِّدُنا حسانُ بن ثابت، فقال يعذرُ أيمن ـ رضي الله عنه ـ ويذكر شجاعته ويسجِّل فَضْلَ أمِّه وموقفها:

على حين أَنْ قالت لأيمنَ أمُّه
جَبُنْتَ ولم تشهدْ فوارسَ خيبرِ
وأيمنُ لم يجبُن ولكنَّ مهرَه
أَضرَّ بهِ شربُ المديدِ المخمّرِ[2]
فلولا الذي قد كان من شأْنِ مهره
لقاتل فيها فارساً غير أَعْسرِ[3]
ولكنَّه قد صدَّه فِعْلُ مُهره
وما كان منه عنده غير أَيسرِ[4]

وقد أكرمَ رسول الله ﷺ أمّ أيمنَ والنِّساء اللائي خرجن معها، فقد ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ عن شهود النّساء خيبر فقال: وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساءٌ مِنَ المسلمين فرضخ لهن ـ أعطاهن عطاءً يسيراً ـ رسول الله ﷺ مِنَ الفيء، ولم يضرب لهنّ بِسَهْمٍ.

* * *

الصَّابِرَةُ في مُؤتَةَ وحُنَينٍ:

* في سَريّةِ مؤتةَ، خرج سيّدُنا زيدُ بن حارثة حبُّ رسول الله ﷺ أميراً على

---

(١) انظر المغازي (٢/ ٦٨٥).
(٢) المديد: الدقيق يخلط مع الماء فتشربه الخيل، والمخمر: الذي ترك حتى يختمر.
(٣) الأعسر: الذي يعمل بيده الشمال ولا يعمل باليمين.
(٤) انظر البيتين الأولين في الاشتقاق (ص ٤٦٠)، وانظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٦٦ و ٢٦٧).

الجيش كلِّه، وفي مؤتةَ لقيَ ربَّه شهيداً مع سيِّدنا جعفر بن أبي طالب وسيِّدنا عبد الله بن رواحة، ويحدِّثُ النَّبي الكريمُ أصحابه بخبر استشهاد الأمراء الثّلاثة، وأوّلهم زيد، وتتلقّى أمُّ أيمنَ نبأ استشهاد زوجها فتحسبه عند الله وتصْبِر، وتُعلِّم ابنها أسامة الصَّبر، وتغرسُ فيه روح الشَّجاعة والثّبات، ليثأرَ لأبيه من المشركين، وفي هذا الموقف المؤثر ضربتْ أمُّ أيمن أجمل الأمثلة وأحلاها في الصَّبر والتَّسليم لقضاءِ الله.

* وتأتي غزوةُ حنين، وتخرج أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ مع النِّساء اللائي خرجنَ، وفي هذه الغزوة المباركة شاركت أمُّ أيمن بالكثير، دفعتْ بولديها أيمنَ وأسامة ليكونا حول الرَّسول ﷺ، وشاركت هي في سقاية الجرحى، كما شاركت بلسانها في الدُّعاء للمسلمين وطَلَبِ النَّصر مِنَ الله لهم.

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ ابنها أيمن كان مع النَّفر مِنَ المهاجرين والأنصار الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، ومنهم: سَيّدُنا العبَّاس بن عبد المطلب، وعليُّ بن أبي طالب، وأبو سفيانَ بن الحارث بن عبد المطلب، وأيمنُ بن عبيد الخزرجي، وأسامةُ بن زيد، وأبو بكر وعمرُ، وحارثةُ بن النُّعمان، وغيرُهم، وقد ضرب سيّدُنا أيمن بن عبيد أروعَ الأمثلة في الشّجاعةِ وفي الدِّفاع عن رسول الله ﷺ وسقط شهيداً، ولحق بربه إلى جنّاتٍ عرضُها السَّموات والأرض أعدت للمتقين.

* وصبرت أمُّ أيمن أيضاً، واحتسبت ابنها عندَ الله سبحانه ابتغاءَ مرضاته ومرضاةِ رسوله ﷺ.

* * *

مكانتُـهَا عندَ النَّبي ﷺ:

* كانت أمُّ أيمنَ ـ رضوان الله عليها ـ تخدم النَّبيَّ ﷺ وتهتمُّ به، وكانت ذات مكانة كبيرة عند النَّبي الكريم، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مِنْ أعْرفِ الخلق بالنَّاس، وقد نظر فرأى صفاء نفيسة أمِّ أيمنَ ونقاء قلبها، فأحلَّها مكانةً كبرى، فكأنَّما أمُّ أيمَن مِنْ أهل بيت النُّبوة عندما قال لها عليه الصَّلاة والسَّلام

ذات مرة: «غطِّي قناعَك يا أمّ أيمن»[1].

* ويروي عليُّ بن برهان الدِّين الحلبي في سيرته اللطيفة حديثاً يشيرُ إلى مكانة أمِّ أيمن في نَفْس الرَّسول ﷺ، فعن عائشةَ بنت الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ قالت: شَرِبَ رسول الله ﷺ يوماً، وأمُّ أيمن عنده، فقالتْ: يا رسول الله اسقني.

فقلتُ لها: أَلِرسول الله ﷺ تقولينَ هذا؟.

فقالتْ: ما خدمتُه أكثر.

فقال النَّبي ﷺ: «صدقتْ» فَسَقاها[2].

* وهذا سيّدُنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ يتحدث عن مكانة أمِّ أيمن فيقول: ذهبتُ مع النَّبي ﷺ إلى أمِّ أيمنَ نزورُها، فقربت له طعاماً أو شراباً، فإمّا كان صائماً وإمّا لَمْ يُردْهُ، فجعلتْ تُخاصمه أَي كُلْ[3]ـ وفي رواية أخرى ـ فأقبلتْ تضاحكه[4]. وكان الحبيب المصطفى ﷺ يبتسم لتصرفات أمِّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ.

* ومنَ الطَّريف أنَّ أمَّ أيمنَ كانت تفعلُ كلَّ ما تقدر عليه، في سبيل إكرامِ رسول الله، فقد رُوي أنّها غَربلتْ ـ نخلت ـ دقيقاً فصنعتَهُ للنَّبي ﷺ رغيفاً، فقال: «ما هذا»؟ قالت: طعامٌ نصنعهُ بأرضنا ـ أي في الحبشة ـ فأحببتُ أَنْ أصنعَ لك منه رغيفاً، فقال: ﷺ: «رُدِّيهِ فيه ثمَّ اعجنيه»[5].

* ومما يُضافُ إلى مكانة أمِّ أيمن أنَّها كانت موضع اهتمام الرَّسول الكريم ﷺ، فقد ذكر بعض المؤرخين أَنَّ لونَها كان أسود، وقد خرج أسامةُ يشبه لونها أيضاً، بينما كان أبوه زيدُ بن حارثة أبيضَ، ومن ثمَّ كان المنافقون

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٤).
(٢) انظر السيرة الحلبية (١/ ٨٥).
(٣) انظر الحلية (٢/ ٦٨)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٥).
(٤) الإصابة (٤/ ٤١٦).
(٥) انظر حياة الصحابة (٢/ ٢٧٣ و ٢٧٤) والحلية (٢/ ٦٨).

والمرجفون يطعنون في نَسَب سيِّدنا أسامة بن زيد ويقولون: هذا ليس هو ابن زيد، وكان النَّبي الكريم ﷺ يتشوش من ذلك، إلى أَن انجلتِ الحقيقةُ، فقد روى الشَّيخان عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دخل عليّ النَّبي ﷺ مسروراً فقال: ألم تَرَيْ أَنَّ مُجزِّزاً المُدلجي قد دخل عليّ فرأى أسامة وزيداً عليهما قطيفة قد غطيَا رؤوسهما، وقد بدتْ أقدامُهما فقال: إنَّ هذه الأقدامُ بعضٌ مِنْ بعض»[1].

* وهناك قصةٌ طريفة تدلُّ على المكانة التي كانت تتمتعُ بها الصَّحابية الجليلة أمّ أيمنَ في نَفْسِ رسول الله، وتشيرُ القصةُ إلى حبِّها لرسولِ الله واحترامها له ولما يكرمها به، ولنتركْ شاهدَ عيان يقصّ علينا تلك القصة الشّائقة.

* روى سيّدنا أنسُ بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ أَنَّ الرجل كان يعطي من ماله النّخلات أو ما شاء الله مِنْ ماله النَّبيَّ ﷺ حتى فُتحتْ عليه قريظة والنَّضير، فجعلَ يردُّ بعد ذلك، فأمرني أهلي أَنْ آتيَه فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان النَّبيُّ ﷺ أعطاه أمَّ أيمنَ، أو كما شاء الله، قال: فسألتُه فأعطانيهن، فجاءتْ أمُّ أيمنَ فَلَوتِ الثَّوْبَ في عنقي، وجعلت تقول: كلا والله لا إلّه إلا هو، لا نعطيكهن وقد أعطانيهن. فقال نبيُّ الله ﷺ: «يا أمَّ أيمن اتركي كذا وكذا» وهي تقول: لا والله، حتى أعطاها عشرة أمثال ذلك أو نحوه ـ وفي لفظ الصَّحيح: كلا والله حتى أُعطى عشرة أمثاله[2].

* وهكذا كانت أمُّ أيمن تتدللُ، ولم ترضَ حتى أخذتْ ما أحبت، وقد

---

(١) عن السيرة الحلبية (٢/ ٨٦) وانظر كتاب الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة (ص ٢٩١ و ٢٩٢) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨٣)، وكان مجزز يقفو الأثر فيعرف صاحبه بالمطابقة بينه وبين القدم، وهو علم يبنى على شدة الفراسة وقوة الملاحظة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، ومسلم في كتاب الجهاد والسّير، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٤٤ و ٤٤٥)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٥)، والإصابة (٤/ ٤١٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٨٨ و ٢٨٩).

منحها الرَّسول الكريم ما أرادت، ونالت الرِّضا والتَّكْريم، رضي الله عنها وأرضاها .

* * *

النَّبيُّ الكريـمُ باسِمـاً :

* كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يمزح مع أصحابه رضوان الله عليهم، وذلك لإدخال السُّرورِ عليهم، وكان له ﷺ بعض المواقف اللطيفة مع حاضنتهِ أمِّ أيمنَ، فمن ذلك ما رُوي أنَّها جاءته فقالت: يا رسول الله احملني، قال: «أحملُك على وَلَدِ النَّاقة» قالت: إنَّه لا يطيقني ولا أريد، قال: «لا أحملُك إلا عليه» يعني أنَّه كان يمازحها، وكان الرَّسول الحبيبُ يمزح ولا يقولُ إلا حقاً، والإبلُ كلُّها ولدُ النُّوقِ[١] .

* * *

النَّبيُّ الكريـمُ مُعلِّمَــاً :

* كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يُعلِّمُ أمَّ أيمنَ بعض الأمور في الحلال والحرام، وكان أحياناً يُوجِّهُها توجيهاً لطيفاً، مِنْ ذلك ما روته أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: قالَ لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخمرةَ من المسجد» قلتُ: إني حائض، قال: «إنَّ حيضتَك ليست في يدك»[٢] .

* وذكر الرواة أنَّ أمَّ أيمن كانت تتعثَّرُ في الكلام أحياناً ـ عسراء اللسان ـ وكان النَّبي الكريم يُعلِّمها أو يأمرها أَنْ تلزم السُّكوت؛ مِنْ ذلك ما رُوي أنَّها دخلت على النَّبي ﷺ فقالت: سلام لا عليكم، فرخَّصَ لها أَنْ تقولَ: السَّلام[٣]. وكانت تقصدُ أنْ تقولَ: سلامُ اللهِ عليكم. وهكذا علَّمها النَّبي

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٤).

(٢) انظر الإصابة (٤/٤١٦).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٥).

الكريمُ دون أَنْ يخرجَ السَّلام عن صيغته الصّحيحة، ودون أَنْ يخدشَ شخصيةَ الصَّحابية الفاضلة أمَّ أيمن ـ رضي الله عنها ـ.

* ومن الطَّريف أَنَّ النَّبي الكريمَ، لا ينسى وهو في اللحظات الحرجة أَنْ يبتَسَم وأَنْ يُعلِّمَ حاضنتَه، كان هذا في غزوة حنين، إذْ كانتِ المعركةُ في أوائلها حرباً شديدةً امتُحِنَ بها المؤمنون، وزُلزلوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتراجع كثيرٌ مِنَ النَّاس، وثبت بعضهم، في تلك اللحظات كان رسول الله ﷺ، ينادي النَّاس المتراجعين الذين سيطر عليهم الهلعُ ويقول: «إليّ أيُّها النَّاس، هلموا إليَّ، أنا رسولُ الله، أنا محمد بن عبد الله، أنا النَّبي لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب».

* في هذا الموقف يسمع حاضنته أمَّ أيمنَ تدعو الله بلكْنَتِها الأعجمية وتقول: سبّتَ اللهُ أقدامكم. وانتبه النَّبي الكريم لما تقول، ولم تنسه أهوال الحرب أن يمازحها ويعلمها، وأقبل عليها يقول: «اسكتي يا أمّ أيمنَ فإنَّكَ عثراءُ اللسان»[1].

* * *

أمُّ أيمنَ والصّدِّيقـةُ عَائِشَـة:

* عندما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، قال أهلُ الإفك ما قالوا في الصّديقةِ بنت الصِّديق أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ، فبرأَها اللهُ ممّا قالوا[2]، وهنا كانت أمُّ أيمنَ موضعَ ثقة النَّبي الكريم، فأثنتْ على عائشةَ خيراً عندما سألها رسولُ الله: **«أيّ امرأة تعلمين عائشة»**؟ فقالت أمُّ

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٤٩)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٥) وفيه عسراء اللسان، بدل عثراء اللسان.

(٢) انظر حديث الإفك في صحيح البخاري لتفسير سورة النور، وانظر تفسير الماوردي وابن كثير والقرطبي للآيات (١٠ ـ ٢٠) من سورة النور.

أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ: حاشا سمعي وبصري أَنْ أكونَ علمت أو ظننتُ بها إلا خيراً[1].

* وهكذا عبَّرت الحاضنةُ الكريمة عن طيب عنصرها وتربيتها النَّبوية، فحظيت بالمكانة المباركة عند رسول الله ﷺ وعند زوجه أمِّ المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

أمُّ أيمنَ وبَنَاتُ النَّبيِّ:

* لم تكن أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ بمعزلٍ عن الأحداث التي كان تمرُّ بالبيت النّبوي، فقد كانت تشاركُ الرَّسولَ الكريم ﷺ، كما تشارك أهلَه في أعمالهم وفي أفراحهم، وها هي تكون مع فاطمةَ بنتِ رسول الله يوم زواجها من سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالب وتقوم بشأنها مع الصَّحابية الجليلةِ أسماء بنت عميس[2].

* ولما تُوفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، كانت أمُّ أيمنَ ممَّنْ غسَّلها، وكذلك سَودة بني زمعة وأم سلمة[3] زوج النّبي الكريمﷺ.

---

(١) انظر المغازي (٢/ ٤٣١)، وانظر حياة الصحابة (٢/ ٦٦٧) وما بعدها.

(٢) هي أسماء بنت عميس بن معد، أسلمت بمكة قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله ومحمّد وعون، وقُتِلَ عنها جعفر يوم مؤتة، فتزوجها سيّدنا أبو بكر الصديق فولدت له محمداً، ومات عنها، وأوصى أَنْ تغسله، ثم تزوجها سيّدنا علي بن أبي طالب فولدت له يحيى.
كانت أسماء من أكرم النّاس أصهاراً، فمن أصهارها رسولُ الله ﷺ وحمزةُ والعبّاس وغيرهم. ولها أخبار تدلُّ على فضلها. وكانت مِنْ خيار الصحابيات، وروت عن النّبي الكريم ستين حديثاً، وروى عنها عدد من كبار الصَّحابة والتّابعين (عن سير أعلام النبلاء وأسد الغابة وتهذيب الأسماء واللغات والمجتبى بتصرف).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣٤) وأنساب الأشراف (١/ ٤٠٠).

* ومنَ الجدير بالذّكر أَنَّ أمَّ أيمنَ قد غسَّلت خديجة أمَّ المؤمنين بمكةَ لما توفيت، وذلك قبل الهجرة النَّبوية الشَّريفة[1].

* * *

فِـرَاقُ الحَبِـيْبِ:

* في صفر سنة (١١هـ)، أخذ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يجهزُ جيشاً كبيراً، وجعل أميرَه سيّدنا أسامة بن زيد بن حارثة، وأَمَرَه أَنْ يوطىءَ الخيلَ تُخوم البلقاء، وذلك لإرهابِ الرُّوم، وإعادة الثِّقة إلى قلوب العرب المسلمين الضَّاربين على الحدود.

وتكلم ناسٌ في أَمير الجيشِ أسامة لحداثة سنِّهِ فقال النَّبي الحبيبُ ﷺ: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارةِ أبيه مِنْ قبلُ، وأيم الله إنْ كان لخليقاً للإمارة، وإنْ كان من أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ هذا من أَحبِّ النَّاس إليَّ بعده»[2].

وانتظمَ النَّاسُ في جيش أسامة بالجُرُفِ ـ مكان على فرسخ من المدينة ـ ولكنَّ مرضَ رسول الله أقلقهم، وكانت أمُّ الأمير الصَّحابيةُ أمُّ أيمنَ بقربهِ ﷺ تقومُ على خدمته كعادتها، ودخلت على النَّبي الكريم فقالت: أيّ رسول الله لو تركتَ أسامة يقيمُ في معسكره حتى تتماثل فإنَّ أسامةَ إنْ خرجَ على حالته هذه لم ينتفعْ بنفسه. فقال رسول الله ﷺ: «أنفذوا بَعْثَ أسامة»[3]. ثم قال لأسامة: «أُغْدُ على بركةِ الله»[4]، فودّعه أسامة وخرج إلى معسكره، وبينما هو يريدُ الرّكوب إذا رسول أمِّه أمّ أيمنَ قد جاء يقول: إنَّ رسولَ الله ﷺ يموتُ، فأقبلَ سَيِّدنا أسامة، وأقبل معه سيِّدُنا عمر وسيدنا أبو عبيدة ـ رضي الله

---

(١) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٠٦).

(٢) انظر صحيح البخاري، باب بعث النبي ﷺ أسامة.

(٣) المغازي (٣/ ١١١٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٩٠ و ١٩١)، وانظر عيون الأثر (٢/ ٣٥٦).

عنهم ـ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت.

* وتوفي النَّبي الكريمُ وتسرَّبَ النّبأُ الفادحُ، وأظلمتْ على المدينة أرجاؤها وآفاقها، وانفطرت قلوب النَّاس حزناً، ووقفت أمُّ أيمنَ حزينةً باكيةً رسولَ الله، وتراءت صورٌ أمامَ عينيها، فتذكرت محمداً الابن والرَّسولَ والولي والكريم، فانطلقت ترثي الحبيبَ ﷺ:

عيــنُ جــودي فــإنَّ بــذلــك للــدَّ
مْــع شِفــاءٌ فــأكثــري م البكــاءِ

حين قالوا الرَّسولُ أمسى فقيـ ـداً ميّتاً كانَ ذاك كلّ البلاءِ
وابكيا خيرَ مِنْ رُزئناهُ في الدُّنـ ـيا ومَنْ خصَّهُ بوحي السَّماءِ
بدموعٍ غزيرةٍ منكِ حتى يقضيَ اللهُ فيكَ خيرَ القضاءِ
فلقد كان ما علمتُ وَصُولاً ولقد جاءَ رحمةً بالضِّياءِ
ولقد كان بَعْدَ ذلكَ نوراً وسراجاً يُضيءُ في الظَّلماءِ
طيّبَ العُودِ والضَّريبةِ والمعْـ ـدِنِ والختم خاتَم الأنبياءِ[1]

* ولعلكَ عزيزي القارىء تستغرب مِنْ أمِّ أيمنَ ـ عسراء اللسان ـ أنَّها تنطقُ بالحكمة والشِّعر، وهذا ليس بغريب، إنَّه الصِّدقُ والإيمانُ والبركة مِنْ رسول الله ﷺ، فقد عَلِمَتْ به ﷺ ما لم تكن تعلم.

* ومِنَ الطَّريف والمفيد ذكره في هذا المقام أَنَّ ابنَ سيّد النَّاس قد ذكر شعراء الصحابة الذين مدحوا أو رَثَوْا رسول الله ﷺ في كتابه النَّفيس «مِنَحُ المِدَحِ» وعدَّ منهم أمَّ أيمنَ فقال مِنْ قصيدةٍ طويلة:

ولأمِّ أيمــنَ وابنــة العــدوي عــا
تكــة الــرثــاء فحبــذا مغــزاهمــا

كما ذكر النّساء اللائي رثينَ رسول الله ﷺ[2].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٢ و ٣٣٣)، وانظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٣٧).

(٢) انظر كتاب منح المدح (ص ٣٨وص ٣٣٥) وما بعدها.

* ولما بُويع سيِّدُنا أبو بكر الصِّديق بالخلافة انطلقَ الجيش بقيادة أسامة، ونفَّذ المهمة، وعاد فائزاً منصوراً راكباً على فَرَس أبيه زيد، ودخل المدينة واستقبلهم سيّدُنا أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ مع المسلمين، وجميعهم مسرورون بنصر الله سبحانه وتعالى.

* * *

مَنْزِلتُـهَـا ـ رضي الله عنها ـ:

* ظلَّتِ الصَّحابيةُ الجليلةُ أمُّ أيمنَ تحتفظُ بمكانتها ومنزلتها الكبيرة في نفوس الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وخاصة في نفسِ سيِّدنا أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وذلك لما توفي النَّبيُّ الكريمُ ﷺ قال أبو بكر لعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ: مُرَّ بنا إلى أمِّ أيمنَ نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلمّا رأتْهُما بكَتْ، فقالا لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما أبكي أنِّي لا أعلم أنَّ رسول الله ﷺ قد صار إلى خير ممّا كان فيه، ولكنْ أبكي لخبر السَّماء انقطع عنا، فهيّجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[١].

* وفي رواية أنَّها قالت: إنَّما أبكي على خبر السَّماء كان يأتينا غضاً جديداً كلّ يوم وليلة، فقد انقطع ورُفِعَ، فعليه أبكي، فعجبَ النَّاس مِنْ قولها[٢].

* وذكر ابن الأثير فقال: إنَّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا يزورانها كما كان رسولُ الله يزورها.

* وظلتِ الحاضنة الكريمةُ تحتلُّ المهابةَ والكرامة في نفوس النَّاس، وظلَّ طيفُها وطيفُ أولادِها يجولُ في أذهان النَّاس أَنَّ هؤلاء أَحِبَّةُ رسولِ الله، ذكر الزُّهري ـ رحمه الله ـ خبراً عظيماً عن هذا فقال:

* حدثني حرمَلة مولى أسامة بن زيد أنَّه بينا ـ بينما ـ هو جالسٌ مع ابن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة، وانظر صفة الصفوة (٢/ ٥٥)، وانظر الإصابة (٤/ ٤١٦)، والمجتبى لابن الجوزي (ص١٠٠).

(٢) انظر هذا في البداية والنهاية (٥/ ٢٧٥) وانظر أنساب الأشراف (١/ ٥٦٧).

عمرَ إذ دخل الحجاج بن أيمنَ فصلى صلاةً لم يتمَّ ركوعها ولا سجودها، فدعاه ابن عمر وقال: أتحسبُ أنَّك قد صليتَ؟ إنَّكَ لم تُصَلِّ فَعُدْ لصلاتك، فلما ولّى قال ابن عمر: من هذا؟ فقلت: الحجاج بن أيمن بن أمِّ أيمن، فقال: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبَّه[1].

* ومما يُضاف إلى رصيدِ الصَّحابية الكريمة أمِّ أيمن ما رواه مسلمةُ بن محارب قال: قال معاوية بن أبي سفيان لأسامةَ بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: رحم الله أمَّ أيمن كأنّي أرى ساقيها وكأنَّهما ساقا نعامة.

فقال أسامة: كانت والله خيراً مِنْ هندٍ[2] وأكرمَ.

فقال معاوية: وأكرم أيضاً؟!.

فقال: نعم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3] [الحجرات: ١٣].

* وبقي احترام أمِّ أيمنَ مستقراً في النُّفوس، وظلّتْ مكانتها كبيرة تزدادُ مساحةً بعد مرور زمن طويل، ففي خبر طريف يشيرُ إلى ذلك ما رُوي: أنَّ ابنَ أبي الفُرات مولى أسامة بن زيد، خَاصَمَ الحسنَ بن أسامة بن زيد ـ حفيد أمِّ أيمنَ ـ ونازعه، فقال له ابنُ أبي الفرات في كلامه: يا بنَ بركة يريد أمَّ أيمنَ، فقال الحسنُ بن أسامة: اشهدوا، ورفع الأمر إلى قاضي المدينة أبو بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم ـ قاضي عمر بن عبد العزيز ـ وقصَّ عليه القصة فقال أبو بكر لابن أبي الفرات: ما أردت إلى قولك يا بن بركة؟ قال: سميتُها باسمها، قال أبو بكر: إنَّما أردتَ بهذا التَّصغيرَ بها وحالُها مِنَ الإسلام حالها، ورسولُ الله ﷺ يقول لها: يا أمّه ويا أمّ أيمنَ وتقولُ له يا بن بركة! لا أقالني الله إنْ أقلتُكِ، فضربه سبعينَ سوطاً[4].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٦).
(٢) والدة معاوية رضي الله عنهما.
(٣) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٧٥).
(٤) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٦) بتصرف يسير.

* وظلَّ أحفادُ أمِّ أيمن يُنْسَبون إلى وَلاءِ رسول الله ﷺ، وكان يُقال لهم: بنو الحبِّ.

* توفيت أمُّ أيمنَ - رضي الله عنها - بعد النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام بخمسةِ أشهر، وكان يوم وفاتها يوماً مشهوداً[1].

* * *

بشَـارتُـهَا بالجَـنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

* أمُّ أيمنَ الحبشية بقيةُ أهلِ بيت النَّبي الكريمِ ﷺ وإحدى النِّساء الفاضلات السَّابقات إلى الخير.

* وهذه الصَّحابية الكبيرةُ بقيةُ أهلِ بيت النَّبي الكريمِ ﷺ وإحدى النِّساء اللائي الفاضلات السَّابقات إلى الخير.

* وهذه الصَّحابية الكبيرةُ إحدى النَّماذج الطّيبة في عصر النُّبوة، وإحدى النِّساء اللائي تُوفي رسول الله وهو عنهن راضٍ.

* هذه المرأةُ الطّيبةُ المباركة مِنَ المهاجرات الأُوَل اللائي سلكن سُبُلَ الخير رغم صعوبة الطَّريق، فوصلنَ إلى ما يبتغين، وقد نالت أمُّ أيمنَ البشارة بالجنَّةِ بفضل نقاء سريرتها وطهارة قلبها، ولذلك فقد أتحفها رسولُ الله ﷺ بالبشارة العظمى - الجنَّة - وبشَّر مِنْ يتزوَّجها بالجنَّةِ أيضاً.

* روى خبر البشارة هذه فُضيل بن مرزوق عن سفيان بن عقبة قال: كانت

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٤٩)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣٦٣).

أمُّ أيمنَ تَلْطُف ـ تكرم وتبرّ ـ النَّبيَّ ﷺ وتقومُ عليه فقال: «مَنْ سرَّه أَنْ يتزوجَ امرأةً مِنْ أهلِ الجنَّةِ فليتزوجْ أمَّ أيمنَ»[1].

قال: فتزوّجها زيد بن حارثة، وزيد ـ رضي الله عنه ـ أحد سادات الصَّحابة وحبُّ رسول الله ومولاه، وأحد السَّابقين إلى الإسلام، فلمَّا سمع هذا الحديث مِنَ النَّبي الكريم سارع فتزوَّجها ، فولدتْ له أسامة ـ الحبُّ بنُ الحبِّ ـ وما أدراك ما الحبُّ بنُ الحبِّ! رضي الله عنهم أجمعين.

* هذه أمُّ أيمنَ بَرَكة، وحسبها من البَرَكةِ ما نالتْ مِنْ رسول الله من الإكرام والتّكريم، وحسبُها من هذا الجزاء الأوفى ما نالت مِنَ الله جزاءً هو الجنَّة إنْ شاء الله.

* وبعد، فهل منْ مزيد في سيرة هذه الصَّحابية العطرة المعطار؟ لا شك أنَّ هناك الكثير الكثير، ولكنّي أذكِّرُك أخي القارىء بأنَّ أمَّ أيمنَ قد روت عن النَّبي ﷺ خمسة أحاديث، وروى عنها سيِّدُنا أنس بن مالك، وحنش بن عبد الله الصَّنعاني، وأبو يزيد المدني[2].

* وأزيدُكَ ـ أخي القارىء أيضاً ـ بأنَّ أمَّ أيمنَ تُعرفُ بأمِّ الظِّباءِ[3]، ولا يخفى ما في هذه التّسمية مِنْ مديح.

* رحم الله أمَّ أيمنَ ورضي الله عنها وأرضاها، وقبل أَنْ نودّعَ سيرتها اللطيفـة نقـرأُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

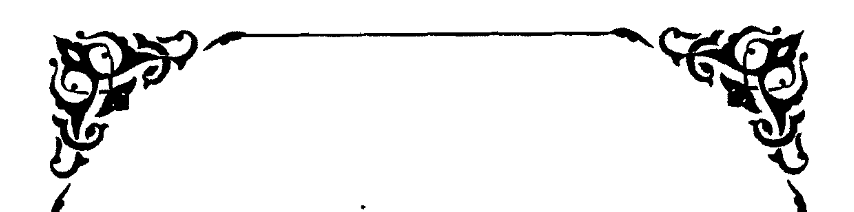
* * *

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٤)، والإصابة (٤/ ٤١٦)، وانظر أنساب الأشراف (١/ ٤٧٢).

(٢) انظر تهذيب التهذيب (٢/ ٤٥٩).

(٣) انظر الإصابة (٤/ ٤١٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٧٦٢).



(٧)

الـرُّبَـيِّعُ بنْتُ مُـعَـوِّذ

رضي الله عنها

«لا يَدْخُل النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرةِ»

حديث شريف

قال رسول الله ﷺ للربيع بنت معوذ ـ رضي الله عنها ـ: «اسْكُبي لِيْ وضُوْءاً».

البـدايـةُ الخَيِّـرةُ:

* الإيمان هبةٌ مِنَ الله سبحانه يمنُّ به على مَنْ يشاء من عباده، وقد شاء الله أَنْ يجعلَ الخيرَ في أهل المدينة المنوَّرة؛ الذين استجابوا لدعوة الإسلام، وتكوّنت منهم ومنَ المهاجرين جماعة خيِّرة، نمت نمواً طبيعيّاً سليماً على أساسٍ من التّقوى، كما تنمو الشَّجرة الباسقة الطّيبة ذات الأصل الثَّابتِ والجذر العميق.

* هذه الجماعة النَّادرةُ حفّتْها العناية الإلّهية، وعزّزتها بالصَّبر والإيمان لتحقيق مشيئةِ الله بها في الأرض، فكانت خيرَ أمة أُخرجت للنَّاس، تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر.

* في المدينة المنورة، وفي تلك المجموعة الفريدة السَّعيدة نشأتِ الصَّحابيةُ الجليلة الرُّبَيع بنتُ معوِّذ بن عفراء الأنصارية النَّجارية[1]، إحدى السَّابقات إلى الإسلام من نساء الأنصار الفاضلات، وإحدى النِّساء الشَّهيرات من ذوات الشَّأْنِ في الإسلام، ومن اللاتي ربَّاهن الإسلام تربيةً خيّرةً مباركة، فجادت بالعطاء الخيِّرِ، وشاركت في الجهاد وفي نشر العلم والفضائل وكل خير.

* * *

الشَّـجَـرةُ الطَّـيِّـبـةُ:

* الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ مِنَ الصَّحابيات اللائي عشْنَ في ظلِّ الإسلام، ونبتْن نباتاً حسناً من شجرة دانيةِ القطوف، مباركة الثَّمر، فأبوها معوِّذ بن عفراء من كبار أهل بدر الذين اطلّع الله إليهم فقال: «اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنَّة»[2].

---

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢/ ٤١٨).
(٢) رواه الإمام البخاري في المغازي (٥/ ٩٩) باب: فضل من شهد بدراً.

فلمّا كان يوم بدر كان لأولاد عفراءَ شأنٌ عظيمٌ، تركوا فيها أثراً مباركاً طيّباً، فقد خرج عُتبة بن ربيعة أبو الوليد بين أخيه شيبةَ وولده الوليد بن عتبة حتى فصل من صفِّ المشركينَ ودعا للمبارزة، فخرج إليه فتيةٌ مِنَ الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء وهم معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء، فقالوا: مَنْ أنتم؟.

قالوا: رهْطٌ مِنَ الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم حاجة.

فناداهم النَّبي الكريم ﷺ أَنِ ارجعوا إلى مصافكم وليقُمْ إليهم بنو عمِّهم، فخرج إليهم سيّدنا حمزة بن عبد المطلب، وعليُّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث رضوان الله عليهم، فنصرهم الله سبحانه وقُتل أئمةُ الكفر.

* وقد شارك معوِّذ بن عفراء في تحطيم رأس الكفر المتمثّل في شخصية فرعون الأمة أبي جهل بن هشام، ذكر ابن قدامة المقدسي أنَّ معوذاً شهد بدراً مع أخويه وقَتَلَ أبا جهل ثم قاتل حتى قُتلَ ـ رضي الله عنه[1] ـ.

* ولذلك ترحَّم النَّبيُّ ﷺ على ابني عفراءَ فقال: «رحمَ اللهُ ابني عفراءَ اشتركا في قَتْلِ فرعون هذه الأُمّة ورأس أئمة الكفر»فقيل: يا رسول الله مَنْ قتله معهما؟ قال: «الملائكةُ، وذفَّفه ابنُ مسعود»[2].

* ومما هو جدير بالذكر أنَّ معوذاً قد كسبَ شرفاً عظيماً قبل بَدْرٍ، إذ كان أحد السَّبعين ليلةَ العقبة مع أخويه مُعاذ وعوف[3]، وبنو عفراء هؤلاء ممن تركوا أثراً خيراً مباركاً في بدر، ومن تركوا حسرة في قلوب المشركين يومذاك، ومما يشير إلى ذلك ما قالته هند بنت عتبة حين أُصيب أهل بدر:

لــن يــزالَ المصـــابُ قلبـــي كئيبـــاً
مسعـــرَ الحـــربِ مـــن بنـــي عفـــراء

(١) الاستبصار (ص ٦٦).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٤٢٣ و ٤٢٤) وذففه: أجهز عليه، وانظر عيون الأثر(١/ ٣١٥).

(٣) انظر في هذا البداية والنهاية (٣/ ١١٦).

* أما زوج الرُّبيع فهو أحد كبار المهاجرين وهو إيَاس بن البكير الليثي، وقد ولدت له ابنه محمّد بن إيَاس.

* كانت الرُّبيعُ بنتُ معوذ ـ رضي الله عنها ـ تعتزُّ بهذا الشَّرفِ العظيم الذي حققته أسرتُها المعطاء في مطلع النُّور بالمدينة المنورة، وكانت من النِّساء اللائي حظينَ بمكارم كثيرة من النَّبي الكريم ﷺ، ويكفيها شرفاً وفخراً أنَّ رسولَ الله كان يزورها ويقبلُ هديتَها.

* * *

مِن مناقِبهـا:

* لهذه الصَّحابية الكريمة مناقبُ جمَّة بوأتْها مكاناً علياً بين نساء المسلمين، وعند نساء الأنصار بشكل خاص، ومنقبة ذكرتْها الرُّبيعُ جعلتها تعيشُ في عالم عُلْوي رائعٍ، ولم تكن هذه المنقبة إلا زيارة مباركة مِنَ النَّبي الكريم لهذه الصَّحابية حينَما تزوّجت، لذلك ظلّتْ تحمل في ذاكرتها طيفَ تلك الزِّيارة المعطار التي ظلت تشعرُ ببركتها إلى أَنْ لقيتْ ربَّها، وقد ذكر الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ خبر هذه الزِّيارة وسببها فقال: وقد زارها النَّبيُّ ﷺ صبيحةَ عرسِها صلةً لرحِمِها[1].

* أمّا قصة هذه الزِّيارة المباركة فقد تكفّل الإمامُ البخاري رحمه الله برواياتها في صحيحه، إذْ روى بسنده عن خالد بن ذكوان قال:

قالتِ الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ بن عفراءَ: جاء النَّبيُّ ﷺ فدخلَ عليَّ حين بُني عليَّ، فجلسَ على فراشي كمجلسكَ مني، فجعلتْ جُويرياتٌ لنا يضربنَ بالدُّفّ ويندبنَ مَنْ قُتِلَ من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غَدٍ، فقال: «دعي هذا وقولي بالذي كنتِ تقولين»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح (٧/ ٢٥)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٣)، والإصابة (٤/ ٢٩٣).

* ومما يفيد ذكره هنا أنَّ النَّبي الكريمَ ـ وهو المعلِّم المربِّي ـ قد أنكر على الجاريتين ما ذكرتاه من أنَّه ﷺ يعلمُ الغيب، لأنَّ عِلْمَ الغيب ممّا اختصَّ الله سبحانه وتعالى به نفسه، أمَّا ما كان يخبرُ به النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام من الغيوب، إنَّما هو بإعلام الله إياه، كما ذكر سبحانه ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦ ـ٢٧]، مِنْ هذا المنطلق نهى رسول الله الجارية عن مقولتها.

* * *

هَديَّةٌ وإكْرَام:

* الكرمُ صِفةٌ جميلةٌ في النَّاس، ومايبذله النَّاس إنْ هو إلا رصيد إيماني لهم يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، والأنصار ممنِ اتَّصفُوا بالجود والكرم، وكانوا يتحفون النَّبيَّ الكريم بالهدية، ويتحرَّوْن ما يحبُّه ﷺ لِيُدخلوا السُّرور إلى قلبهِ الشَّريف.

* وكانت الصَّحابية الكريمةُ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ تهدي إلى النَّبي الكريم ما يحبُّه منْ طعامٍ، فقد أخرج الطَّبرانيُّ عن الرُّبيعِ بنتِ معوّذ بنِ عفراء ـ رضي الله عنهما ـ قالت:

بعثني معوِّذُ بنُ عفراءَ بصاعٍ من رُطب عليه أَجْرٍ[1] من قثاء زُغْب إلى رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ يحبُّ القثَّاء، وكانت حِلْيَةٌ قد قدمت من البحرين، فملأَ يده منها فأعطانيها، وفي رواية: فأعطاني ملء كفي حلياً أو ذهباً، وزاد أحمد: فقال: «تحلَّيْ بهذا»[2].

* لقد قبل النَّبي الكريم مِنَ الرُّبيع هديتَها وعرف قدرها، ولكنّه أعطاها ما هو أفضل، فهو ﷺ أَجْوَد ولد آدم، يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة ـ الفقر ـ

---

(١) أجر: الصغير من كل شيء، والمقصود هنا صغار القثاء عليها الوبر الناعم الذي هو الزغب.

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ١٣)، والاستبصار (ص ٦٦).

وهذا ما جعل موسى بن هارون الحمّال يقول عن ضيفةِ حلقتنا ـ رضي الله عنها ـ: الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ بن عفراءَ قد صحبتِ النَّبيَّ ﷺ ولها قَدْرٌ عظيم[1].

* * *

عِلْمُهَا وفقْهُهَا:

* أسلمت الرُّبيعُ بنتُ معوذ ـ رضي الله عنها ـ وبايعت النَّبي ﷺ، ونهلت مِنَ المعين النَّبوي الصَّافي، وعرفت كثيراً من أحكام الإسلام عن كَثَب، فقد كان النَّبي الكريم ﷺ كثيراً ما يغشى بيتها ويتوضأُ ويصلي ويأكل عندها.

وكانتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ تشعرُ بالبركة في زيارة النَّبي الكريم لها، وكانت تتعلَّم منه أمور الدِّين وتتفقه بأحكامهِ؛ لذلك عرفَ الصَّحابةُ والمسلمون قدرها فأكبروها، وكان كبارُ الصّحابةِ ـ رضوان الله عليهم ـ يأتونَها فيسألونها عمّا شاهدته أو سمعته مِنْ رسولِ الله ﷺ.

* روي أنَّ سيِّدَنا عَبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أتاها فسألها عن وضوء رسول الله ﷺ[2]، فقد عُرفَ عن الرُّبيع ـ رضي الله عنها ـ أنَّها الصَّحابيةُ الرَّاويةُ لصفةِ وضوء النَّبي الكريم ﷺ، فقد أخرج الإمامُ أبو داود في سننه بسنده عن محمّد بن عقيل عن الرُّبيع بنتِ معوذ بن عفراء قالت:

كان رسول الله ﷺ يأتينا، فحدّثَتْنا أنّه قال: «اسكُبي لي وضوءاً» فذكرتْ وضوءَ رسول الله ﷺ، قالت فيه: فغسلَ كفَّيه ثلاثاً، ووضأَ وجهه ثلاثاً، ومضمضَ، واستنشق مرةً، ووضّأ يديه ثلاثاً ثلاثاً، ومسحَ برأسهِ مرتين يبدأُ بمؤخر رأسه ثمَّ بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضّأَ رجليه ثلاثاً ثلاثاً[3].

* وهكذا فقد رسمت الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ صورةً وضيئةً مباركة

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٠٢).
(٢) الاستبصار (ص ٦٦).
(٣) انظر سنن أبي داود (١/ ٢٠) باب: صفة وضوء النبي ﷺ.

لوضوءِ رسول الله ﷺ كأنَّك تراه، فنعْمَ الموصوف ونعْمَ الوصف!

* * *

لوْ رأَيْـتَـه:

* رزقَ الله سبحانه وتعالى الصَّحابيةَ الجليلةَ الرُّبيعَ بنتَ معوذَ عقلاً كبيراً صافياً، فكانتْ حافظةً لاقطةً متقنةً، وقد وصفت رسول الله ﷺ وصفاً جميلاً، ويدلُّ على هذا ما رواه أبو عبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر قال: قلتُ للرُّبيع بنت معوذ بن عفراء: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت: يا بُنيَّ لو رأَيْتَهُ لرأيتَ الشَّمسَ طالعةً[1].

* أعْظِمْ بهذا الوصف وأكرمْ به مِنْ موصوف! فقد أرادتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ أَنْ تصفَ رسول الله ﷺ بأفضل لفظٍ وأجمل صفة، فهو كالشَّمس يضيء كل شيء، بل هو ذو فضائل لا يمكن لبشر أَنْ يحصرَها في كلمات، كما أَنَّ صفاتَه لا يمكن أَنْ تُحصَر في جملة واحدة.

* رُوي عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّها وصفت رسول الله ﷺ فقالت: والله كان كما قال شاعرُه حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

متـى يَبْـدُ فـي الـداجـي البهيـم جبينُـه ... يَلُـحْ مثـل مصبـاح الـدُّجـى المتـوقِّـدِ

فمَنْ كان أَوْ من قد يكونُ كأَحمد ... نظـامٌ لحـقٍّ أو نكَـالٌ لِمُلْحِـدِ[2]

مشارَكتُـهَا فيْ الجِهَادِ:

* سارعتِ الصَّحابيةُ الجليلة الرُّبيع بنت معوذ إلى نُصرة الإسلام، وساهمت مساهمة فعَّالةً في ساحة الجهاد ضمن الحدود التي شرعها الإسلام

(١) انظر دلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٧٧٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩١٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٠٠).

(٢) انظر كتاب مِنح المدح لابن سيد الناس (ص ٧٢)، وانظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٣٨٠).

للمرأة، فقد كانتِ النّساءُ يخرجن مع النَّبي الكريم ﷺ لسقي المرضى ومداواة الجرحى، وكانت نساء الأنصار يخرجن مع رسول الله ﷺ لهذا الغرض النَّبيل، فقد أخرج الطَّبراني عن الصَّحابيةِ الكريمةِ أمّ سُلَيم بنت ملحان[1] ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: كانَ النَّبيُّ ﷺ يغزو معه نسوةٌ مِنَ الأنصار فيسقين المرضى ويداوين الجرحى.

* وهذا يتوافقُ مع ما أخرجه الإمامُ البُخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن خالد بن ذكوانَ عن الرُّبيعِ بنتِ معوِّذ ـ رضي الله عنهما ـ قالت: كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقي القومَ ونخدمُهم، ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة.

* ولما كانت بيعة الرّضوانِ في السَّنةِ السَّادسة مِنَ الهجرة، كانت الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ مِنَ اللاتي بايعنَ النَّبي الكريم ﷺ تحت الشَّجرة، فنالتِ الرِّضوان، وفازتْ مع مَنْ فازِ في هذه البيعة المباركة.

* * *

أَنَــا ابنَــةُ قَاتـلِ عَبْــده:

* في حياةِ الصَّحابيةِ الكريمة الرُّبيع بنت معوِّذٍ ـ رضوان الله عليها ـ، مواقف فيّاضة بالشَّجاعة والكرامة تشيرُ إلى عزَّتِها بالله، وتدلُّ على حبِّها الشَّديد للإسلام، وهذا الحبُّ يفوقُ كلَّ شيءٍ، فلا تَأْبَه بأحدٍ ما دام هذا يخالفُ الشَّريعة، وفي الموقف التَّالي الذي ترويه الرُّبيعُ نفسها وينقله عنها أصحاب السِّير والتَّراجم ما يبعثُ في النَّفس الإعجاب بهذه الصَّحابية التي استمتعَتْ في جوار النَّبي الكريم ﷺ بربيعِ دائمٍ مِنَ العلم، فأضحتْ علاقتُها بعيدةً عن عَرَضِ الدُّنيا ومتاعها، تقول القصَّة:

كانت أسماءُ بنت مخرِّبة تبيعُ العطرَ بالمدينة، وهي أمُّ عياش وعبد الله ابني أبي ربيعة المخزوميين، فدخلتْ أسماءُ هذه على الرُّبيّعِ بنتِ معوِّذ ومعها

---

(١) اقرأ سيرة الصحابية المباركة المعطاء أم سليم في هذا الكتاب.

عطرها في نسْوَةٍ فسأَلْنَها فانتسبت الرُّبيعُ، فقالت لها أسماءُ: أنتِ ابنةُ قاتلِ سيِّده ـ تعني أبا جهل ـ.

قالتِ الرُّبيعُ: بل أنا ابنةُ قاتلِ عبدَه.

قالت: حرامٌ عليَّ أَنْ أبيعَك من عطري شيئاً.

قلتُ ـ أي الربيع ـ: وحرامٌ أَنْ أشتريَ منه شيئاً، فما رأيتُ لعطرٍ نتناً غير عطرك، ثم قمتُ، وإنَّما قلتُ ذلك في عطرها لأغيظها[1].

* * *

لكَ كُـلُّ شَـيءٍ:

* الحياةُ الزَّوجيةُ لا تخلو مِنْ عواصفَ تهزُّها، ومتاعبَ وصعوباتٍ تحيطُ بها، فتتعسَّرُ المعيشة أحياناً بين الزَّوجين فيكون الفراقُ بالإحسان، وهذا ما حدثَ للرُّبيع ـ رضي الله عنها ـ مع زوجها إياسِ بنِ البكير، إذْ وجدتْ معه صعوبةً في الحياة، ولم تعُدْ تستطع متابعة الطَّريق معه، فلجأتْ إلى سيِّدنا عثمانَ بنِ عفانَ ـ رضي الله عنه ـ لحلِّ مشكلتها، ولنتركِ الحديثَ لصَاحبَة العَلاقةِ نفسها فتقول: كان بيني وبين ابن عمي كلامٌ ـ وهو زوجها ـ فقلتُ له: لكَ كلُّ شيء وفارِقْني.

قالَ: قد فعلتُ.

قالت: فأخذَ ـ والله ـ كلَّ شيء حتى فراشي.

فجئتُ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ فذكرتُ له ذلك ـ وقد حُصِر[2] ـ فقال: الشَّرطُ أَمْلَكُ، خُذْ كلَّ شيء لها حتى عقاص رأسها إن شئتَ[3].

---

(١) انظر هذه القصة بمعان واحدة في طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠٠ و ٣٠١)، والمغازي (١/ ٨٩)، والاستيعاب (٤/ ٣٠١ و ٣٠٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٩)، والاستبصار (ص ٦٧)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩١٠).

(٢) كان ذلك سنة (٣٥) هجرية.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٠) والإصابة (٤/ ٢٩٤) بلفظ قريب.

* وكان ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يسألُها عن قضاءِ سيِّدنا عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ حين اختَلَعَتْ مِنْ زوجها إياس.

* * *

الرَّاوِيَـةُ المُحدِّثَـةُ:

* الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ ـ رضي الله عنها ـ إحدى النِّساء اللائي كَتَبَ الله لهنَّ شرفَ الصُّحبة النَّبويةِ، وشرفَ الجهاد مع النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، وكانت إحدى راويات الحديث النَّبوي الشَّريف، إذ كانَت حافظةً واعيةً روتْ عن رسول الله ﷺ واحداً وعشرين حديثاً.

* روى عن الرُّبيعِ عَدَدٌ مِنْ أجلَّاء التَّابعينَ وعلمائهم منهم: عائشةُ بنتُ أنس بن مالك، وسليمانُ بن يسار، وخالد بن ذكوان، وعبدُ الله بن محمَّد بن عقيل، وأبو عُبيدة محمَّد بن عمَّار بن ياسر[1]، وروى لها البُخاري ومسلم واتفقا على حديث واحد، كما روى لها الجماعة.

* كانتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ مثالاً للمرأةِ المسلمة في علمِها وروايتها للحديث النَّبوي الشَّريفِ، وعَرَفَ المسلمون قَدْرها، وأكبروا علمَها، فكان عددٌ منَ الصَّحابة والتَّابعين يأتونها فيسألونها عمّا تعرفه مِنْ أحكامِ الشَّريعة، وقد روى عنها أهل المدينة لعِلْمِهِم بمكانتها عند رسول الله ﷺ، فمِنْ مروياتها ما رُوي في الصَّحيحين بسندٍ عن خالد بن ذكوان عن الرُّبيع بنتِ معوذ قالت: ـ اللفظ للبخاري ـ:

أرسلَ النَّبيُّ ﷺ غداةَ عاشوراءَ إلى قرى الأنصار: مَنْ أصبحَ مفطراً فليتمَّ بقيةَ يومهِ، ومَنْ أصبح صائماً فليصُمْ. قالت: فكنَّا نصومُه ونصوِّمُ صبيانَنا

---

(١) تهذيب التهذيب (١٢/٤١٨)، والاستيعاب (٤/٣٠٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/١٩٨).

ونجعلُ لهم اللعبةَ مِنَ العِهْنِ ـ الصُّوف ـ فإذا بكى أحدهم على الطَّعامِ أعطيناه ذاكَ حتى يكون عند الإفطار[1].

* وقد أُثِرَتْ عن الرُّبيع ـ رضي الله عنها ـ بعضُ الكرامات التي تدلُّ على فضلِها وفضلِ أبيها ـ رضي الله عنهما ـ، فقد كانت ورعةً تقيةً كثيرة التَّردُّدِ على أمِّ المؤمنينَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ، لتتزودَ مِنْ علمِها وفقهها وأدبها[2].

* وفي سنة (٤٥) مِنَ الهجرة النَّبوية الشَّريفة، توفيتِ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ في أيام سيِّدنا معاويةَ بن أبي سفيان بعد أَنْ عَمَّرتْ دهراً قضَتْه في الخير والعلم والجهاد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* * *

بشَارتُـهَـا بالجَنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٥].

* الصَّحابية الكريمةُ الرُّبيعُ بنتُ معوذُ ـ رضي الله عنها ـ، إحدى الصَّحابيات المباركات اللاتي سارعن إلى الإيمان بالله، وهي إحدى السَّابقات إلى ميدان الفضائل والمكارمِ، وكانت ممَّنْ شارك في البيعة تحت الشَّجرة. قال النَّووي ـ رحمه الله ـ وغيره من أصحاب التَّراجِم؛ عن الرَّبيع رضي الله عنها: وهي ممَنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ تحت الشَّجرة بيعة الرِّضوان[3].

* كانتِ البيعةُ المباركةُ تحتَ الشَّجرة بالحديبية، والشَّجرةُ سَمُرة، بايعَ

---

(١) صحيح الإمام البخاري (٣/ ٤٥ و ٤٦)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ٣٤٤).

(٢) انظر في كرامتها دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ١١٦).

(٣) انظر في هذا: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٣)، والإصابة (٤/ ٢٩٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩١٠)، والأعلام للزركلي (٣/ ٣٩).

المسلمونَ الله ورسوله على بيعِ أنفسهم بالجنَّةِ للزومهم النُّصرة[1]، والصَّبر والجهاد، وكانوا فيما رواه سيِّدُنا جابر بن عبد الله ألفاً وأربعمئة مِنَ المهاجرين والأنصار، وكلُّ واحدٍ منَ المبايعين يترقَّبُ يومَ الظَّفر، ويومَ الاستشهاد؛ بنفسٍ راضية وقلبٍ مطمئنٍ موصولٍ بالله سبحانه وتعالى.

* مع تلك المجموعة السَّعيدة المباركة، كانت بطلةُ ترجمتنا الرُّبيعُ عليها رضوان الله، وبايعتِ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ، واللهُ العليُّ القديرُ حاضرُ البيعة، ويده فوق أيديهم، وهذه الفئةُ المؤمنة سمعتْ بمرضاةِ الله تعالى حيث قال عز وجل: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

* كما أَنَّ جماعة المؤمنين هؤلاء، خصَّهم رسولُ الله ﷺ بالخيرية فقال: «أنتم اليومَ خيرُ أهلِ الأرض»[2]. أضفْ إلى ذلك كله أنَّ الله سبحانه قد وصفَ المؤمنين في التَّوراة والإنجيل، ووعدهم بالمغفرة والأجرِ العظيم، ومَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ حديثاً؟.

* وكانتِ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ ضمنَ المجموعة المؤمنةِ المبايعة بيعة الرِّضوان، فحظيتْ ببشارة رسول الله ﷺ بالجنَّة، روى سيِّدُنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا يدخل النَّار أحدٌ ممَنْ بايعَ تحت الشَّجرةِ»[3].

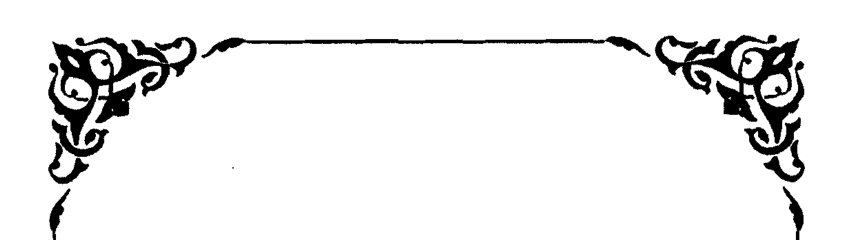
* وفي صحيح الإمام مسلم إشارة أخرى تبشِّرُ بالجنَّةِ البدريين والشَّجريين، فعن جابر بن عبد الله أنَّ عبداً لحاطب بن أبي بلتعةَ جاء يشكوه إلى رسول الله ﷺ ويقول: ليدخلنَّ حاطبٌ النَّارِ، فقال له الرسول ﷺ: «كذبتَ لا يدخلُها، شهد بدراً والحديبية»[4].

---

(١) انظر تفسير الماوردي (٤/ ٥٩) وما بعدها.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الحديبية.
(٣) أخرجه الإمام أحمد، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٢).
(٤) أخرجه الإمام مسلم (٧/ ١٦٩).

* وبعد؛ فهذه لمحاتٌ مِنْ سيرةٍ عطرةٍ لصحابية مباركةٍ صدقتْ ما عاهدت اللهَ عليه، رضي الله عن الرُّبيع بنت معوذ وعن أبيها وعن سائر الصَّحابة أجمعينَ، وفي الختام نقرأُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ـ ٥٥].

* * *



(٨)

سمَّيــةُ بنْتُ خُبَّـاط

رضي الله عنها

«صَبراً آلَ ياسِر فإنَّ مَوعدَكمُ الجنَّـةُ»

حديث شريف

«. . . اللهمَّ لا تُعذِّبْ أَحَداً مِنْ آلِ ياسِرَ بالنَّارِ»

حديث شريف

الأُسَرةُ الياسِريّةُ:

* هذه الأسرة العظيمة جمعتْ كلَّ فضائل الصَّبرِ والجهاد، وفاحت فضائلُها بالطِّيب، فكانت مضربَ المثل في صدْقِ الإيمان، والوفاء بعهد الله.

* تأتي هذه الأسرةُ المباركة مِنْ أماكنَ متفرقة؛ ولكنها تجتمع في مكةَ البلد الأمين الذي كان مطلع النُّور منه، ومن هناك بدأتِ الأسرة الياسريةُ بالتَّكْوين.

* يعود أصل ربِّ الأسرةِ هذه، وهو ياسر بن عامر بن مالك إلى اليمن، قدم إلى مكةَ يطلبُ أخاً له وبصحبته أخواه، الحارث ومالك ابنا عامر، فرجع أخواه إلى اليمن، وأقام ياسر في مكةَ حيث استعذبَ المقام فيها، وهناك حالفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، ثم زوَّجه أبو حذيفة أَمَةً اسمُها سُميَّة بنت خُبّاط فولدت له عمّاراً، فأعتقه أبو حذيفة[1]؛ ولمْ يزلْ ياسر وعمار مع أبي حذيفة إلى أَنْ مات.

* كان لعمار أخوان آخران هما: عبد الله وحُريث، وقد قُتِلَ حريثٌ في الجاهلية. من هنا تكوّنت هذه الأسرة التي حفلتْ بالتَّضحية وألوان الجهاد المعطار، وخطَّتْ أحرفاً منْ نور في مطلعِ فَجْرِ الإسلام ما زالت تشعُّ بالنُّور إلى يومنا هذا، وتفيض بالبركة إلى آخر الدَّهرِ.

* * *

السَّابقُون الأوَّلُونَ:

* ما إنْ أشرقت مكة بنور الإسلام، حتى سارعت الأسرة الياسريّةُ بأركانها إلى الإيمان بالله، وإلى تصديق النَّبي الكريم ﷺ، وساعةَ أعلنتِ الأسرةُ المباركة إسلامها سجّلَها التَّاريخ وشهد لها بالخلود والبقاء في الضّمائر والقلوب.

---

(١) انظر السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٩٢)، وأنساب الأشراف (١/ ١٥٧).

* كانت ـ بطلةُ ترجمتنا ـ سميّةُ بنتُ خبّاط[1] أَمَةً لا يتعدى شأنُها إلا القيام على خدمة سيِّدها أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي؛ بل لم يكن لها مِنْ ذكرٍ في مكةَ كلِّها، فقد كانت امرأة كبيرة طاعنة في السِّنِّ، غير أنَّ عقلها يرشح بالصَّفاء، وقلبها ينبض بالتَّوقد والنَّشاط.

* أسلمت سميةُ وصدَّقت بالنَّبي ﷺ، واهتدت إلى سواء السَّبيل، فنالتِ الكرامة والخلود، وكانت كما قال عنها الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ: من كبارِ الصَّحابيات[2].

* وقُيِّدتْ سميةُ في سجل الخالدين، فإذا ما ذُكِرَ الأوائلُ في الصَّبر والجهاد ذُكرتِ الصَّحابية الجليلة سميّة، وإذا ذُكرَ الشَّهداء جاءت في القائمة الأولى يلمعُ اسمها في أولِ الأسماء، ينضح بالطّيب، ويذكِّرُ بالصَّبر، ويشير إلى الخلود.

* * *

سابعَـةُ سَبْـعَـة:

* من الطَّريف في حياة هذه الصَّحابية الصَّابرة إيمانُها المبكِّر، فقد كانت ـ رضي الله عنها ـ من الرَّعيلِ الأولِ ممَن دخل الإيمان في قلوبهم، ولاشك أنَّ إيمانَها العميق بالله جعلها رائدةَ الصَّابراتِ الصَّامدات في مطلع النُّور، بل هي أول امرأة أظهرت إسلامها[3]، وكانت سابعة سبعة في الإسلام[4]، ذكر الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيّم «سير أعلام النُّبلاء» الأرقام الأولى

---

(١) ذكرت في بعض المصادر بالياء ـ خياط ـ.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٦).
(٣) هذا لا ينافي أن خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أول الناس إيماناً برسول الله ﷺ.
(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠١٣).

للمؤمنين وجاءت سميةُ ـ رضوان الله عليها ـ في تعدادها، روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا فقال:

أولُ مَنْ أظهر إسلامه سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار؛ وأمه سميّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّهِ، وأمَّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأمّا سائرُهم، فألبسَهُم المشركون أَدْراع الحديد وصفَّدوهم في الشَّمس، وما فيهم أَحَدٌ إلا وقد واتاهم ـ وافقهم ـ على ما أرادوا إلا بلال، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان يطوفون به في شعاب مكةَ وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد[1].

* وهنا بدأت رحلة العذاب مع هذه العُصْبة التي آمنت بربِّها فزادها هدىً وربط على قلبها إذ قامت فقالت: ربُّنا ربُّ السَّمواتِ والأرض، وكان في مقدمة الأسرة سُميّة ـ رضي الله عنها ـ، فقد اشتدَّ الغيظُ بقريش، فلم يجدوا متنفساً لغيظهم إلا أَنْ يثوروا على الضُّعفاء الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا واتَّبعوا رسولَ الله محمداً ﷺ، وشجَّعهم على ذلك أنَّ هؤلاء ليس لهم مَنْ يمنعهم أو يحميهم، فافتنُّوا في عذابهم أفانين تدلُّ على ما كان في صدورهم من حقْدٍ وغيظ على دعوة الإسلام، فأشبعوا رغباتهم المجنونة بعذاب سميّة وأسرتها. ذكر ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في كتابه «أُسْد الغابة» ما كانت تلاقيه من التَّعذيب فقال: وكانت من السَّابقين إلى الإسلام...... وكانت ممن يُعذَّبُ في الله أشدَّ العذاب.

* * *

الأُسْـرةُ الصَّابِـرَةُ:

* لايستطيعُ الإنسان إلا أَنْ يقفَ وقفةَ إعجابٍ أمام الأسرة الياسرية، هذه الأسرة الكريمة التي يُسِّرَتْ لليسرى، فأثارتَ عظماء مكة وكبراءها،

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٨ و ٤٠٩)، وانظر كذلك البداية والنهاية (٥/ ٥٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٨١ و٢٨٢).

وأخرجتْ حلماءَها عن طورِهم، بل كادوا يتميّزون من الغيظ كلَّما رأَوْا أفراد الأسرة جميعاً راسخين مطمئنين، لا يخيفهم عذاب، ولا يردُّهم عن عقيدتهم نَصَبٌ ولا رمضاء ولا عطش، ويثير موقف الأسرة هذه إعجاب المشركين أنفسهم بقَدْرِ ما يثير دهشتهم ويزيدُ من حيرتهم وغيظهم، فكانوا يُخرجون عمّاراً وأباه وأمَّه إلى الفضاء إذا حَمِيتِ الرمضاء؛ ليرتدّوا عن دينهم، ولكنَّ الأسرة الصَّابرة تزدادُ صلابةً وتزداد إيماناً وتسليماً وخصوصاً حينما سمعتْ دعاءَ نبيِّ الله ﷺ للأسرة كلِّها بالمغفرة، يروي هذا سالم بن أبي الجعد قال:

دعا عثمانُ ناساً من أصحاب النَّبي ﷺ فيهم عمّار بن ياسر، فقال عثمان: أَمَا إِنِّي سأحدثُكم حديثاً عن عمار، أقبلتُ أنا والنَّبي ﷺ في البطحاء حتى أتينا على عمار وأمِّه وأبيه وهم يُعذَّبون فقال ياسر للنَّبي ﷺ: الدَّهر هكذا؟! فقال له النَّبي ﷺ: «اصبر»، ثم قال: «اللهم اغفرْ لآل ياسرَ وقد فَعَلْتَ»[1].

* * *

سُمَيّةُ تتحَـدَّى:

* واصلتْ قريشٌ رحلةَ العذاب لسميةَ وزوجها وابنها، بينما واصلتِ الأسرة الياسريّة الطيّبة رحلةَ الصَّبر والثبات وخاصة سمية ـ رضي الله عنها ـ التي قويت عقيدتها بعد موت زوجها ياسر تحتَ العذاب، عندها بدأت تتحدى وتجابه بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، وفي مقدمتهم ـ أبو جهل ـ الذي غدا كالمسعور من مجابهةِ سمية له بسخرية، وكانت ـ رضي الله عنها ـ قد حطَّمت كبرياءه وصلفه بصبرها وثباتها، وفَطَرتْ قلبَه بعدم ذكرها رسول الله ﷺ بسوء ولو بكلمة واحدة.

* وكان أبو جهل ـ أخزاه الله ـ لا يترك وسيلةً في الصَّدِّ عن سبيل الله إلا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) بلفظ قريب جداً، وانظر طبقات ابن سعد(٣/ ٢٤٨).

واتّبعها، ولا يجدُ طريقاً فيه تضييقٌ على المؤمنين إلا وسلكه، ذكر ابن إسحاق صورة حيّة عن هذا فقال:

وكان أبو جهل الفاسق ـ الذي يغري بهم في رجال من قريش ـ إنْ سمع برجلٍ قد أسلَمَ له شرفٌ ومنعة، أنَّبه وخزّاه وقال: تركتَ دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنَّ حلمكَ، ولنفلين رأيك، ولنضعنَّ شرفكَ. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به، لعنه الله وقبّحه[1].

* وظلتِ الصَّحابية الكريمة سميّة ـ رضي الله عنها ـ تتحمّل العذاب، وتصبرُ على أذى أبي جهل صَبْرَ الأبطال، فلم تصبأ، ولم تهُنْ عزيمتها أو يضعف إيمانها الذي رفعها إلى مستوى الخالدات من النِّساء، بل الأوليات في لائحة الصَّابرات.

* * *

أولُ شَهيـدَة:

* كما كانت سمية ـ رضي الله عنها ـ أول امرأةٍ أظهرت إسلامها، كذلك كانت أول شهيدة قدَّمت نفسها في سبيل الله، فكانت شهيدة الحقِّ، علّمتِ الأجيالَ حقيقةَ الصَّبر، وفي قصة استشهادها عبرة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وذلك لما مات زوجها ياسر في العذاب، أُعطيت سميّة ـ رضي الله عنها ـ لأبي جهل الفاسق، أعطاها له عمُّه أبو حذيفة بن المغيرة، وصار الخبيثُ يتفنَّن في إيذائها، وإيذاءِ رسول الله ﷺ بالكلام والشّتيمة وما شابه ذلك، وذات عشي أغلظ لها بالكلام ثم قال لها: ما آمنت بمحمّدٍ إلا لأنّك عشقتيه لجماله، فما كان جوابها إلا أنْ أغلظت له بالقول فأغضبته، ولم يكن من جبروته وغيّه إلا أنْ طعنَها بحربةٍ فماتت شهيدة[2]، وصعدت

---

(١) عن البداية والنهاية (٥/ ٥٩).

(٢) عن أنساب الأشراف (١/ ١٥٨)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٣) بتصرف يسير.

روحها إلى بارئها راضيةً مرضية وهي تشهد أَنْ لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

* قال مجاهدٌ ـ رحمه الله ـ: أول شهيدة كانت في أولِ الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بحربةٍ في قلبها[١].

* وكان استشهاد سمية ـ رضي الله عنها ـ في السَّنة السَّابعةِ قبل الهجرة التي توافق سنة (٦١٥) من الميلاد.

* قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: هي أول شهيدة في الإسلام[٢]، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

ابنُ سُميَّـةَ:

* سميةُ، هذا الاسم وهذه الصحابية التي بقيتْ ذِكْراها حيّةً عطرةً بعد أَنْ نالت الشَّهادة وفازت بمرضاة الله، فقد كان النَّبي الكريم ﷺ يقول لابنها عمار: «ابن سمية»، ولا يخفى ما في هذه التَّسمية المباركة من تكريم لهذه الصَّحابية المباركةِ الخيّرة الصّابرة، وكثيراً ما كان يَرِدُ ابن سمية على لسان رسول الله ﷺ، روى سيِّدُنا عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلفَ النَّاسُ كان ابنُ سميّةَ مع الحق»[٣].

* وفي موضعٍ آخر يَرِدُ اسم سمية على لسان النّبي الكريم ﷺ، والحديث يرويه عبد الله بن مسعود أيضاً حيث يقول: سمعتُ النَّبي ﷺ يقول: « ماخُيِّرَ ابنُ سمية بين أمرين إلا اختار أيسرهما»[٤].

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٥٩).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ٦٠) وانظر أنساب الأشراف (١/ ١٥٨).
(٣) انظر قصة الحديث في سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٥ و ٤١٦)، وانظر كذلك تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٥٧٥).
(٤) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٩)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٦).

* وفي حديث آخر يرشح بالبركةِ يرويه سيّدنا أبو سعيد الخدري أَنَّ رسول الله ﷺ خاطبَ عماراً بقوله: «يا بن سمية»، وذلك عند بناء مسجد رسول الله ﷺ في المدينة فقال له: «ويحك يا بن سمية تقتُلُك الفئةُ الباغية»[1].

* وكان رسول الله ﷺ يذكر سميّة بالفضل والخير، فلما كان يوم بدر ـ وما أدراك ما يوم بدر ـ زفَّ النَّبي ﷺ بشارةً طيّبة للطَّيب المطيَّب[2] جاء فيها ذِكْرُ سمية، وذلك لما قُتِلَ عدو الله ـ أبو جهل ـ يوم بدر، فقال النبي ﷺ لعمار: «قَتَل الله قاتلَ أمّك»[3].

* ومن الجدير بالذّكر في هذا المقام أَنْ نشيرَ إلى أنَّ رسول الله ﷺ قد دعا لسمية وأسرتها دعاءً مباركاً، عندما جاءه عمار يشكو ما تلاقي أمّه، وما يلاقي هو ووالده من شدَّةِ عذاب مشركي قريش ومن قسوتهم وظلمهم، فقال له: يا رسول الله، بلغ منّا ـ أو بلغ منها ـ يريد سمية ـ العذاب كلّ مبلغ، فقال رسول الله ﷺ: «صبراً أبا اليقظان ـ كنية عمار ـ اللهمّ لا تعذِّب أحداً من آل ياسر بالنَّار»[4].

* * *

بشَارَتُـهَـا بالجَنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الفتن برقم (٢٩١٥)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٢)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٥٧٧).

(٢) لقب سيدنا عمار حيث كان رسول الله ﷺ يقول له: «مرحباً بالطيب المطيب»، رواه الترمذي.

(٣) الإصابة (٤/ ٣٢٧)، وطبقات ابن سعد.

(٤) انظر الاستيعاب (٤/ ٣٢٥)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٤).

﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

* تُعَدُّ سميّة بنت خُبّاط ـ رضوان الله عليها ـ في طليعة المؤمنات الصّادقات السَّابقاتِ إلى الإسلام، ومنَ المسارعات إلى الوفاء بعهد الله، والصِّدق على ما عاهدتِ الله عليه، فنالتِ السَّبق وفازت بالبشارة العظمى ـ الجنّة ـ ونعمَتِ البُشرى، وإليك نصّ حديث البشارة، فعن سالم بن أبي الجعد عن عثمان قال رسول الله ﷺ: «صَبْراً آل ياسر فإنَّ موعدَكم الجنّة»[1].

* وذكر الإمام نور الدّين الهيثمي بشارة الأسرة الياسرية بلفظٍ قريب على النّحو التّالي: عن عثمانَ بن عفان قال: سمعتُ النّبي ﷺ يقول لأبي عمّار وأمِّ عمار وعمار: «اصبروا آلَ ياسر موعدُكمُ الجنّة»[2].

* وفي الطَّبقات الكبرى يذكر ابن سعد بشارة سمية وآل عمار بالجنّة، فروى أَنَّ النّبيَّ ﷺ مَرَّ بآل عمار وهم يُعذبون فقال: «أبشروا آل عمار فإنَّ موعدكم الجنة»[3].

* وبعد، فهذه هي الصَّحابية الصَّابرة سميّة بنتُ خبّاط ـ رضي الله عنها ـ، فقد سجَّلها التَّاريخ وسجَّل جهادها وثباتها على الحقِّ، فكانت في طليعة الأوائلِ، وقد امتدح ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ سمية وذكر ثباتها وصبرها فقال: كانت سمية ممَن عُذِّبتْ في الله وصبرت على الأذى في ذات الله، وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات رحمها الله[4].

* رضي الله عن سميّة أمِّ عمار، أول شهيدة في الإسلام وأمّ أول مَنْ بنى

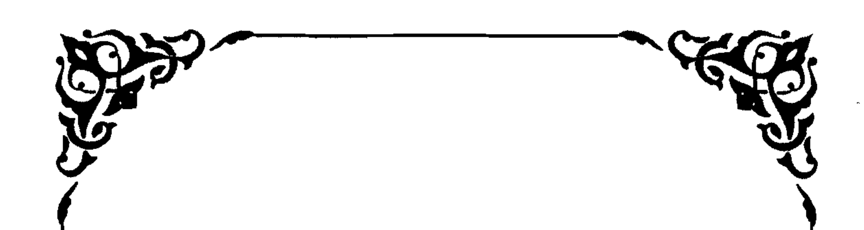
---

(١) انظر الحديث وتخريجه في سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٩ و ٤١٠).
(٢) مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣).
(٣) انظر طبقات ابن سعد(٣/ ٢٤٩)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٥٧٢).
(٤) الاستيعاب (٤/ ٣٢٤).

مسجداً يُصلى فيه[1]، وسلامٌ على الأسرةِ الياسرية، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعمَ عُقبى الدّار، ومع وداع سيرة الصَّحابية الخيّرة سمية، نعطّر الأسماعَ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: إن عماراً أول من بنى مسجداً يصلى فيه. انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٤١١)، وانظر المجتبى لابن الجوزي (ص١٣٧).



(٩)

كبشَــةُ بنــتُ رافــع
رضي الله عنها

«يا أمّ سَعد أَبْشِري وبَشِّري أَهليهم أنَّ قَتْلاهُم قد تَرافقوا في الجنَّـةِ جميعاً وقَد شُفِّعُوا في أَهليْهِم»

حديث شريف

«كلُّ باكيةٍ تكْذِبُ إلا أُمّ سَعْدٍ»   حديث شريف



أمُّ الأبطال:

* صاحبةُ هذه السِّيرة العطرة، واحدةٌ مِنَ المسلمات المجاهدات اللاتي رافقن الرِّسالة النَّبوية الشَّريفة، منذ أنْ أشرقت أنوارها في المدينة المنورة.

* وهذه الصَّحابية الجليلة قامتْ بخدماتٍ عظيمة، وأدَّتْ واجبات مباركة نحو الإسلام والمسلمين، ففي بيتها ترعرعت نواةُ الإسلام، ومن ثنايا دارها فاحت روائح الطيب في المدينة المنورة كلها، فانتشر فيها الإسلام، فكانت بركة وخيراً على الدُّنيا كلِّها.

* وضيفةُ هذه الصَّفحات مِنَ النِّساء الفاضلات اللاتي قدّمن الخيرَ في جميع المجالات، وهي واحدة ممَّنْ شهد لها رسول الله ﷺ بالصِّدق، ودعا لها بالبركة و الأجر.

* نعم، ففي مناخ الإيمان العطِر، نشأت هذه الصَّحابية ونهلت من معين الإسلام الصَّافي، فأعطتِ الكثيرَ، وكانت أمّاً لشهيدين عظيمين، وبطلين مباركين مِنْ أبطال الإسلام.

* فهي أمُّ مَنْ اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموته.

* وأمُّ مَنْ حكم بحكم الله من فوقِ سبعة أرقعة ـ سموات ـ.

* أتريدُ مزيداً عن كرامة هذه الصَّحابية؟.

* فابنها حارسُ رسول الله ﷺ في يوم بدر، وحامل راية الأنصار أيضاً، وواحدٌ مِنْ مجلس شورى الرَّسول ﷺ يومذاك.

* وابنها هذا الصِّديق الثَّاني بعد سيِّدنا أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

* ثم هو خليفةُ رسول الله على المدينة في غزوة بواط.

* لا شكَّ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّك في شوق لمعرفةِ هذه الصَّحابية الكبيرة؛ إنَّها إحدى نساء الأنصار المباركات وهي: كبشة بنتُ رافع بن

معاوية بن عبيد بن الأبجر الأنصارية الخدرية أم سعد بن معاذ الأشهلي[1].

* كانت زوجة لمعاذ بن النّعمان من بني عبد الأشهل، وقد ولدت له سعد بن معاذ وعمرو بن معاذ وإياساً وأوساً وعقرب وأمّ حزام.

* أسلمت كبشة وبايعت رسول الله ﷺ، وكان لها كبيرُ الأثر في تاريخ نساء الإسلام، وقد أَثْرتِ التّاريخ بمواقفَ رائعة جعلتها من الأوائل في عالم نساء الصّحابة، فما أن سطعت شمس الهداية، وأشرقت المدينة بنور الإسلام، حتى سارعت أم سعد لتساهم بدورها في نصرة الإسلام بكل ما تستطيع إليه من سبيل.

* * *

إسلامُهــا:

*ها هي المدينة تستضيف شاباً وسيماً من مكةَ هو مُصعبُ بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، سفير رسول الله ﷺ إلى المدينة، ليعلِّمَ أهلها القرآن، وليفقههم في أمور الدِّين، وبدأ مُصعب ـ رضي الله عنه ـ يقوم بسفارته أحسن قيام، وبدأ الإسلام يفشو في دور الأنصار حتى وصلت دعوة الإسلام إلى دار بني عبد الأشهل، وأسلم سيّدا الأوس أُسَيد بن الحضير وسعد بن معاذ[2]، ولقصة إسلامهما حادثة طريفة رُويت في كُتُب التّراجم والسِّير[3]، وعندما أسلم سيّد الأوسِ سعد بن معاذ وقف أمام قومه بني عبد الأشهل وقال لهم:

يابني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟.

قالوا: سيُّدنا وأفضلُنا.

قال: فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد(٨/ ٣٧)، والاستيعاب (٤/ ٣٨٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٣٠)، وانظر كذلك الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (ص ١٢٩).

(٢) انظر سيرة سيدنا سعد بن معاذ في كتابنا«رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول. طبعة دار ابن كثير.

(٣) انظر مثلاً: البداية والنهاية (٣/ ١٥٢ و ١٥٣)، والاستبصار (ص٢٠٦ و ٢٠٧).

فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة[1].

* وسارعت أمُّ سعد إلى إعلان إسلامها، وسعدت بنعمةِ الإيمان سعادةً عظيمة، بل ازدادت سعادة عندما أضحتْ دارُهَا مقرّاً ومكاناً لسفير رسول الله ﷺ، ومنها انبعثت نسماتُ الإيمان تعطر أرجاء المدينة والدّنيا كلّها.

* وذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنَّ أول دار أسلمت من دور الأنصار دار بني عبد الأشهل[2]. فأكْرمْ بهذه الدّار مِنْ دار!

* ومنذ ذلك اليوم المبارك أضحت أمُّ سعد واحدةً مِنْ أعلام النّساء المسلمات اللائي تركن لَمَساتٍ بارزة في التّاريخ.

* ومن الجدير بالذّكر في هذا المقام أَنَّ أختيِ أمّ سعد بن معاذ، قد أسلمتا وبايعتا رسول الله ﷺ وهما: الفريعةُ أو الفارعةُ بنت رافع، وسعاد بنت رافع وهي أمّ أسعد بن زرارة أحد النُّقباء الأخيار وهو ابن خالة سعد بن معاذ رضي الله عنهم جميعاً.

* * *

الفرحَـــةُ الكُبــرى:

* ها هي المدينة تتلقى الإسلام والدَّعوة المحمدية بقلوب متفتّحة الإيمان، ونفوس راغبة في الخير، وها هم أهلُها مِنَ الأوس والخزرج يستقبلون رسول الله ﷺ في ديارهم الطَّيبة حيث المنعة والقوة والثَّروة، وكـانت أمُّ سعـد بن معاذ من أوائل النِّساء اللاتي خرجن لاستقبال النّبي الكريم ﷺ.

* روى سيّدنا أنس بن مالك حُسْنَ استقبالِ الأنصار للنّبي الكريم فقال: رأى النّبي ﷺ النّساء والصّبيان مقبلين، فقام النَّبي ﷺ مُمْثِلاً فقال: «اللهم أنتم

---

(١) انظر في هذا البداية والنهاية (٣/ ١٥٣)، وانظر السيرة الحلبية (٢/ ١٧١).

(٢) انظر صفة الصفوة (١/ ٤٥٥).

مِنْ أحبِّ الناس إليّ» قالها ثلاث مرات[١].

* وكم تمنّت أمُّ سعد لو ينزلُ النّبي الكريم في دارها كما نزل سفيره، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد اختار للنّبي دار بني مالك بن النّجار، وقد خصَّ رسولُ الله ﷺ بني الأشهل والأنصار كلهم بالخير والبركة فقال:

«خيرُ دور الأنصار بنو النّجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير»[٢].

* وبدأ الخيرُ يفيض من النِّساء الأنصاريات، وكانت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ مِنَ السَّابقات في مضمار الخير، فقد ذكر ابن سعد منقبة رائعة لأمِّ سعد فقال: أولُ مَنْ بايع النَّبي ﷺ أمُّ سعد بن معاذ كبشة بنت رافع بن عبيد، وأمُّ عامر بنت يزيد بن السَّكن، وحواء بنت يزيد بن السَّكن[٣]. . . .

* وهكذا فقد سجَّل التَّاريخ مكرمة السَّبْقِ إلى المبايعة لرسول الله، وكانت أمُّ سعد الأولى في هذا المجال.

* * *

الأم المؤمنة الخيرة:

* إنَّ شمائلَ هذه الصَّحابية الجليلة، لا يمكن أَنْ تُحْصَر في بضع صفحات، ولكنا نستطيع أَنْ نقتطفَ بعض المكارم والفضائل التي كانت تتحلّى بها، كالشَّجاعة، والصِّدق والخير وحفْظِ الجوار، وكانت أمُّ سعد ـ رضوان الله عليها ـ بالإضافة إلى تلك الصِّفات المباركة؛ ذات مواقف إيمانية تشير إلى مكانة النّبي الكريم في نفسها.

* وقد سجّلتْ لها كُتُب التَّراجم والسِّير بعض الوقفات الإيمانية الفيّاضة

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٠٠). «ممثلاً»: مَثُل الرجل مثولاً: إذا انتصب قائماً.
(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم، وانظر البداية والنهاية (٣/ ٢٠٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢).

بالشّجاعة والصّبر، وإلدّفاع عن النّبي الكريم، وتقديم الأبناء شهداء في سبيل الله سبحانه وتعالى.

* ففي غزوة بدر، خرج ولداها سعد بن معاذ، وأخوه عمرو بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ، وجاهدا في الله حقَّ جهاده، وأبلى كل واحد منهما بلاءً حسناً، وعادا مع المسلمين إلى المدينة يحملون بشائر النَّصر، وفرحتِ الأمُّ المؤمنة بنصرِ الله.

* أمّا في غزوة أحد، فقد خرجت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ خرج من النِّساء ينظرنَ إلى سلامةِ رسول الله ﷺ بعد أَنْ وردتِ الأخبار إلى المدينة باستشهاد عدد من المسلمين، وكان مِنْ بين الشّهداء ابنها عمرو بن معاذ[1]، ولكنَّ الأمَّ الخيرةَ كانت ترجو سلامة رسول الله ﷺ، وأقبلتْ مسرعة نحو أرض المعركة، ولما رأت رسول الله سالماً حمدت الله وقالت: أما إذْ رأيتُك سالماً فقد أشوتِ ـ هانت ـ المصيبة. فعزَّاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو.

* وكان عمرو بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ يجالدُ في صفوف المشركين حتى لقيه ضرار بن الخطاب[2] ـ وكان يومذاك ما يزال على شركه ـ فقتله.

* ومن الجدير بالذّكر أنَّه قد استشهد من بني عبد الأشهل اثنا عشر رجلاً، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فحظوا برضوانه ونعيمه، كما كان فيهم ثلاثون جريحاً.

---

(١) انظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢٨).

(٢) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي الفهري، كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين، حتى قالوا: ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم، وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق. كان ضرار بن الخطاب من مسلمة الفتح، وقال ضرار يوماً لسيدنا أبي بكر الصديق: لقريش خيراً منكم أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار. ولضرار أخبار لطيفة وجميلة، وقد ذكر أنه قُتِل باليمامة شهيداً ـ رضي الله عنه ـ. عن الاستيعاب والإصابة بتصرف.

* وأقبل رسولُ الله ﷺ حتى طلع على بني عبد الأشهل، وكانوا يبكون على قتلاهم، فقال ﷺ: «لكنَّ حمزةَ لا بواكي له»، ولما سمع سيّدنا سعد بن معاذ مقالة رسول الله عن عمِّه حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، مضى إلى بيته ثم رجع إلى نسائه وساقهنَّ إلى بيتِ رسول الله ﷺ ليبكين حمزة، ولم تبقَ امرأةٌ إلا جاء بها إلى بيت النّبي الكريم، وكانت أمُّه كبشة مع اللواتي أتينَ يبكين عم رسول الله طلباً لمرضاة الله ومرضاةِ رسوله. ولما سمع عليه الصَّلاة والسَّلام البكاء قال: «ما هذا»؟.

فقيل له: نساء النصار يبكين على حمزةَ.

وهنا قال رسول الله ﷺ: «رضي اللهُ عنكنَّ وعَنْ أولادكن».

* وأمر النِّساء أَنْ يرجعن إلى المنازل، وكان سرور أمِّ سعد عظيماً بقدرِ ما كان حزنُها عظيماً عندما سمعت رضاء رسول الله عليها وعلى النّساء اللائي شاركْنَها البكاء.

* وتروي لنا أمّ سعد نفسها خبر عودة النّساء بعد أَنْ أمرهن رسولُ الله بذلك فقالت: فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل، معنا رجالنا فما بكتْ منا امرأة قطّ إلا بدأت بحمزةَ إلى يومنا هذا[1].

* أكرمْ بها، وأعظمْ بموقفها ومواقف نساء الأنصار اللاتي دعا لهن رسول الله ﷺ بالرّحمة والخير فقال: «ارجعنَّ رحمكنَ الله، لقد واسيتُن معي، رحم الله الأنصار؛ فإنَّ المواساةَ فيهم كما علمتُ قديمة».

* * *

الصَّابرةُ الصَّادقَـةُ:

* هذه الصَّحابيةُ الجليلة، حصلتْ على شهادة عالية في الصِّدقِ موقَّعة مِنْ رسول الله ﷺ، وهذه الشَّهادة ذات الرّحيق المختوم قد رفعتْها مكاناً علياً في

---

(١) عن المغازي للواقدي (١/ ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦) بتصرف يسير.

مقام الصَّبر والجهاد، ولكنْ كيف حظيت أم سعد بهذه الشّهادة الفريدة؟ في السّطور التّالية نتعرف نبأ ذلك.

* ذكر الإمام شمس الدّين الذّهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه النّفيس «تاريخ الإسلام»، وذكر البيهقي كذلك في كتابه المبارك «دلائل النّبوة» أنَّ عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكانت أمُّ سعد بن معاذ معها في الحصن، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، وقد رفعوا الذّراري والنّساء في الحصون مخافة العدو عليهم، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فمرَّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلّصة ـ قصيرة ـ قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربةٌ يرفل ـ يتبخر ـ بها، وهو يرتجز بيتاً من الشِّعر لحَمَلِ بنِ سعدانة الكلبي ويقول:

لبّــثْ قليــلاً يشهــدِ الهيجــا حمَــلْ

لا بــأس بــالمــوتِ إذا حــانَ الأَجَــلْ

فقالت أمُّ سعد: الحقْ يا بني فقد والله أخرت. وقد أرادت ـ رضي الله عنها ـ ألاَّ تفوته لحظةً دون أنْ يحظى بمعية رسولِ الله ﷺ.

* فقالت عائشةُ ـ رضوان الله عليها ـ: يا أمَّ سعد لوددتُ أَنَّ درعَ سعد كانت أسبغ ـ أكمل ـ مما هي. فرُميَ سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ بسَهْم قطع منه الأكحل[١]، رماه به حِبّانُ بن العرقَة، فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة.

فقال له سعد: عرقَ الله وجهك في النَّار.

* ثم توجّه إلى الله ودعا قائلاً: اللهم إنْ كنتَ أبقيتَ مِنْ حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنَّه لا قوم أحبّ إليّ من أنْ أجاهدهم فيك مِنْ قوم آذوا نبيك وكذّبوه وأخرجوه، اللهمّ إنْ كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرَّ عيني مِنْ بني قريظة[٢].

---

(١) «الأكحل»: عرق في الذراع يسمى عرق الحياة.

(٢) انظر تاريخ الإسلام (٢/ ٢٩١ و ٢٩٢)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٨١ و ٢٨٢)، =

* واستجاب الله سبحانه دعاء سيّدنا سعد ـ رضي الله عنه ـ، وضرب له رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، وكان جرحه قد تحجّر للبرء، ونقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ، وعندها نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ الذي حكم بأنْ يُقتلَ الرّجال، وتُسبى النّساء والذّراري، فلمّا فرغ المسلمون من قتلهم انفتق عِرْقه فمات ـ رضي الله عنه ـ.

* وهنا ظهرت الصَّحابية الجليلة أمُّ سعد للمرة الثّانية بموقفٍ جديد مشرق وضّاء، وهي تحمل شهادة الصِّدق مِنْ رسولِ الله ﷺ، فقد كانت تذرف الدَّمع سخياً على ابنها وهو يغسَّلُ، وكانت تقول:

ويـــل أمِّ سَعْـــد سَعْـــدا   حَـــزَامـــةً وَجَـــدّا

* وفي هذه اللحظات شهد لها رسول الله بالصدق فقال: «كل باكية تكذب إلا أم سعد»[1].

وحمل سعد ـ رضوان الله عليه ـ، ودفن بالبقيع، ولكن أمه ظلت تنتحب وتبكي، ويزفُّ إليهما رسول الله بشارة مباركة عبقةً، وهذه البشارة ترويها «أسماء بنت يزيد بن السّكن» ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: لما توفي سعد بن معاذ، صاحت أمُّه، فقال النَّبي ﷺ: «ألا يرقأ دمعُك ويذهب حزنك؟ فإنَّ ابنك أول مَنْ ضحك الله إليه واهتزَّ له العرش»[2].

* وصدعتِ الصَّحابيةُ لقولِ رسول الله ﷺ، واحتسبت ابنها الثَّاني شهيداً عند الله سبحانه وتعالى، لعلمها بمكانة الشَّهيد، وللبشرى التي بشَّرها بها النَّبي الكريم ﷺ.

* ولما فتح الله للمسلمين حصون بني قريظة وغنمها المسلمون؛ جعل الرَّسول الكريم للنِّساء اللائي حضرن القتال نصيباً منَ الغنيمة، وكان قد حضر

= ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٤٠ و ٤٤١) بتصرف يسير.

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) وانظر كذلك أسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٣٠).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٣)، وانظر طبقات ابن سعد (٣/ ٤٣٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٠٩).

معه في هذه الغزوة من النّساء، صفية عمته ﷺ، وأمّ عمارة، وأمّ سليط، وأمّ العلاء، والسّميراء بنت قيس، وأمّ سعد بن معاذ رضي الله عنهن(١).

* وعاشت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ بعد استشهاد ابنها سعد راضية قانعة، وكانت مكان احترام الرَّسول الكريم ﷺ، ومكان احترام الصَّحابة أيضاً رضوان الله عليهم، وظلت قانتة عابدة إلى أَنْ لقيت ربّها ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

بشَارتُهابالجَنَّـةِ:

* قال تعالى في جزاء الصَّابرين المتوكلين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

* هذه الصَّحابية الفاضلة الطّيبة، واحدةٌ مِنْ كرائم النِّساء اللواتي ضربن أروعَ آياتِ الصَّبر والتّوكل في تاريخ النّساء، وكانت مع هذا كلّه تحرص كل الحرص على مرضاة الله ومرضاة رسوله، وتؤثر محبة رسولِ الله على كلِّ غالٍ ونفيس مِنْ مالٍ وولد، وهل هناك غاية أسمى مِنْ رضاء الله ورضاء رسوله عنها؟! لذلك نالت البشرى بالجنَّة لقاء هذه الصِّفات، فقد صبرت عندما استشهد ولدها عمرو وأخوه سعد ـ رضي الله عنهما ـ، وفي السُّنّة النّبوية المطّهرة إشاراتٌ كثيرةٌ، ودلائل واضحة تبشّرُ بالجنَّةِ لمَنْ صبر ابتغاء مرضاة الله، فعن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ احتسب ثلاثة مِنْ صلبه دخل الجنَّة»، فقامت امرأة فقالت: أو اثنان؟ فقال: «أو اثنان» فقالت: يا ليتني قلتُ واحدة(٢).

* وأمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ ممن احتسبت ولديها عند الله سبحانه وتعالى، والله عنده حسنُ الثّواب.

---

(١) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٥٢٢)، وانظر كذلك السيرة الحلبية (٢/ ٦٦٦).
(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي والإمام أحمد.

* وقد نالت أمُّ سعد بشارة الرَّسول الكريم بالجنَّة في غزوة أحد، فقد جاءت تعدو نحو رسول الله ﷺ وهو على فرسه، وسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ آخذ بعنان فرسه، فقال له سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بها» فوقف لها، فدنت، فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ثم قال:
«يا أمَّ سعد أَبشري وبشِّري أهليهم أَنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّةِ جميعاً وقد شُفِّعوا في أهليهم»[1].
قالت: رضينا يا رسول الله ومَنْ يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لِمَنْ خلّفوا، فقال رسول الله ﷺ:
«اللهمّ أذْهِبْ حزنَ قلوبهم واجْبُرْ مصيبتهم، وأَحسِنْ الخلفَ على منْ خلّفُوا»[2].

* وهكذا نالت أمّ سعد ـ رضي الله عنها ـ البشَارة بالجنّةِ، وشملت هذه البشارة أيضاً أمهات وأخوات وزوجات الشُّهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ببركةِ دعائه ﷺ.

* وبعد، فهذه نفحاتٌ نديةٌ من سيرة صحابية جليلة، أرجو الله أَنْ أكون قد وفّقتُ في الحديث عنها وعن سيرتها المعطار.

* رضي الله عن كبشة أمِّ سعد، الأم المؤمنة الصَّابرة الصَّادقة، ونحن في وداع أمِّ الأبطال نقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

---

(١) كانوا اثني عشر شهيداً، وكلهم من بني عبد الأشهل، انظر أسماءهم في المغازي (٢/ ٣٠١) والدرر (ص١٦٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠١).
(٢) انظر المغازي (٢/ ٣١٥ و ٣١٦)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٤٥ و ٥٤٦).



(١٠)

أم المـؤمنين
زينَـبُ بنْـتُ جَـحْش
رضي الله عنها

«أَسْرَعكُنَّ لحَاقـاً بي أَطْوَلكُـنَّ يَـداً»

حديث شريف

«إنَّ زَينبَ بِنت جحشٍ أوّاهَـةٌ»

حديث شريف



السَّـيِّدةُ الشَّريفَــةُ:

* هذه الصَّحابية الفاضلة جمعت الفضلَ منْ أطرافه كلِّها، وجُمعَ فيها البِّر مِنْ أطرافه أيضاً.

* فابنُ خالها أشرف خلق الله على الإطلاق، سيّدنا رسول الله ﷺ.

* وجدُّ الرَّسول الكريم وجدُّها لأمِّها عبد المطلب بن هاشم سيّد قومه.

* وخالها سيّد الشُّهداء، وأسد الرّحمن، وفارس رسول الله، سيّدُنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* وأخوها صاحبُ أول راية عُقدت في الإسلام، وأول من دُعيَ بأمير المؤمنين وأحد الشُّهداء، لُقِّبَ بالمُجدّع، سيدنا عبد الله بن جحش[1] ـ رضي الله عنه ـ.

* وأخوها أيضاً أحد شعراء الإسلام المجيدين سيّدنا أبو أحمد بن جحش.

* وأختُها إحدى السَّابقات إلى الإسلام حمنة بنت جحش.

* وأمُّها عمَّة رسول الله ﷺ التي أطعمها النّبي أربعين وسقاً من تمر خيبر أميمة بنت عبد المطلب.

* وهي ـ رضي الله عنها ـ الوحيدةُ التي زُوِّجت من فوق سبع سموات.

* عُرفت هذه المرأةُ المباركة بالسَّبق إلى الإسلام والهجرة والجهاد والصَّبر والزُّهد، افتتح أبو نعيم الأصبهاني ترجمتها في حليته بقوله: الخاشعةُ الراضيةُ، الأوَّاهة الدَّاعية[2].

* أمَّا الإمام النَّووي فيقدِّمُ بطاقتها فيقول: زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية تكنى أمّ الحكم، وأمُّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) انظر سيرة هذا الصحابي الكريم في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.
(٢) الحلية (٢/ ٥١).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٤).

* وُلدت زينبُ قبل البعثة بـ(٣٣) سنة، وهذه السَّنة توافق (٥٩٠) من الميلاد، وكان مولدُها في مكةَ المكرمة في بني أسد ـ أسد خزيمة ـ ونشأت تنعم بالشَّرف والجمال وتفخر بالحسب والنَّسب، ولشدة اعتدادها بنفسها سُمِعت ذات مرة تقول: أنا سيِّدة أبناء عبد شمس[1].

* * *

منَ الرَّعيْل الأولِ:

* بدأت نسماتُ الإسلام تفوحُ بأريجها العطر في أمِّ القرى، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبّلون هذه الدَّعوة بقلوبٍ صافية متعطّشة للتَّخلص من براثن الجاهلية، وكان عبدُ الله بن جحش منَ الذين سمعوا دعوة الحقِّ فأعلنَ إسلامه، وآمن بما يدعو إليه ابن خاله محمّد ﷺ، وسرعان ما بادرت أسرته إلى إعلان إسلامها، وسارعت أخته زينب إلى الإيمان بالله، فقد كانت تحمل نفساً صافيةً نقيةً، وكانت تتوق إلى التَّخلص من عادات الجاهلية العفنة العمياء، فاتجهت إلى الله بقلبها، وأخلصت في إسلامها إخلاصاً جعلها من سادة نساء الدُّنيا في الورع والتَّقوى والجود والمعروف ـ رضوان الله عليها ـ.

* * *

زينبُ في رَكْبِ المُهَاجرينَ:

* راحتْ زينب تتزوّدُ مِنْ معين القرآن ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، واتجهت إلى ربِّها بقلبٍ يفيض بصدق الإيمان، ونفس تغمرها رحمة الإسلام، وكانت ترى المسلمين يزدادون في مكة يوماً بعد يوم، لكنَّ قريشاً كانت تصدّهم عن سبيل الله بجميع الوسائل، وتقف سداً منيعاً أمام كلّ مَنْ آمن بالله ورسوله.

* وآلَمَ رؤساء قريش انتشار الإسلام في مكةَ، وأقضَّ مضاجع المشركين

---

(١) عن السمط الثمين للطبري(ص ١٠٧).

انتقال الإسلام إلى المدينة وانتشاره فيها بسرعة، عند ذلك أوغلوا في إيذاء المسلمين وضيّقوا عليهم حياتهم، وأجرموا بحقِّهم، وكان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يشكون إلى النَّبي الكريمﷺ ما يجدونه مِنْ عنَتِ المشركين، فيثبّتهم ويصبرهم ويعدهم الفرج والمخرج من هذا العذاب.

* ولما أذنَ الله بالهجرة إلى المدينة، هاجر بنو جحش بقيادة سيّدنا عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد عبد بن جحش، وكان أبو أحمد هذا شاعراً ضريرَ البصر، وكان معهما محمّد بن عبد الله بن جحش، وهاجر معهم نساؤهم: زينب بنت جحش بطلة ترجمتنا اليوم، وحمنة بنت جحش ـ زوج مصعب بن عمير ـ وأمّ حبيب بنت جحش ـ زوج عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهن.

* انطلق بنو جحش رجالاً ونساءً إلى المدينة، فقد كانوا جميعاً أهلَ إسلام، وغُلِّقت دارهم بسبب الهجرة، حتى تركت هذه الهجرة أثراً في نفوس رجالات قريش، واستولى أبو سفيان بن حرب على دار بني جحش وتملّكها. ولما ذَكَرَ عبد اللهبن جحش ذلك للرسول ﷺ قال له: «ألا ترضى يا عبد الله أَنْ يعطيَكَ اللهُ بها داراً في الجنة خيراً منها»؟ قال عبد الله: بلى، قال: «فذلك لك»[1].

* ومن الطَّريف أنَّ أبا أحمد بن جحش، قد سجَّل هجرة بني جحش في قصيدة له يصوِّر فيها عوامل الهجرة، وأذى قريش، ويذكر إيمان قومه برسول الله ﷺ واتباعهم طريق الهدى والصواب[2].

* * *

---

(١) انظر في هذا السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٧٢)، والبداية والنهاية (٤/ ١٧٠ و١٧١ و١٧٢).

(٢) الأيم: من لا زوج لها بكراً أو ثيباً. انظر القاموس المحيط مادة أيم.

رضيتُــهُ لَـكِ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

* لما جاء الإسلامُ الحنيف كان مِنْ مقاصده أنْ يزيلَ الفوارق بين النَّاس، تلك الفوارقُ التي تقوم على العصبية وحمية الجاهلية، فلا فضل لأحد على أحدٍ إلا بالتّقوى، فالتّقوى ميزان الإسلام، وأراد النَّبي الكريم أَنْ يحققَ هذا الميزان، ويحقق المساواة بين النَّاس عمليّاً، وذلك بتزويج زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها وهي قريبته، لمولاه سيّدنا زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، حتى تسقط تلك الفوارق الطبقية الواهية، وعرض عليه الصَّلاة والسَّلام ذلك على زينبَ وخطبها لزيد بن حارثة، ولكنَّ زينبَ دارتْ بذهنها خواطر مضطربة، وتساؤلات متضاربة، كيف ستقبلُ هذا الزَّواج غير المتكافىء من أحد الموالي وهي السَّيدة الشَّريفة ذات الحسب والنَّسب والشَّرف؟! وقالت للنَّبي الكريم ﷺ: يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيّم قريش، قال ﷺ: «فإنّي قد رضيتُهُ لَكِ»[١]، ونزل قوله تعالى على رسوله الكريم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

* وهنا لم يَسَعْ زينب أَنْ تخالفَ أَمْرَ اللهِ ورسوله، فامتثلتْ ـ رضي الله عنها ـ، وتزوّجها زيدُ بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، والتزمت زينبُ بالمبدأ الذي لا يتفاضلُ فيه النَّاس إلا بالتَّقوى.

* ثم إنَّ زيداً هذا أميرٌ منْ أمراء الجهاد، وكان النَّبي الكريم قد تبنّاه وهو صغيرٌ إلى أَنْ صار رجلاً وأصبح يُدعى زيد بن محمد[٢]، ولما نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد(٨/ ١٠١).

(٢) اقرأ سيرة زيد بن حارثة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

عند ذلك أُلغيت عادة التّبني التي كانت متفشية في الجاهلية، وشرعَ الإسلامُ في تنظيم المجتمع وإحكام الرَّوابط الأسرية، وردّ علاقة النَّسب إلى أصولها الحقيقية.

* * *

زينَبُ وزيدٌ ـ رضي الله عنهما ـ:

* استمرت الحياةُ الزَّوجية بين زينب وزيد قرابة سنة، ثم بدأت جذورُ الخلاف تنشأ بينهما، وخاصة بعد أَنْ أَبطلَ الإسلامُ التَّبني، وراحت زينب ـ رضي الله عنها ـ تترفّعُ على زيد ـ رضي الله عنه ـ، مما جعل هذا الزواج يسوء يوماً بعد يوم ويبتعد عن الصَّفاء، وتزداد الغيوم الداكنة في سمائِه، وهذا لحكمة يريدها الله سبحانه.

* وكان زيدٌ وهو الحِبُّ ـ حِبُّ رسول الله ـ يذهب إلى النَّبي الكريم ﷺ يشكو له ما يلاقيه من زينبَ، ومن ترفّعها عليه، وكان النَّبي الكريم ﷺ يقول له: «أَمْسِكْ عليك زوجك واتَّقِ الله»، فكان عليه الصَّلاة والسَّلام ينصح زيداً بإمساكها.

* ولكنَّ حياةَ زيد وزينب لم يُكْتَب لها الصَّفاء والوفاق، وكان الجفاء هو طابع زواجهما الذي تمَّ بأمر الله سبحانه، لحكمة يريدها الله عزَّ وجلَّ لإبطال عادة التبني وما يتعلّق بهذه العادة من أحكام وتوابع في الجاهلية.

* كان سيِّدُنا زيدٌ ـ رضي الله عنه ـ يشعر بصعوبة التَّعايش مع زينب حتى عافتها نفسُه، وضجر منها، وذهب إلى رسول الله ﷺ شاكياً وطالباً الإذنَ بطلاقها، والرّسول الكريم ﷺ يقول له: «أمسكْ عليك زوجك واتقِ الله» وهو يعلمُ تماماً أنْ لا بدّ مِنَ الطلاق، وأنَّ الله سبحانه سيأمره بالتزوّج بها بعد زيد إبطالاً لبدعة التَّبني، فقد كان جبريل عليه السّلام أخبر رسول الله ﷺ بأنَّ زينبَ ستكون مِنْ أزواجه، وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة الجاهلية، غير أنَّ النَّبي الكريم وجد غضاضةً على نفسه بهذا الأمر، فيصيرُ عرضة للقيل والقال وإرجاف المرجفين بأنَّ محمداً تزوج حليلة متبنّيه، فشعر عليه الصَّلاةُ والسَّلام

بالخجل من هذا الأمر، وخشيَ منْ مشاغبة المنافقين واليهود، فعاتبه الله سبحانه على هذا ونزَّهَه عن الالتفات إلى المرجفين فيما أحلَّه الله له، وقد صدعَ الوحي بالسَّبب الباعثِ على زواج النّبي الكريم ﷺ من زينبَ فقال عزَّ وجلَّ:

* ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ[1] وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ[2] أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[3].

* وهكذا فقد تمَّ أمرُ الله سبحانه، ونفَّذ الرَّسول الكريمُ ما أمره الله به في غير حرج، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

* * *

مـنْ فـوق سَـبْع سَـمَوات:

* نالتِ السّيدةُ زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ شرفاً عظيماً مِنَ الله سبحانه وتعالى، إذْ جعلَها مِنْ أمّهات المؤمنين، وأضحت إحدى زوجات النَّبي الطَّاهرات.

* روى الإمامُ مسلم والإمامُ أحمد بسندهما عن سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما انقضت عدةُ زينب قال النَّبيُ ﷺ لزيدٍ: «اذهب فاذكرها عليّ»[4] فانطلق حتى أتاها وهي تُخمِّر عجينهَا، قال: فلمَّا رأيتُها عظُمت في صدري حتى ما أستطيع أَنْ أنظرَ إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيتُها ظهري ونكَصْتُ على عَقِبي وقلت: يا زينب أَبْشري أرسلني رسول الله

---

(١) يعني بالإسلام وهو زيد.
(٢) يعني بالعتق.
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧، وانظر تفسير ابن كثير لهذه الآية.
(٤) أي اخطبها لي من نفسها.

ﷺ يذكرُكِ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامرَ ربي عزَّ وجلَّ، ثمَّ قامت إلى مسجدها ونزلَ القرآن وجاء رسولُ الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[1].

* وهكذا زوَّج الله سبحانه وتعالى زينبَ من نبيِّه ﷺ بنصٍّ كتابه بلا وليٍّ ولا شاهد، حتى كانت تفخر بذلك على أمّهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ وتقول: «زوّجكن أهاليكن وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سموات»[2].

* وفي روايات أخرى كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تقول: «أنا أكرمكن وليّاً وأكرمكن سفيراً، زوّجكُن أهلكن وزوَّجني الله من فوقِ سبع سموات»[3].

* وذكر ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما أُخبِرتْ زينب بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت[4]. وفي رواية أنَّها لما بُشرت بتزويجِ الله نبيه إيّاها ونزول الآية في ذلك جعلت على نفسها صوم شهرين شكراً لله، وأعطتْ مَنْ بشَّرها حليّاً كان عليها[5].

* وقد روي أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا دخل بها قال لها: «ما اسمُك»؟ قالت: برّة. فسمَّاها رسول الله ﷺ زينب[6]. وذكر ابن سعد وابن الأثير أنَّ رسول الله ﷺ قد أطعَمَ على زينبَ خبزاً ولحماً.

* * *

---

(١) انظر صحيح الإمام مسلم في كتاب النكاح حديث رقم (١٤٢٨)، وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٩٥)، والنسائي أيضاً (٦/ ٧٩) في النكاح وغيرهم.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد باب: وكان عرشه على الماء.

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٣)، والاستيعاب (٤/ ٣٠٧)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩٤٧).

(٤) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥).

(٥) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٣٦)

(٦) رواه الإمام مسلم، وانظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٩٤٧).

وَاللهُ يـقولُ الحَـقَّ:

* نزل تشريعُ الله سبحانه بإبطال التَّبني، وتزوَّج النَّبي الكريم من زينبَ بأمرٍ منَ الله، وما كاد يتمُّ هذا الحدث السَّعيد حتى جعل المرجفونَ والمنافقونَ وأتباعهم يقولون: كيف ينهاها محمّد عن زوجاتِ الأبناء ويتزوّج هو زوجة ابنه زيد، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى وهو الكبير المتعال ردَّ على هؤلاء المتقولين وأنزل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩].

* ثمَّ بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى بطلان التَّبني وبطلان ما يترتَّبُ عليه من حقوق، وذكر أنَّ محمداً خاتم الأنبياء فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

* كما أنَّ الله سبحانه قد نظَّم الأسرة على أساسٍ محكم صريح، وردَّ علاقة النَّسب إلى علاقات الدَّم والأبوة، وبيَّنَ سبحانه أنَّه لا يستقيم في منطق العقل أنْ يكونَ الولد دعيّاً وابناً فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

* * *

الحِـجَـابُ:

* مِنْ بركاتِ زينب أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ومن فضائلها نزول آية الحجاب بسببها، وذلك في صبيحةِ عرسها، وذلك أنَّه لما دخل بها النَّبي ﷺ أَوْلَمَ عليها ما لم يُولم على غيرها، وكان ذلك سبباً في نزول آية الحجاب.

* روى البخاري ومسلم وغيرهما قصّة نزول الحجاب وسببه، وسنوردُ رواية البخاري عن سيِّدنا أنس بن مالك، ففيها شفاء للصدور وفيها حكمةٌ وعظة، فقد روى البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

* بُنِيَ على النَّبي ﷺ بزينبَ بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسِلْتُ على الطَّعام داعياً، فيجيءُ قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثمَّ يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعو. فقلتُ: يا نبيّ الله ما أجِدُ أحداً أدعوه قال: «فارفعوا طعامكم» وبقيَ ثلاثةُ رهط يتحدَّثون في البيت، فخرج النَّبيُّ ﷺ فانطلق إلى حُجرة عائشة فقال: «السَّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليكَ السَّلام ورحمة الله كيفَ وجدتَ أهلك بارك اللهُ لك؟ فتقرّى حُجَرَ نسائه كلّهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة.

* ثم رجع النَّبي ﷺ، فإذا ثلاثةٌ مِنْ رهط في البيت يتحدَّثون، وكان النَّبيُّ ﷺ شديدَ الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري آخْبَرته أو أُخْبِرَ أَنَّ القومَ خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّةِ[١] الباب داخلةً وأخرى خارجةً أرخى السِّترَ بيني وبينه وأُنزِلت آيةُ الحجاب[٢].

* والمراد بآيةِ الحجاب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ[٣] وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

* نعم نزلت آيةُ الحجاب تعليماً وإرشاداً للنَّاس ألا يدخلوا بيوتَ النَّبي ﷺ

---

(١) الأسكفة: عتبة الباب السفلى التي يوطأ عليها.

(٢) صحيح البخاري، تفسير سورة الأحزاب (٦/١٤٩)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٤٢٨). وانظر تفسير الماوردي وابن كثير والقرطبي للآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

(٣) إناه: أي نضجه.

بغيرِ إذنْ، فإذا ما دُعوا إلى طعامٍ دخلوا ثم إذا طعموا خرجوا فلا سَمَرَ ولا حديث.

* وكان نزول الحجاب مِنْ موافقاتِ سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقد روى البخاري في صحيحه عن سيِّدنا أنس قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: قلتُ: يا رسول الله يدخلُ عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهاتِ المؤمنين بالحجاب، فأنزلَ الله آية الحجاب[1].

* وفي الطّبقات الكبرى ذكر ابنُ سعد عن أنس قال: كان أول ما نزل من الحجاب مُبْتَنى رسول الله ﷺ بزينبَ بنت جحش[2]، وكان ذلك سنة خمس مِنَ الهجرة، وحَجَبَ رسولُ الله ﷺ نساءه يومئذ، وكان زواج زينبَ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ بركةً على المسلمات إلى قيام السَّاعة، حيث فُرِضَ الحجاب على بنات حواء ليكون هدية الشَّرف والطَّهارة والنَّقاء[3].

* * *

مَـعَ الرَّسـولِ فـي الغَـزْوِ والحَـجِ:

* لما خرج رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائفِ كان معه امرأتان مِنْ نسائه وهما: أمّ سلمة وزينب ـ رضي الله عنهما ـ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلام قد ضرب لزوجتيه قبّتين، ثم كان يصلي بين القبتين حصارَ الطّائف كلّه.

* وفي حجة الوداع كانت زينبُ أمّ المؤمنينَ ـ رضي الله عنها ـ مع

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير لسورة الأحزاب.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٧٣)، وانظر الفصول في سيرة الرسول (ص٢٤٦).

(٣) حديث سيدنا أنس بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ في البناء بأم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ في زهاء عشرة مواضع في صحيح الإمام البخاري وحده. فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ سورة الأحزاب (٦/ ١٤٩)، وفي خمسة أبواب أخرى من كتاب النكاح في الجزء السابع صفحة (٢٧ و٢٨ و٣٠ و٣١ و١٠٧). وفي الاستئذان آية الحجاب (٨/ ٦٥) ثم في (٨/ ٧٥). وفي كتاب التوحيد (٩/ ١٥٢)، وكلها بالبيان وفيها مقنع.

رسول الله ﷺ، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام لنسائِه في حجة الوداع: «هذهِ ثمّ ظهور الحُصْرِ»[1].

* وكانت نساء النَّبي ﷺ يحججن كلّهن إلا سودة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: لا تحركُنا دابةٌ بعد رسول الله ﷺ[2].

* وذكر ابن سعد في الطَّبقات بسنده قال: لم تحج زينب بنت جحش بعد حجةِ رسول الله ﷺ التي حجتْها معه حتى توفيت في خلافة عمرَ سنة عشرين، وكانت زينبُ ـ رضي الله عنها ـ قد عملتْ بوصيةِ رسول الله حينما قال لأزواجه: «أيّكن اتقتِ الله ولم تأْت بفاحشةٍ مبيّنةٍ ولزمتْ ظهر حصيرها فهي زوجتي في الآخرة»[3].

* * *

زينَبُ وعائشَةُ ـ رضي الله عنهما ـ:

* للصِّديقة بنت الصِّديق عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ شهادةٌ مباركةٌ في أمِّ المؤمنين زينبَ ـ رضي الله عنها ـ، وهذه الشَّهادة من نوعٍ خاصٍ، فهي تحملُ في طياتها الصِّدقَ والإعجابَ، وتشهد لزينبَ بالطيبِ والطُّهر والعفة والخلق الكريم، فقد رُوي عن أمِّ المؤمنينَ عائشة بنت الصِّديق ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت:

* كانت زينبُ بنت جحش تُسَاميني[4] في المنزلةِ عند رسول الله ﷺ، ما رأيتُ امرأةً خيراً في الدِّين مِنْ زينبَ وأتْقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ

---

(١) أي لا تعدن تخرجن من بيوتكن وتلزمن الحصر، والحصر جمع حصير.
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠٨) والمغازي (٣/ ١١١٥) وأنساب الأشراف (١/ ٤٦٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠٨).
(٤) تساميني: تساويني وتضاهيني.

للرحم، وأعظمَ صدقةً ـ رضي الله عنها [1] ـ.

* وروى الإمامُ أحمد بسنده عن عروة بن الزُّبير عن عائشة شهادة لها بزينب حيث قالت عائشة: ولم أَرَ امرأةً خيراً منها وأكثر صدقةً، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسِها في كلِّ شيء يتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ من زينبَ.

* وشهادة عائشة لزينبَ ـ رضي الله عنهما ـ بالخير إنَّما مردُّ ذلك لشهادة زينب مِنْ قبلُ في عائشةَ، وذلك عند حديث الإفك فقد أدلتْ زينب شهادةً مباركةً طاهرةً في عائشة، وروى هذا الخبر البخاري في صحيحه من حديث عائشة الطَّويل في حديث الإفك، وسنقطفُ منه فقرةً كاشفةً، فقال:

«. . . . . قالت عائشةُ: وكانَ رسول الله ﷺ يسألُ زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمتُ إلاّ خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمَها اللهُ بالورع، وطفقتْ أختُها حمنة تحارب لها، فهلكتْ فيمن هلَكَ مِنْ أصحاب الإفك» [2].

* رضي الله عن أمِّ المؤمنين زينبَ التي كانت تمقُتُ الفتنة، وتسأل الله أَنْ يبعدَها عن المفسدينَ والحاسدينَ، وكانت تستطيع أَنْ تدسَّ في هذه النَّهزةِ ما تشاء، ولكنَّها ما قالت إلا خيراً ولا شهدت إلا صدقاً وبرّاً وعدلاً.

* وأودُّ هنا ـ عزيزي القارىء ـ أَنْ أشيرَ إشارةً هامّةً إلى أَنَّ الرواياتِ في الصَّحيحين وغيرهما قد بيَّنت أَنَّ الذينَ خاضوا في هذا الحديث الآثم هم: عبدُ الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق، وحمنة بنت جحش أخت زينب، ومسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وأَنَّ الذي تولَّى معظم الحديث والإرجاف به زعيم المنافقين ابن أبيّ وتلاهُ الباقون، وقد تابَ هؤلاء توبةً نصوحاً ـ ما عدا ابن أبي ـ وقد اعتذر حسّان بن ثابت عمّا كان، وامتدح

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٣ و٢١٤).

(٢) انظر تفسير سورة النور في صحيح البخاري، وانظر تفسير ابن كثير للسورة نفسها، وأسباب النزول للواحدي.

الصّديقة بنت الصّديق المبرأة مِنْ فوق سبع سموات بما هي له أهل فقال:

حَصَانٌ رزان ما تُزَنُّ بريبةٍ
وتصبح غرثى من لحوم الغَوافل

عقيلة حيّ من لؤي بن غالب
كرام المسَاعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيّب الله خِيمها
وطهَّرها من كل سُوء وباطل[1]

* * *

مَكَانتُها وفَضْلُهَا ـ رضي الله عنها ـ:

* لزينبَ ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ عاليةٌ عند رسول الله ﷺ، فقد كانتْ أثيرةً لديه، وذكر ابن سعد أَنَّ آثرَ نساءِ النَّبي ﷺ عنده عائشة وأمّ سلمة وزينب، أضفْ إلى ذلك أنَّ رسولَ الله كان يُصلي في بيت زينب وهذه منقبةٌ عظيمةٌ لها وبركةٌ مِنْ بركاتها ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وهذه حادثةٌ تشير إلى مكانة زينبَ وحظوتها عند رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ النَّبي الكريم كان إذا صلى العصر دار على نسائه يلاطفُهن ويؤانسهن بالمحادثة، وربما يطيل المكْث عند بعضهن، فتأخذ الغَيرة بنفوس بعضهن، فدخل ذات يوم على أمِّ المؤمنين زينبَ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، فمكثَ عندها وشرب عَسَلاً، فأخذتِ الغيرةُ بنفْسِ عائشةَ وحفصةَ ـ رضي الله عنهما ـ، ولنتركْ أمّ المؤمنين عائشة تروي لنا نبأ هذه الحادثة، فقد أخرجَ الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت:

«كان رسولُ الله ﷺ يشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش ويمكثُ عندها، فواطيتُ أنا وحفصة عن أَيّتنا دخلَ عليها فلتقلْ له أكلتَ مغافير[2]، إنّي أجدُ

---

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت طبعة دار المعارف.

(٢) الرائحة الكريهة.

منك ريح مغافير، قال: «لا ولكنّي كنتُ أشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش فلن أَعدْ وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً»[1]. فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم: ١]. فكفر رسول الله ﷺ عن يمينه، وتاب نساؤه إلى الله ورسوله.

* ومن فضْل زينبَ ـ رضي الله عنها ـ ما شهد به رسول الله ﷺ لها بالخشوع، وشهادة النَّبي الكريم هذه رفعت زينب مكاناً علياً في مقامِ العبادة، روى عبد الله بن شداد أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ زينبَ بنت جحش أوّاهةٌ» قيل: يا رسول الله ما الأوّاهة؟ قال: «الخاشعةُ المتضرعة» و ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ [هود: ٧٥][2].

* ولهذا فقد كانت زينبُ ـ رضوان الله عليها ـ تعرفُ مكانَتها وحظوتَها عند النَّبي الكريم ﷺ، فكانت تفتخرُ على نسائه بثلاث خصال، فعن الشَّعبي ـ رحمه الله ـ قال: كانت زينب تقول للنَّبي ﷺ: إنِّي لأدلُّ عليك بثلاثٍ ما مِنْ نسائك امرأة تدلُّ بهنَّ، إنَّ جدِّي وجدُّك واحد، وإنّي أنكحنيكَ الله عزَّ وجلَّ منَ السماء، وإنَّ السَّفير جبريل عليه السَّلام[3].

* وفي موضع الفخر الذي يُحْمَدُ، كانت زينبُ ـ رضوان الله عليها ـ تعتزُّ بشرفِ القرابة من رسول الله ﷺ، وتباهي أزواجه بأنَّ الله هو الذي زوَّجها فكانت تقول لهن: «أنا أكرمكن ولياً وأكرمكن سفيراً، زوّجكن أهلكن وزوَّجني الله من فوق سبعِ سموات».

* وهذه أمُّ المؤمنينَ أمّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ تشيرُ إلى مكانة ضرَّتها زينب عند رسول الله ﷺ فتقول: كانت زينبُ لرسولِ الله ﷺ معجبة، وكان

---

(١) انظر صحيح البخاري تفسير سورة التحريم، وانظر صحيح الإمام مسلم حديث رقم (١٤٧٤)، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٤)، وتفسير القرطبي لأول سورة التحريم.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٧) والاستيعاب (٤/ ٣٩) وعيون الأثر (٢/ ٣٨٣).

(٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٤٦)، وأنساب الأشراف (١/ ٤٣٥).

يستكثرُ منها، وكانتِ امرأةً صالحةً صوّامةً قوّامة[1].

* * *

الثَّنَـــاءُ عليهَـــا:

* كانت أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضي الله عنها ـ قد جَمَعت صفات الخير كلّها مِنْ دِينٍ وخيرٍ وكرم وما شابه ذلك، ولهذا فقد انتزعت الثَّناء من ضرائرها، فهذه أمُّ المؤمنين عائشة تقول عندما بلغها نعيُ زينبَ: لقد ذهبتْ حميدةً متعبدةً، مَفْزِعَ اليتامى والأرامل.

* وفي موضعٍ آخر ذُكِرتْ زينب أمامَ عائشة ففاضت عليها بالثَّناء وقالت: يرحم الله زينب بنت جحش، لقد نالت في هذه الدُّنيا الشَّرفَ الذي لا يبلغه شرف، إنَّ الله عزَّ وجلَّ زوَّجَها نبيَّه ﷺ في الدُّنيا ونَطقَ به القرآن[2].

* وشاركت أمُّ المؤمنينَ أمُّ سلمة بالثَّناء عليها بما هي أهل لذلك وامتدحتْ تقواها وعبادتها فقالت: كانت امرأة صالحة صوّامة قوّامة[3].

* وقد أثنى العظماء والعلماء والمؤرخون العدول على أمِّ المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ، فالإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ يقول عنها: كانت دَيِّنَة كثيرة البرِّ والصَّدقةِ[4]. وفي مكان آخر يثني عليها الذَّهبي أيضاً بقوله: كانت مِنْ سادة النِّساء ديناً وورعاً وجُوداً ومعروفاً ـ رضي الله عنها[5] ـ.

* وفي تاريخه ذكرها ابنُ كثير وأثنى عليها ثناءً عطراً فقال: كانت زينبُ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ مِنَ المهاجرات الأُول، وكانت كثيرة الخيرِ والصَّدقة[6].

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥).
(٤) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٢١٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢)
(٦) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٤٨).

* ونقل الذَّهبي عن الواقدي هذا الثَّناء الذي يشهد بفضل أمّ المؤمنين زينب فيقول: وكانت امرأة صالحةً صوّامة قوّامة صَناعاً تتصدقُ بذلك كلِّه على المساكين.

* * *

منْ كرامَاتِها وزُهدِهَا ـ رضي الله عنها ـ:

* لم تكن أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضي الله عنها ـ تحفلُ بالمال أو بشيء من زُخرف الدُّنيا، بل كانت تعملُ بيدها، فكانت تدبغُ وتخرزُ وتبيعُ ما تصنعه، وتتصدقُ به في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ومما يشيرُ إلى كرامتِها عند الله واستجابة دعائها، ويشيرُ أيضاً إلى زهدها في المال مهما كَثُرَ ما روتْهُ شاهدة عيانٍ عن ذلك، لنستمعْ من برزةَ بنتِ رافع تحدثُنا عن هذا فتقول:

لمَّا خرجَ العطاء، أرسلَ عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى زينبَ بنتِ جحش ـ رضي الله عنها ـ بالذي لها، فلمّا أُدخلَ عليها قالت: غفرَ الله لعمرَ، غيري مِنْ أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني. قالوا: هذا كلُّه لكِ، قالتْ: سبحان الله! واستترتْ منه بثوب وقالت: صبُّوه واطرحوا عليه ثوباً، ثمّ قالت لي: أَدخِلي يَدكِ فاقبضي منه قبضةً فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان ـ من أهل رحمها وأيتامها ـ حتى بقيتْ بقية تحتَ الثَّوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أمّ المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثَّوب فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً. ثم رفعتْ يدها إلى السَّماء فقالت: اللهم لا يدركُني عطاءٌ لعمرَ بعد عامي هذا. قال: فماتت(١).

وروى ابن سعد أنَّه لما حُمِلَ إلى زينب المال جعلتْ تقول: اللهم لا يدركني قابل هذا المال فإنَّه فتنةٌ، ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهلِ الحاجة حتى أتتْ عليه، فبلغَ ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: هذه امرأةٌ يُرادُ بها خير، فوقفَ

---

(١) انظر في هذا طبقات ابن سعد(٨/ ١٠٩ و ١١٠)، وصفة الصفوة (٢/ ٤٨ و ٤٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢)، وفتوح البلدان للبلاذري(ص ٥٥٥).

على بابها وأرسلَ بالسَّلام وقال: قد بلغني ما فرّقْتِ، فأرسلَ إليها بألفِ درهم تستَبْقيها، فسلكتْ بها طريق ذلك المال ـ رضي الله عنها وأرضاها[1] ـ.

ومما يُضافُ إلى زهدها في الدُّنيا ما رواه ابن سعد في طبقاته قال: ما تَرَكَتْ زينبُ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ درهماً ولا ديناراً، كانت تتَصدَّقُ بكلِّ ما قدرتْ عليه، وكانت مأوى المساكين.

* * *

وَفَـاتُـهَـا ـ رضي اللهُ عنها ـ:

في سنة عشرين من الهجرة التي توافق (٦٤١) من الميلاد، شعرت أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضوان الله عليها ـ بقربِ اللقاءِ مع الله، وكانت على استعداد دائم لهذا اللقاء المبارك، وقالت حينَ حضرتها الوفاة: إنّي قد أعددت كفني، ولعلَّ عمر سيبعث إليَّ بكفنٍ، فإنْ بعثَ بكفن فتصدَّقوا بأحدهما، إن استطعتم إذا دليتموني أَنْ تصدَّقوا بحقوي ـ إزاري ـ فافعلوا[2].

* زُهْدٌ في الدُّنيا وفي متاعها، صَدَقةٌ وبرٌّ في سَكَرات الموت، ما أشدَّ كَرَمَ أمّ المؤمنين زينب! حقاً إنّها أمُّ المساكين؛ رضي الله عنها وأرضاها.

* وفي اللحظات الأخيرة أوصتْ أَنْ تُحمَلَ على سرير رسول الله ﷺ، وماتتْ ـ رضي الله عنها ـ، فكانت أول نساء النَّبي لحوقاً به.

* ولما وصل نبأ وفاتها إلى سيِّدنا عمر بن الخطاب أمر منادياً فنادى: ألا لا يخرج على زينبَ إلا ذو رحمٍ من أهلها، وكان عمر ـ رضوان الله عليه ـ يطلع إلى شيء يسترها، فقالت أسماءُ بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ: قد رأيت بالحبشة يجعلون نعوشاً لموتاهم، فعملَتْ نعشاً لزينبَ ـ رضي الله عنها ـ وغطَّته بثوبٍ، فاستحسنَ هذا سيدنا عمر وقال: نِعْمَ الخباءُ الظَّعينة[3]،

---

(١) عن حياة الصحابة (٢/ ٢٣٥ و ٢٣٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٩).
(٣) عن المعارف لابن قتيبة.

وأمر بعد ذلك منادياً فنادى أَنِ اخرجوا على أمّكم، وخرج المسلمونَ يشيّعون أمَّ المؤمنين زينب، وخرج أخوها أبو أحمد بن جحش ـ رضي الله عنه ـ يحملُ سريرَ أختهِ وهو مكفوف ـ أعمى ـ وكان يبكي بكاءً شديداً، فقال له سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا أحمد تنحَّ عن السَّريرِ لا يعنتك النَّاس ـ يشقون عليك ـ وكان يوماً صائفاً شديدَ الحرِّ، وازدحم المسلمون على سريرها، فقال أبو أحمد: يا عمر هذه التي نِلْنَا بها كلَّ خيرٍ، وإنَّ البكاءَ يبردُ حرَّ ما أجد، فقال عمر: الزم الزم[1].

* وذكر الإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ أنَّها دُفنتْ بالبقيع، وصلى عليها سيّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، ونزل في قبرها أسامةُ بن زيد، ومحمّد بن عبد الله بن جحش، وعبدُ الله بن أبي أحمد بن جحش، ومحمّدُ بن طلحة بن عبد الله وهو ابن أختها حمنة، فكلُّهم محارم ـ رضي الله عنها ـ[2].

* وكانت زينبُ يوم توفيت ابنةَ ثلاث وخمسين سنة، وذكر النَّووي والعسكري ـ رحمهما الله ـ وغيرهما أنَّ زينبَ ـ رضي الله عنها ـ هي أول امرأة جُعِلَ عليها النَّعش[3]، أشارتْ به أسماء بنت عُميس ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

بشَارتُها بالجَنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿.... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ

---

(1) عن حياة الصحابة (٢/ ٥٩٦) وأنساب الأشراف (١/ ٤٣٦) بتصرف يسير. ومن الجدير والجميل ذكره هنا ما ذكره حماد بن زيد عن عاصم الأحول أن رجلاً من بني أسد فاخر رجلاً فقال الأسدي: هل منكم امرأة زوّجها الله من فوق سبع سموات؟ يعني زينب بنت جحش. انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٣).

(2) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥ و ٣٤٦).

(3) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٦)، والأوائل للعسكري (ص ٢٧٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٢٨٥) وغيرها.

﴿... تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النِّساء: ١٣].

* عاشت أمُّ المؤمنينَ زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ حياةً بعيدةً عن الزَّخارف الدّنيوية، فقد آثرت الحياةَ الآخرةَ، وجعلت الدنيا مزرعةً للآخرةِ، وعرفت أَنَّ هذه الدُّنيا لا تساوي عند الله جناحَ بعوضة، فانصرفت إلى حياة العبادة والتَّبتلِ وخاصة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

* وأمُّ المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ قد حظيتْ ببشارةِ رسول الله بالجنَّة، وأنَّها ستكونُ أول زوجاته موتاً بعده، ففي الصَّحيحين واللفظ لمسلم مِنْ طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة أمِّ المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكُن لحاقاً بي أطولكُن يداً»[1]. قالت: فكنَّ يتطاولنَ أيتهنَّ أطول يداً. . . قالت: فكانتْ أطولنا يداً زينب لأنَّها كانت تعملُ بيدها وتتصدَّق.

* مرةً أخرى تروي أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بشارة زينب أمّ المؤمنين بالجنَّة وتذكر مناقبها وفضْلَها فتقول: يرحمُ الله زينب بنت جحش لقد نالتْ في هذه الدُّنيا الشَّرفَ الذي لا يبلغه شرف، إنَّ الله عزَّ وجلَّ زوَّجها نبيّه ﷺ في الدّنيا ونطقَ به القرآن، إنَّ رسول الله ﷺ قال لنا ونحنُ حوله: «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً»، فبشَّرها رسول الله ﷺ بسرعةِ لحوقها به عليه السَّلام وهي زوجته في الجنّةِ[2].

* وتروي عائشة ـ رضي الله عنها ـ اجتماع أمّهاتِ المؤمنينَ لمعرفةِ مَنْ أطول يداً منهن فتقول: فكنّا إذا اجتمعنا في بيتِ إحدانا بعد رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا في الجدار نتطاولُ، فلم نزلْ نفعلُ ذلك حتى توفيت زينبُ بنت جحش، وكانت امرأةً قصيرةً رحمها الله تعالى، ولمْ تكنْ أطولنا، فعرفنا حينئذٍ أنَّ النَّبي ﷺ إنَّما أرادَ بطول اليَدِ الصَّدقة، وكانت زينبَ امرأة صنَاع اليد، فكانت تدبغ

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٤٥٣).
(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥).

وتخرزُ وتتصدَّق به في سبيل الله عزَّ وجلَّ[1].

* وقبل أَنْ نُودِّع سيرة أمِّنا أمّ المؤمنين زينب ـ رضوان الله عليها ـ، لابدَّ أَنْ نعرفَ أنَّها مِنْ رواياتِ الحديث، روت عن رسول الله ﷺ أحد عشر حديثاً، أخرج لها منها في الصَّحيحين حديثان متفق عليهما، وذكر الذَّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ حديثَها في الكُتُب السِّتة، وقد روى عنها: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأمّ المؤمنين أم حبيبة، وزينب بنت أبي سلمة، وأرسل عنها القاسم بن محمد[2].

* وفي ختام رحلتنا المعطار في حياة أمّنا زينب ـ رضي الله عنها ـ وأرضاها نقرأُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر في هذا صفة الصفوة (٢/ ٤٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٢١٤)، والإصابة (٤/ ٣٠٧)، والاستيعاب (٤/ ٣٠٨).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢ و٢١٨).





أم المؤمنين
عائِشَـةُ بنْـتُ الصِّدِّيق
رضي الله عنها

* جاء جبريل عليه السلام بصورة عائشة في خرقة خضراء إلى النبي ﷺ وقال: «هذه زَوجتك في الدُّنيا والآخِرة».

* «إنَّـهُ ليهوّنُ عليَّ أنِّي رَأيتُ بياضَ كَفِّ عائشة في الجنَّـةِ».

حديث شريف



الشَّجَرُة الطَّيِّبَةُ:

* سأل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ: أيّ النَّاس أحبُّ إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة»، قال: فَمِنَ الرِّجال؟ قال: «أبوها».

* والنَّبي الكريمُ ﷺ لا يحبُّ إلا طيّباً، فقد أحبَّ أفضل رجل من أمّته، وأفضل امرأة من أمّته، ومن أحبَّ حبيبيَ رسول الله ﷺ فهو حري أنْ يكونَ حبيباً إلى الله ورسوله.

* وحبيبةُ رسول الله ﷺ هي عائشة بنت الصِّديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة... القرشية التَّيمية المكية النَّبوية أمّ المؤمنين زوجة النَّبي ﷺ[1].

* وأمُّ عائشة هي أمُّ رُومان بنت عامر بن عويمر الكنانية.

* وأختها لأبيها أسماء ذات النِّطافين، عاشت مئة سنة، وهي من أهل الجنة.

* وأخوها الشَّقيق عبد الرحمن، واحدٌ من أبطال الإسلام.

* وأخواها لأبيها عبد الله ومحمّد، من فرسان مدرسة النُّبوة ونجبائها.

* في هذا البيت البكري الطَّيب، بيت الصِّدق والإيمان، ولدت عائشة بمكةَ قبل الهجرة بسبع سنوات، فهي ممن وُلِدَ في الإسلام، وكانت تقول: لم أعقلْ أبويَّ إلا وهما يدينان الدِّين.

* من هذه الشَّجرة الزَّكية أنْبتَ الله عائشة نباتاً حسناً، وكان لها شأنٌ عظيم بين نساء الإسلام.

الصِّدِّيقَان:

* كان الإمام مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي التَّابعي الجليل

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

إذا حدَّثَ عن عائشة قال: حدثتني الصِّديقة بنت الصِّديق، حبيبة حبيبِ الله، المبرأة في كتاب الله[1].

* هذه الصّديقة رضعت لبان الصِّدق من أبويها، وتغذّت على مائدة النّبوة المحمدية، فلا عجب أَنْ تكونَ فريدة بين النِّساء، وأن تحظى بحبِّ رسول الله ﷺ لها؛ إذ جمعت كل صفات الخير من جميع أطرافه، ولذلك حظيت بلقَبِ الصِّديقة.

* ولله درّ أبي نُعيم عندما وصفها بقوله: الصِّديقةُ بنتُ الصِّديق، العتيقةُ بنت العتيق، حبيبةُ الحبيب، وأليفة القريب، سيّد المرسلين محمّد الخطيب، المبرأة من العيوب، المعرّاة من ارتياب القلوب، لرؤيتها جبريل رسول علام الغيوب، عائشة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

* وجمعت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ من العلم والفضل ما جعلها مثلاً طيّباً في هذا المضمار، إذا تركتْ في الدّنيا آثاراً مباركةً ما تزال قائمة إلى ما شاء الله.

الصِّدِّيقــةُ أُمُّ المُــؤْمنيــنَ:

* هذا اللقب العظيم ـ أمّ المؤمنين ـ حظيتْ به عائشة من الله سبحانه، حيث كات تزويج النّبي ﷺ بها بوحي من الله؛ إِثْر وفاة الطّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

وقد تحدَّث النَّبي ﷺ عن هذا حينما قال لأمِّنا عائشة: «أُريتُكِ في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملَكُ في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفُ عن وجهكِ فإذا أنتِ هي، فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يُمْضِهِ»[2].

* وأراد الله سبحانه الخير لعائشة، وأعدَّهَا لتكون زوجة لنبيّنا ﷺ، ورفعها بذلك مكاناً علياً، وأضحى النّبي ﷺ يوصي بها أمَّها قائلاً: «يا أمّ

---

(١) انظر حلية الأولياء (٢/ ٤٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥١).
(٢) الحديث متفق عليه، ورواه كذلك الإمام أحمد في مسنده.

رومان استوصي بعائشة خيراً واحفظيني فيها».

* ولما حان الوقت المناسب، جاء رسول الله ﷺ، وعقد على عائشة، وأصدقها أربعمئة درهم، وسعِدَ الصِّديقُ بهذا النَّسب الذي زاده طيباً إلى طيب.

* ورحل الصِّديق عن مكةَ إلى المدينة مهاجراً بصحبة رسول الله ﷺ، ولم يعلمْ بهذه الهجرة المباركة إلا سيّدنا علي بن أبي طالب وآل الصديق رضي الله عنهم، وعندما وصل الرسول ﷺ أرسل في طلب أهله، وبعث أبو بكر في طلب أسرته أيضاً، وقدمت الأسرتان، وكانتِ العنايةُ الإلهية تحيط بهما.

* وقد أكرم الله سبحانه عروس النَّبي ﷺ بمكرمةٍ مباركة، إذ نفر جَمَلُ عائشة فجعلت أمُّها تقول: وابنتاه واعروساه، وفجأة هدأ الجمل وسلّم الله سبحانه، وتابعتِ القافلة المسيرَ حتى دخلتِ المدينة، ونزلت عائشة مع عيال أبيها في دار بني الحارث بن الخزرج.

الحَـدَثُ السَّـعيـدُ:

* في رمضانَ من السَّنة الثَّانية للهجرة، نصر الله المؤمنين في بَدْر، وسرىٰ الفرح في أرجاء المدينة بهذا النَّصر العظيم، وفي شهر شوال من السَّنة نفسها، انتقلتْ عائشة من روضة أبيها إلى بيت الزَّوجية، بيت النُّبوة ومهبط الوحي، وسكنت في حجرة ملاصقة للمسجد النَّبوي الشَّريف، وكنَّاها رسول الله ﷺ أمّ عبد الله[1].

* وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما زُفَّتْ إلى النّبي ﷺ حديثة السِّن، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يقدِّرُ ذلك، فكانت تلعبُ باللُّعب مع صويحباتها، وكان النَّبي الكريمُ ﷺ يرسلهن إليها ليلعبن معها.

* روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ سرور النَّبي ﷺ لسرورها فقالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا ألعبُ بالبنات ـ اللعب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة»؟.

---

(١) انظر الفتح الرباني (٢٢/ ١١ و١٢).

فقلت: خَيْل سليمان ولها أجنحة. فضحك[1].

حَبيبَــةُ الحَــبيب ﷺ:

* كانت أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ امرأة بيضاء جميلة، ولم يتزوج النّبي ﷺ بكراً غيرها، ولا أحبَّ امرأة حبَّها، قال الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ:

ولا أعلم في أمّة محمّد ﷺ، بل ولا في النِّساء مطلقاً امرأة أعلم منها. . . ونشهد أنّها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر[2]؟.

* ومن بركات حبيبة الحبيب ﷺ، أنَّ حجرتها الشَّريفة أضحت مهبط الوحي، لكثرة الوحي الذي هبط على النَّبي ﷺ فيها، فأكرمْ بالحبيبة وبحجرتها!.

* احتلت أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قلب النّبي الكريم منزلة عظيمة في المحبة لم تسبقها إليه إلا أمُّنا خديجة بنت خويلد ـ رضوان الله عليها ـ، وقد عرف الصَّحابة الكرام لعائشة هذه المنزلة المباركة، فأكبروا ذلك لها، أضف إلى هذا، أنَّ أمهات المؤمنين قد اعترفن لعائشة بهذه المكانة، وفي مقدمتهن أمُّ المؤمنين أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ.

مِـنْ مَـكَـارِمهَـا:

* حظيت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بفضائل باهرةٍ لم تحظَ بها امرأة مِنْ نساء المسلمين قطّ، وكل فضيلة من هذه الفضائل جديرة بأن تجعلَ أي امرأة تطاول عنان السّماء.

* لنستمع إلى أمّنا تروي ما رُزقت به من مكارم حسان فتقول: لقد أعطيتُ تسعاً ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران.

* لقد نزل جبريلُ بصورتي في راحته؛ حتى أمَرَ رسول الله ﷺ أنْ

---

(١) الطبقات (٨/ ٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٠).

يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري.

* ولقد قُبِضَ ورأسه في حجري.

* ولقد قبرتُه في بيتي.

* ولقد حفَّتِ الملائكةُ ببيتي؛ وإنْ كان الوحي لينزل عليه وإنّي لمعَه في لحافه.

* وإنّي لابنة خليفته وصدِّيقه.

* ولقد نزل عذري منَ السَّماء.

* ولقد خُلقتُ طَيِّبة عند طيّب.

* ولقد وُعدتُ مغفرةً ورزقاً كريماً[1].

* وما أجمل ما قاله الشَّيخ عبد القادر الجيلاني، على لسان أمّنا عائشة من قصيدة لطيفة:

إنـي خصصـتُ علـى لسـانِ محمّـدٍ
بصفـاتِ بـرٍّ تحتهـن معـانـي

وسبقتُهـنَّ إلـى الفضـائـل كلِّهـا
فـالسَّبْـقُ سبقـي والعنـان عنـانـي

زوجـي رسـول الله لـم أرَ غيـره
الله زوَّجنـي بـه وحَبَـانـي

وأتـاه جبـريـلُ الأميـنُ بصـورتـي
فـأحبَّنـي المختـارُ حيـن رآنـي

وأنـا ابنـةُ الصِّـديـق صـاحـب أحمـدٍ
وحبيبـهُ فـي السِّـر والإعـلان

* ومنْ مكارم عائشة ـ رضي الله عنها ـ حبّ النّبي ﷺ حباً مستفيضاً،

---

(1) انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٤١)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٤١) وتفسير الكشاف (٣/ ٣٢٥)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥١).

ومما يدلّ على ذلك أنَّ الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقرباً إلى مرضاته ﷺ، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أَنْ يهديها له أخّرها حتى إذا كان في بيت عائشة بعث بها إلى رسول الله ﷺ، فتكلَّم نساءُ النَّبي وقُلن لأمِّ سلمة أمّ المؤمنين أَنْ تكلِّم رسول الله ﷺ أَنْ يهدوا له أينما كان، فذكرت أمُّ سلمة له ذلك، فسكتَ ولم يَردَّ عليها، فعادتِ الثَّانية فلم يرد عليها، فلما كانتِ الثالثة قال: «يا أمّ سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنَّه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»[1].

* وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تعرفُ مكانتها الأثيرة في قلب النَّبي الكريم ﷺ، وتعتبر هذا من المكارم التي حباها الله بها، وكانت تتحدث عن هذه النعم فتقول: إنَّ من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيته وبين سحري ونحري[2].

مِنْ فَضَائِلِهَا:

* لأمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فضائل ومزايا خصَّها الله بها، فنالت بذلك المنزلة الرّفيعة عند رسول الله ﷺ، ولذا قال عنها مشيراً إلى فضلها «إنّها ابنةُ أبي بكر»[3].

ومَنْ كأبي بكر رضي الله عنه؟ أليس هو الصِّديقُ الأكبر صَفِيُّ النَّبي ﷺ؟ ومَنْ لو اتخذ خليلاً لاتّخذه خليلاً؟ أليس الصَّديق كالغيثِ أينما حلَّ نفع؟.
ورحم الله من قال:

لا تفضِّلْ على العتيقِ[4] صَديقاً
فهو صدِّيق أحمدَ المختارِ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وانظر صفة الصفوة (٢/ ١٩).
(٢) الحديث متفق عليه، والمعنى أن رسول الله ﷺ مات وهو مستند إلى صدرها ـ رضي الله عنها ـ.
(٣) رواه الإمام مسلم.
(٤) العتيق: من ألقاب سيدنا أبي بكر رضوان الله عليه.

وإن ارتبـتَ فـي الأحـاديـثِ فـاقـرأ
﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾

* أَوَلا يكفي هذا الفضل عائشة ـ رضي الله عنها ـ؟.

* وفي فضل عائشةَ قال ﷺ: «فضلُ عائشة على النِّساء، كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

* ومن فضائل أمِّنا عائشة أنَّها كانت مع رسول الله ﷺ في غزوة بني قريظة، وأنَّ جبريل أهداها السَّلام، روت هذا فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشُ هذا جبريل وهو يقرأ عليك السَّلام» قالت: وعليه السَّلام ورحمةُ الله، ترى ما لا نرى يا رسول الله[2].

* وفضائل أمّ المؤمنين عائشة ليس لها حَصْر، ويكفيها فضلاً أنَّ القرآنَ نزل بسببها خاصّة، فهلْ فوق هذا مِنْ فضل؟.

صُـوَرٌ مِـنْ جِهَـادِهَـا:

* مِنَ البركات التي تُضَمُّ إلى سيرة أمِّ المؤمنين عائشة؛ تلك الصَّفحات ذات الأريج المعطار التي خطتها في ساحات الجهاد مع رسول الله ﷺ.

* ومما يدعو إلى الوقوف وقفة إعجاب، أنَّ أمَّنا عائشة كانت تشارك في الجهاد كأيّ امرأةٍ دون تمييز، وذلك ضمن الحدود التي وضعها الشَّرع من سقاية الماء، وتمريض الجرحى، وإعداد الطعام. . .

* ففي أُحُد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تشارك في حمل الماء على عاتقها لسقاية المجاهدين، وكانت ما تزال صغيرة السِّن، ولكنّها شاركت للمرة الأولى في هذه الغزوة؛ روىٰ سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مهمة أمّ المؤمنين في هذه الغزوة فقال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٢) الحديث رواه البخاري في بضعة مواضع في صحيحه، ورواه الإمام مسلم والترمذي وأبو داود، وانظر الدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٧٠).

ولقد رأيتُ عائشةَ بنت أبي بكر، وأمُّ سُليم، وإنَّهما لمشمرتان؛ أرىٰ خَدَمَ ـ خلخال ـ سوقهما، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم[1].

* وفي غزوة الخندق، كانت لأمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ شجاعة نادرة وجرأة مشهورة، حتى إنّ سيّدنا عمر بن الخطاب أنكر جرأتَها لما رآها تقترب منَ الصُّفوف الأولى للمجاهدين، وقد تحدثت عائشة عن هذا فقالت: خرجتُ يومَ الخندق أقفو النَّاس، فسمعتُ وئيدَ الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنَّه، فجلستُ إلى الأرض، فمرَّ سعدٌ وعليه درع مِنْ حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوفُ على أطرافِ سعد، وكان مِنْ أعظم النَّاس وأطولهم، فمرَّ وهو يرتجز ويقول:

لبّـــثْ قليـــلاً يـــدركِ الهيجـــا حَمَـــلْ

مـــا أحســـنَ المـــوتَ إذا حـــان الأجـــلْ

فقمتُ فاقتحمتُ حديقةً فإذا نَفَرٌ مِنَ المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه سبغة له ـ تعني المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بكِ والله إنَّكِ لجريئة وما يؤمنك أَنْ يكونَ بلاء أو يكون تحوّز، فما زال يلومني حتى تمنيتُ أَنَّ الأرض فُتحتْ ساعتئذٍ فدخلتُ فيها، فرفع الرَّجل السّبغة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر ويحك إنَّك قد أكثرتَ منذ اليوم وأين التحوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى[2]؟!.

* وعندما خرج النّبي ﷺ إلى غزوة بني المصطلق، كانت عائشة ممن خرج سهمها، فخرجت لتؤدي واجبها، وفي هذه الغزوة امتُحنت أمُّنا عائشة محنة من أشدِّ وأقسى المحن، ولكنَّ الله سبحانه أدركها بعنايته، وخرجت من

---

(١) الحديث متفق عليه، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٧٦).
(٢) انظر في هذا البداية والنهاية (٤/ ١٢٣)، وتفسير ابن كثير للآية (٢٧) من سورة الأحزاب، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٢١ و٣٢٢)، والطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٢).

المحنة بشهادة ربانية مباركة، تُتلى إلى يوم الدين في بيوت أَذنَ الله أنْ تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وفي كل مكان وبيت عِلْم على وجه الأرض.

عَـائشَـةُ والمحنـة الكُبـرى:

* لم تسترحْ نفوسُ المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يوماً بعد يومٍ، ووجدوا أنَّ مكانَتهم بدأت تنحسر وتتلاشى إلى أَنْ مقتَهم مجتمعهم، فأرادوا ـ بزعمهم ـ أَنْ يوجهوا ضربةً قاصمة إلى النَّبي الكريم ﷺ، فرموا أمَّنا الطَّاهرة الصِّديقة بنت الصِّديق بالبهتان العظيم.

* وكان عبد الله بن أبي ابن سلول قد تولّد النِّفاق والحسد في قلبه مِنْ أول يوم سمع فيه بالإسلام، وطفق يكيدُ للنبي ﷺ وللإسلام المكيدة تلو الأخرى، ولكنَّ حكمةَ الله سبحانه كانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تلجمهم وتكبتُهم.

* وكان لحديثِ الإفك وقعٌ أليمٌ على قلب أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومرَّتْ عليها وعلى البيت النّبوي الطَّاهر والبيت البكري الصَّادق أوقاتٌ قاسية حرجة، امتدت إلى شهر من الزَّمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للعفيفة الصِّديقة بنت الصِّديق، وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن المعطل الذي رُمي بالحديث الآثم، كما وسَمَتِ المنافقين بميسم الزّور والبهتان الذي ظلَّ يلاحقُهم إلى النِّهاية.

وفي السّطور التَّالية نعيش مع البيت النّبوي، ومع أمّنا عائشة لنشهد براءتها الرَّبانية المختومة بالرَّحيق. . .

* وأود هنا ـ عزيزي القارىء ـ أَنْ أقفَ وقفات تربوية مع حادث الإفك؛ نتعرف من خلاله التّربية القرآنية والتّربية النّبوية للمرأة والمجتمع.

لُـؤْمُ المُنـافِقيـنَ:

* نصرَ الله سبحانه رسوله والذين معه على بني المُصطلق نصراً مؤزراً، وقد ملأَ هذا النَّصر المبارك نفوس المنافقين غيظاً وحقداً، وجعل في قلوبهم

غصة كادت تكتم أنفاسهم، فاخترعوا الإفك في مصنع نفاقهم على أمِّ المؤمنين عائشة حبيبة الحبيب ﷺ.

* وكان الذي أشاعَ الإفك وتولىٰ كِبْرَه، الخبيث الفاجر زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وكانت فتنة عمياء كادت تصيبُ المجتمع المسلم بهزة أليمة، روَّجها المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ممَّنْ لم يعمرِ الإيمانُ قلوبهم، وممن لا ينكرون ما سمعوه من الحديث الآثم لضعف إيمانهم، ووصَفَهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

* ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أَنْ يجعلَ من هذه الحادثة درساً بليغاً فيه التَّأديب، وفيه النكال للنّفاق والمنافقين والمرجفين، كما جعل الله من هذه الحادثة كرامة عظيمة ليرفع من شأن أمِّنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ وأَنْ يُظهرَ مكانتها في أهل البيت الذي أذهبَ عنه الرجسَ وطهّره تطهيراً.

«كَـيْفَ تِـيْـكُم»:

* حديثُ الإفك ـ عزيزي القارىء ـ قد رُوي في الصَّحيحين وكُتُب السُّنة وكُتُب السِّيرة، كما رُوي في التَّفاسير جميعها لسورة النُّور، وأمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي التي روته، وسنقتطفُ من حديثها فقراتٍ كاشفة، وذلك من حديثها الطّويل ـ وسنعتمد رواية البخاري ـ قالت ـ رضي الله عنها ـ تصف حالتها:

(. . . . فقدمنا المدينةَ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والنّاسُ يفيضون في قولِ أصحاب الإفك لا أشعرُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو يريبني في وجعي أنِّي لا أعرفُ مِنْ رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم يقول: «كيف تِيكم». ثم ينصرف. . . .).

«كيف تِيْكُم»؟ كلمةٌ خاليةٌ مِنْ دِفء الحبِّ الذي كانت تعهده عائشة ـ رضي الله عنها ـ! وخالية من حرارة الشَّوق التي كانت تفعم قلبها الطَّاهر بالسّرور، ماذا جرى؟ يا لها من مصيبة، الأيام تمرُّ، والرَّسول الكريم لا يزيدُ على قوله وسؤاله: «كيف تِيْكُم»؟ ولكن لا بدَّ لسحابةِ الحزن القاتمة هذه مِنْ

أَنْ تنجلي، ولا بدَّ لقيدِ المنافقين أَنْ تكسره الحقيقة.

الخَبَرُ الأَلِيْمُ:

* كانتْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لا تدري عن أَمْرِ الإفك شيئاً، بَيْدَ أنها لاحظت أنَّ الأجواءَ حولها قد تجهمت بعد عودتها من غزوة بني المصطلق، فذهبتْ إلى بيت أبيها، ولما خرجت إلى الخلاء، أخبرتها أمُّ مِسْطح بن أثاثة ابن عبَّاد القرشي المطلبي بقولِ أهل الإفك؛ فكاد أَنْ يغمى عليها، وبكَتْ ليلتين ويوماً، ولم تَنَمْ حتى كاد البكاء يفتتُ كبدها، ولنتابعْ معها بقية الحديث فتقول:

(. . . . . فبينا نحنُ على ذلك، دخل علينا رسولُ الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس ـ ولم يجلسْ عندي منذ قيل ما قيل قبلها ـ وقد لبثَ شهراً لا يُوحىٰ إليه في شأني، فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أمّا بعد: يا عائشة فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه. . . .»).

* الله أكبر ما أعظم هذا الكلام! ولكنْ. . .

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه
يكون وراءه فرج قريب

«فَصَبْرٌ جَميلٌ»:

* كانت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تصغي بكلِّ جارحة فيها لقول الحبيب المصطفى ﷺ، وكانت الدموع تنحدر من عينيها، ولما قضى النبي الكريم ﷺ حديثه، خيَّمَ الصَّمتُ على المجلس، وقَلَص دمعُها، ودبّتْ فيها الجرأة فقالت:

(. . . . فقلتُ لأبي: أجبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال.

قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ.

فقلتُ لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال.

قالت: فوالله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ.

فقلت وأنا جارية حديثة السِّنِّ لا أقرأُ مِنَ القرآن كثيراً: إنّي والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقْتُم به، فلئن قلتُ لكم إنّي بريئةٌ ـ والله يعلم أنّي بريئة ـ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمر ـ والله يعلم أنّي منه بريئة ـ لتصدقُني، والله ما أجدُ لكم مَثَلاً إلا قول أبي يُوسف[1] قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ . . .) [يوسف: ١٨].

* * *

الشَّهادةُ الرَّبانيةُ الزّكيةُ:

* آنَ للحقيقة أَنْ تظهرَ وتنجاب ظلمات الفتنة، فما أتمت عائشةُ حديثها، حتى أنزلَ الله براءتها من فوق سبعةِ أرقعة، وهذه البراءة مختومة بخاتم ربِّ العالمين. . . قالت عائشة:

(. . . . فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ ولا خرج أحدٌ من أهل البيتِ حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه مِنَ البُرحاء حتى إنَّه ليتحدرُ مثل الجُمان من العَرَقِ ـ وهو في يوم شَاتٍ ـ من ثِقَلِ القول الذي ينزل عليه.

قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ، سُرِّيَ عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلَّم بها: «يا عائشة أمّا الله عزَّ وجلَّ فقد برَّأكِ».

فقالت أمي: قومي إليه.

فقلتُ: والله لا أقومُ إليه ولا أَحْمَدُ إلا الله عز وجل.

وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ . . العشر الآيات كلها. . . .)[2].

---

(١) يعقوب عليه السَّلام.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري (٦/ ١٢٧) وما بعدها، وانظر أسباب النزول=

* وهكذا كانت هذه الشَّهادة الرَّبانية لأمِّنا عائشة تنزيهاً لساحتها، وإعزازاً للنبي الكريم، وتكريماً لآلِ أبي بكر الذين بلغت منهم المحنة شدة هزَّتْ كيانهم، وزلزلتْ أقدامهم، ووصفتهم عائشة بقولها: والله ما أعلمُ أهلَ بيتٍ دخَلَ عليهم ما دخل على آلِ أبي بكر في تلك الأيام.

* وهكذا أكْرَمَ الله سبحانه المؤمنين بفضله، وردَّ كيد المنافقين إلى نحورهم، ولله درُّ الشَّيخ عبد القادر الجيلاني إذ يقول على لسان عائشة في هذا المقام:

وتكلّم الله العظيمُ بِحُجَّتي ... وبراءتي في مُحكم القرآنِ
والله في القرآن قد لَعَنَ الذي ... بعد البراءة بالقبيح رماني
والله فَضَّلني وعَظَّمَ حُرْمَتي ... وعلى لسان نَبِيِّه بَرَّاني
والله وَبَّخ مَنْ أرادَ تنقُّصي ... إفْكاً وَسَبَّحُ نفسَه في شاني[1]

* تلك فتنةُ الإفك الخرساء التي أثارها زعيم المنافقين ورأس النفاق ابن سلول، فخاب سعيه وسعيُ مَنْ انضوى تحت جناحه المهيض، وحفظ الله أمّ المؤمنين عائشة وأمهات المؤمنين أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور: ٢٦].

* * *

شَهَاداتٌ مُباركَةٌ:

* شَهِدَ الله سبحانه وتعالى لأمِّنا عائشة بالبراءة والطيب، وأنزل بطهرها شهادة لا تمحوها الأيام، وأعْلى مِنْ مقامها في نفوس المؤمنين إلى أَنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها.

* وقد شهد لها النّبي ﷺ بالفضل والخير، ولا يعرف الفضل لأهلِ الفضل

= للواحدي ص (٢٦٥) وما بعدها، والدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٤٠) وما بعدها.

(١) انظر كتاب «المحاسن المجتمعة» ص (٩٣). وقيل: إن هذه القصيدة لأبي عمر بن موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي الواعظ في مدح عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

إلا أولو الفضل، ومَنْ أفضلُ مِنْ رسول الله ﷺ؟ فقد قال عنها: «والله ما علمت على أهلي إلا خيراً».

* وأدلتْ أمّهات المؤمنين شهادات طاهرة لعائشة، فلمْ يُؤْثَر عن واحدة منهن أنَّها قالت كلمة سوء فيها، ولأمّ المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ موقف نبيل فوّاح بالبركة، وذلك حينما سألها النَّبي ﷺ عن عائشة قبل نزول الوحي ببراءتها فقال لها: «ما علمتِ أو رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيتُ إلا خيراً[1].

* ومدح سيّدنا حسان بن ثابت أمّ المؤمنين عائشة بقصيدة طيبة ذكر فيها طهرها وبعض فضائلها فقال:

حصانٌ رزان ما تُزَنُّ بريبةٍ
وتصبحُ غرثى من لحوم الغوافلِ

مهذبة قد طهَّر الله خِيمها[2]
وطهَّرها من كلِّ بغي وباطلِ

وقالت كَبْشةُ بنتُ رافع[3] وهي أمُّ الصَّحابي الجليل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ تمدح عائشة وتشهد بفضلها وطيب عنصرها:

تتقي الله في المغيب عليها
نعمة الله سرُّها ما يريمُ

خيرُ هدي النِّساء حالاً ونفساً
وأباً للعُلا نَمَاها كريمُ

للموالي إذا رَمَوْها بإفكٍ
أَخَذتْهُم مقامعٌ وجحيمُ

---

(١) اقرأ هذا الخبر مفصلاً في سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش في هذا الكتاب ففيه ما يسر النفس.

(٢) خيمها: طبعها.

(٣) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة كبشة بنت رافع ـ أم سعد بن معاذ ـ في هذا الكتاب.

لَيـتَ مَـنْ كَـان قَـد قَفَـاهـا بِسُـوء فـي حطـام حتـى يسـول اللئيـم[1]

وقال عروة بن الزّبير يشهد بفضل عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلو مجدٍ، فإنَّها نزل فيها منَ القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة[2].

* * *

مَعَ القُـرآنِ مَـرّةً أُخْـرى:

* من بركاتِ أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، نزل آية التَّيمُّم بسببها تيسيراً على المسلمين، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطعَ عقْدٌ لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام بالنَّاس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى النّاس إلى أبي بكر الصِّديق فقالوا: ألا ترى ما صنعتْ عائشة، أقامتْ برسولِ الله ﷺ وبالنَّاس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟. فجاء أبو بكر ورسولُ الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام.

قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أَنْ يقولَ، وجعل يطعنُني في خاصرتي ولا يمنعني منَ التَّحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسولُ الله ﷺ حتى أصبح على غيرِ ماء، فأنزل الله آية التَّيمم[3].

* وذكر الذَّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ الله لما أنزل الرخصةَ للمسلمين بالتّيمم جاء سيِّدُنا أبو بكر وقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: والله ما علمت يا بنية إنّكِ

---

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٣٥).
(٢) انظر: أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠٨٥).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ٦٤)، وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣١)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٠)، وانظر كذلك الفتح الرباني (٢٢/ ١٢٣).

لمباركة! ماذا جعل الله للمسلمين في حَبْسِكِ إياهم مِنَ البركة واليُسر[1].

* وما أجمل قول الصَّحابي الجليل سيّدنا أُسَيد بن الحضير في آل أبي بكر عندما نزلت آية التّيمم: لقد باركَ الله للناس فيكم، يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم[2].

* ولما نزلتْ آية التّخيير كان لأمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ موقفٌ يفيضُ بركةً وقناعةً وطهراً، فقد بدأ رسول الله ﷺ بسؤالها ـ وذلك لمكانتها وكرامتها عنده ـ فقال: «إنّي ذاكر لكِ أمراً فلا عليك أَنْ تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أنَّ أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه.

قالت: ثم قال: إنَّ الله قال: ﴿يا أيها النّبي قُل لأزواجك. . . .﴾ إلى تمام الآيتين، فقلتُ له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟! فإنّي أريدُ الله ورسوله والدّارَ الآخرة[3].

قالت: ثم فعل أزواج النّبي ﷺ مثل ما فعلتُ.

* * *

فِـرَاقُ الحَبِـيْـبِ ﷺ:

* البركةُ تلاحقُ أمّ المؤمنين عائشة في جميع أطوار حياتها، وخاصة حياتها مع النَّبي الكريم ﷺ، فقد حظيتْ بشرفٍ عظيمٍ وهو خدمة النّبي ﷺ وتمريضه في بيتها، بعد أن استأذن أزواجه الطّاهرات في ذلك، فأذنَّ له أَنْ يكونَ حيث أحبَّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧١).
(٢) الحديث رواه البخاري (٦/ ٦٤)، وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٦٢٧).
(٣) الحديث متفق عليه، واللفظ للبخاري، انظر صحيح البخاري (٦/ ١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٨ و٤٨٩)، والدر المنثور (٦/ ٥٩٦). والآيتان هما ٢٨ ـ ٢٩ من سورة الأحزاب.

ومات ﷺ في حجرتها الشّريفة، وروت أمُّ المؤمنين عائشة وفاة النبي ﷺ فقالت:

إنَّ مِنْ نعم الله عليَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأنَّ الله جمعَ بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السِّواك، وأنا مسندةٌ رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفتُ أنَّه يحبُّ السِّواكَ. فقلتُ: آخذه لك؟ فأشار برأسه أَنْ نَعَم. فتناولتُه فاشتدَّ عليه، وقلت: أليّنهُ لك؟ فأشارَ برأسه أَنْ نَعَم، فلينتُه وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدخل يدَهُ في الماء فيمسح به وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إنَّ للموتِ سكرات» ثم نَصَب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالت يده[1].

* كان موتُ النَّبي ﷺ حدثاً أذهل العقول، وفزَّعَ القلوب، وروّع الأنفس، وبدا النّاسُ في شأنه حيارى، ولكنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ ظلت ثابتةَ القلب والنّفس، كما كان سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثابت القلب والنّفس أيضاً، ولله در الصِّديقَيْنِ في هذا الموقف العظيم!.

ودُفن النَّبي ﷺ في بيت الصِّديقة عائشة فنالت بذلك شرف الدَّارَيْن، وظلت حجرتها قبلة القُصَّاد لجميع المسلمين ليلقوا السَّلام على النَّبي الكريم ﷺ.

* ومنَ المكارم التي اختصت بها أم المؤمنين عائشة أنّها رأت في نومها كأنَّ ثلاثةَ أقمار سَقَطْن في حجرتها، فقال لها سيدنا أبو بكر: إنْ صدقَتْ رؤياكِ دُفِنَ في بيتك خير أهل الأرض.

فلما مات النّبي الكريم ﷺ قال لها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: هذا أَحَدُ

---

(١) الحديث ورواه البخاري، وانظر البداية والنهاية (٥/ ٢٣٩ و٢٤٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٢٠٦ و٢٠٧).

أقمارك وهو خيرُها[1]، ثم دُفن في بيتها أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وضمَّت بذلك الأقمار الثلاثة.

* ومن البركاتِ التي تُضَمُّ إلى بركات أمّنا عائشة في هذا المجال حبّ النّبي ﷺ بيتها وحجرتها، وفي ذلك قال عليه الصّلاة والسَّلام: «لا يُقبضُ النَّبي ﷺ إلا في أحبِّ الأمكنة إليه»[2]، وهكذا كان.

* * *

عائشَـةُ وحـديثُ الـرَّسول ﷺ:

* أمُّ المؤمنين عائشة ذاتُ فضائلَ لا تُحصى، فهي مِنْ السَّبْعةِ الذين أكثروا روايةَ الحديث عن النَّبي ﷺ، وقد تلقّتِ الحديثَ عنِ النَّبي الكريم مباشرة، ولها فضلٌ كبيرٌ في نَقْل السُّنَّةِ النَّبويةِ الفعليةِ، وتعليمها النَّاس.

* كما تُعتبر حجرتها الشَّريفة المدرسة الأولى في الدنيا؛ التي يُؤخذ منها الحديثُ الشَّريف، وذكر الذَّهبي ـ رحمه الله ـ روايتها الحديث فقال: فروَتْ عنه ـ ﷺ ـ علماً طيِّباً مباركاً فيه، وعن أبيها وعن عمر وفاطمةَ وسعد وحمزة بن عمرو الأسلمي وجدَّامة بنت وهب، وروى عنها خلقٌ كثيرٌ لا يُحْصَوْن، وأورد الذَّهبي عدداً من الرُّواة أخذوا عن عائشة وهم من الصَّحابة والتَّابعين وأهل بيتها ومواليها، وعدد من النِّساء، واستغرق في ذلك قرابة مئة رَاوٍ.

* ويبلغُ مسند أمّ المؤمنين عائشة ألفين ومئتين وعشرة أحاديث، اتفق لها البخاري ومسلم على مئةٍ وأربعة وسبعين حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين[3].

---

(1) عن أنساب الأشراف (١/ ٥٧٢) بتصرف يسير.

(2) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥ حتى ١٣٩).

(3) انظر المجتبى لابن الجوزي ص (٩٢)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥١)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٩).

* ولعله من الفائدة ذِكْر أسماء الصَّحابة المكثرين للرواية عن رسول الله ﷺ، الذين بلغتْ مروياتهم عنه أكثر من ألف حديث، وهم:

* سيّدنا أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدَّوسي ـ رضي الله عنه ـ، رُوي له عن النَّبي ﷺ (٥٣٧٤) حديثاً.

* سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رُوي له عن النَّبي ﷺ (٢٦٣٠) حديثاً.

* سيّدنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ، رُوي له عن النَّبي ﷺ (٢٢٨٦) حديثاً.

* أمُّنا عائشة الصِّديقة بنتُ الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ، رُوي لها عن النَّبي ﷺ (٢٢١٠) أحاديث.

* سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ، رُوي له عن النَّبي ﷺ (١٦٦٠) حديثاً.

* سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ رُوي له عن النَّبي ﷺ (١٥٤٠) حديثاً.

* سيّدنا سعدُ بنُ مالك ـ أبو سعيد الخُدري ـ رضي الله عنهما، رُوي له عن النَّبي ﷺ (١٥٤٠) حديثاً[١].

وقد نَظَم أسماء هؤلاء السَّبعة بعضُ الفُضَلاء؛ فقال:

سَبْعٌ مِنْ الصَّحْبِ فوق الألِف قد نقلوا
مِنَ الحديثِ عن المختار خير مُضَرْ
أبو هريرة سعدٌ جابرٌ أنسٌ
صِدِّيقةٌ وابنُ عبَّاسٍ كذا ابنُ عُمَرْ[٢]

* * *

(١) شذرات الذهب (١/ ٢٦١ و٢٦٢) طبعة دار ابن كثير.
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٦٤ و٢٦٥).

فـقْـهُهَـا وعلمُهـا:

* قال الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ عن أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أفقهُ نساءِ الأمة على الإطلاق.

* وهذا حقيقةٌ، فقد نشأتْ أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ في بيتِ الصِّدق، وعاشت في بيت النُّبوة، ونهلت منَ المعين النَّبوي الصَّافي، وشهدت أسباب نزول القرآن؛ ناهيك بأنَّ حجرتَها مهبط الوحي، فلا عجبَ أَنْ تكون أفقه نساء الأمة، ولذلك شاع عِلْمُها، وانتشر فضلُها في الأمصار، وفاقَتْ غيرها في معرفة الفرائض والسُّنن والفقه.

* واستقلّت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ بالفتوى في الخلافة الرّاشدة وبعدها إلى أَنْ ماتَتْ، وكان سيِّدُنا عمر وسيدنا عثمان يرسلان إليها فيسألانها عن السُّنن.

* وسُئِلَ الإمامُ مسروق ـ رحمه الله ـ فقيل له:

هل كانت عائشة تحسنُ الفرائض؟.

قال: إي والذين نفسي بيده، لقد رأيتُ مشيخة أصحابِ رسولِ الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض.

* وقد غُبِطَ عروةُ بن الزُّبير ـ ابن أختها ـ عندما قال عنه قُبيصةُ بنُ ذؤيب: كان عروةُ بن الزبير يغلبُـنَا بدخولهِ على عائشةَ، وكانت عائشةُ أعلم الناس[1].

* * *

زُهْـدُهـا وكَرَمُهـا:

* بلغت أمُّ المؤمنين عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ أعلى درجات الزُّهد بإعراضها عن الدُّنيا، وإقبالها على الله سبحانه، بالعبادة، وكانت كما وصفها

---

(١) انظر تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٣٥).

أبو نُعيم في حليته: كانتْ للدُّنيا قالية، وعنِ شرورها لاهية، وعلى فَقْدِ أليفها باكية.

* وكانت ـ رضي الله عنها ـ مضربَ المثل في الزُّهد، كما ضُربَ المثلُ في جودها، فلا يكادُ المال يثبتُ بيدها لحظات إلا يكون من نصيب الفقراء، وبلغ من كرمها أَنْ وزَّعتْ مئة ألف درهم في يوم واحد وهيَ صائمة، ولم تتركْ درهماً واحداً حتى قالت مولاةٌ لها: لو اشتريت لنا مِنْ هذه الدَّراهم بدرهم لحماً، فقالت: لو قُلتِ قبل أنْ أفرّقها لفعلْتُ.

أو ليس ابنة الصِّديق الكريمة ابنة الكريم الذي أنفَقَ مالَه كلّه في سبيل مرضاة الله؟!.

* ورحم الله الإمام الذَّهبي إذ قال عنها: كانت أمُّ المؤمنين من أكْرمِ أهل زمانها ولها في السَّخاء أخبار[1].

* وذكر عروة بن الزبير كرمها وسخاءها وزهدها فقال: لقد رأيتُ عائشة تقسم سبعين ألفاً وهي ترقع درعها.

* * *

عِبادتُهـا ووَرَعُهَـا:

* لا شكَّ أنَّ أمَّ المؤمنينَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت ألْصَق النَّاس برسول الله ﷺ، وتُعتبر عبادتها صورة وضيئة عن عبادة النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام.

فقد كانت ـ رضي الله عنها ـ تكثِرُ من الصّلاة وخصوصاً صلاة الليل متأسيةً بالنَّبي ﷺ.

وأمّا صومُها، فكانت تصومُ الدَّهر كما ذكر ذلك ابن الجوزي[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨).

(٢) انظر صفة الصفوة (٢/ ٣١). أي تصوم يوماً وتفطر يوماً.

وأمّا الورع فقد احتلت فيه مكاناً علياً، واتصفت فيه بجميع أعمالها، ومن ورعها الفقهي العملي احتجابها عن الأعمى، فقد ذكر إسحاق الأعمى قال:

دخلتُ على عائشة فاحتجبتْ مني، فقلتُ: تحتجبين مني ولستُ أراكِ؟.

قالت: إنْ لم تكُنْ تَراني فإنّي أراكَ[1].

* * *

أمُّ المؤمنين والشِّعر:

* قال موسى بن طلحةَ: ما رأيتُ أحداً أفصحَ من عائشة. نعم، كانت بليغةً فصيحةً حكيمةً؛ تلقَّتْ حكمتها وبلاغتها من القرآنِ الكريم، ورفدتْهُ بأدب النّبوة، ونشأت في بيتِ أبي بكر ـ وما أدراك ما أبو بكر! ـ فقد كان ـ رضي الله عنه ـ علاّمةَ قريش، وأعلمَ النَّاسِ بأنساب العرب وأيامهم.

وممّا يتوافقُ مع هذا ما رُوي أنَّ شاعرَ الرَّسول ﷺ حسان بن ثابت، لما أراد أَنْ يهجوَ مشركي قريش قال له رسول الله ﷺ: «كيف تهجوهم وأنا منهم، وكيف تهجو أبا سفيان ابن عمي»[2]؟.

فقال له حسان: والله لأسلّنكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين.

فقال له رسول الله ﷺ: «ائتِ أبا بكر فإنَّه أعلم بأنسابِ القوم منك».

فكان حسان يجيءُ إلى أبي بكر ليوقفه على أنسابهم، فجعل يهجوهم، فلمّا سمعوا هجوه قالوا: إنَّ هذا الشِّعرَ ما غابَ عنه ابنُ أبي قحافة[3].

* كانت أمُّ المؤمنين رضوان الله عليها تُوصي بتعليم الأولاد والنَّاشئة القرآن ثم الشِّعر والأدب، لتعذب ألسنتهم، وترقَّ طباعهم، وتهذب

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٦٩).

(٢) اقرأ سيرة الصحابي الجليل «أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب» في كتابنا رجال مبشرون بالجنة الجزء الثاني.

(٣) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٦٢٠).

نفوسهم، ومن الطَّريف أنَّها كانت تروي ألف بيت لِلَبيد بن أبي ربيعة وحده، وكانت تقدِّرُ شِعْرَ حسان بن ثابت وتدافعُ عنه.

وقد شهد لعائشة بحُسْنِ الحفظ عددٌ من الصَّحابة والتَّابعين حتى قيل: ربّما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً والمئة بيت[1].

وقلّما كان يحدثُ لها مِنْ أمْرٍ إلا وأنشدتْ فيه شعراً يلائمُ ذلك المقام، ومن أمثلة ذلك ما رواه الأصبهاني في الحلية أنَّها رأت رسول الله ﷺ مرةً يعرقُ جبينه، ثم جعَل عرقه يتولدُ نوراً، فتمثلت بقول أبي كبير الهذلي:

وإذا نظـــرتَ إلـــى أســـرةِ وجهـــه
بـــرقـــتْ بـــروقَ العـــارضِ المتهلـــلِ

* وكانت رضي الله عنها كثيراً ما تتمثل بقول الشاعر:

يجــزيــك أو يثنــي عليــكَ وإن مَــنْ
أثْنـى عليـك بمـا فعلـتَ كَمـنْ جـزى[2]

ومن أروع وقفاتها ما قالته عندما حضرتْ والدها الوفاة إذ تمثلت بقول حاتم:

لعمــركَ مــا يغنــي الثــراءُ عــن الفتــى
إذا حشــرجــتْ يــومـاً وضـاق بهـا الصَّـدرُ

فقال: لا تقولي هكذا يا بنية، ولكن قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

* ولما توفي أخاها عبد الرحمن بمكة، قدمتْ إليها وزارته وتمثلت بشعر مُتمم بن نويرة في أخيه مالك فقالت:

وكنَّــا كنــدمــانــي جــذيمــة بــرهــةً
مِــنَ الــدهــر حتــى قيــلَ لــن يتصــدعــا

---

(١) انظر في هذا طبقات ابن سعد (٨/ ٧٣).
(٢) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١٦٢).

فلمّــا تفــرقنــا كــأنّــي ومــالكــاً
لطــولِ اجتمــاعٍ لــم نَبِــتْ ليلــةً معــا[1]

* ونختم هذا الفصل بكلام طيّبٍ، فقد سمعَ النّبي الكريمُ ﷺ عائشة وهي تنشدُ شِعْرَ زهير بن حباب:

ارفــعْ ضعيفَــكَ لا يَحُــلْ بــك ضعفُــه
يــومــاً فتــدركــه عــواقــب مــا جنــى
يجــزيــكَ أو يثنــي عليــك وإنَّ مَــنْ
أثنــى عليــك بمــا فعلــتَ كمَــنْ جــزى

فقال النَّبي ﷺ: «صدقَ يا عائشة لا شكَرَ الله مَنْ لا يشكر النَّاس»[2].

* ورحم الله الإمام الجليل عامر الشَّعبي؛ الذي كان يتعجبُ من فقْهِ وعلْمِ وأدبِ عائشة ويقول: ما ظنّكم بأدبِ النُّبوة[3]؟.

* * *

أمُّ المـؤمنينَ والطِّـب:

* أُثر عن أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ معرفتها الطِّب، حتى أثار هذا العجب ابنَ أختها عروة بن الزبير وقال لها: يا أمتاه لا أعجبُ مِنْ فهمك، أقولُ زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمِكِ بالشِّعر وأيامِ النّاس، أقول ابنة أبي بكر وكان مِنْ أعلمِ النَّاس! ولكنْ أعجبُ مِنْ علمك بالطِّب كيف هو ومن أين هو؟.

قال: فضَربَتْ على منكبِهِ وقالت: أي عُريّة ـ تصغير عروة ـ إنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يسقمُ عند آخر عمره، فكانت تقدُم عليه وفودُ العرب مِنْ كلِّ وَجْه

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٧/ ٨٩)، وأعلام النساء (٣/ ١٢٠).
(٢) أعلام النساء (٣/ ١٢٠).
(٣) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٤١٦).

فتنعتُ ـ تَصِفُ ـ له الأنعات، وكنتُ أعالجها له، فمن ثم[1].

ولعائشة ـ رضي الله عنها ـ أقوالٌ تشير إلى معرفتها الطّب، وحسْنِ تعليلها للأمور، وقوة ملاحظتها، ناهيك بنعمة الذّكاء التي حباها الله.

ومن أقوالها في هذا المجال قولها: مَن أكلَ التَّمر وتراً لم يضره[2].

وقولها أيضاً: لا سَهَرَ إلا لثلاثةٍ: مُصَلٍّ، أو عروس، أو مسافر[3].

وهذا التّحليل يدل على معرفتها بضررِ السَّهر وعواقبه الوخيمة على الصِّحة.

* * *

منْ غُـرَرِ أَقْـوالها:

* ذكر الأعمش ـ رحمه الله ـ عائشة فقال: كان يُقال إنَّ عائشة رَجُلة الرأي[4].

* نَعَم فكلُّ ما أثِر عن أمّنا عائشة من أقوال مباركة تدلُّ على فَهمها وعقلها النَّاضج الذي تأثَّر بالقرآن وفيض النّبوة، ولأمِّ المؤمنين عائشة أقوالٌ رائعةٌ لو كُتبتْ بماءِ الذَّهب لكان قليلاً، اسمع إلى قولها عن المرأة: المِغْزلُ بيدِ المرأة، أحسنُ منَ الرُّمح بيَدِ المجاهد في سبيل الله[5].

* ومن نفائسِ أقوالها المباركة: التمسوا الرِّزق في خبايا الأرض.

---

(١) انظر الحلية (٢/ ٥٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٢)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٤٢)، والفتح الرباني (٢٢/ ١٢٤).
(٢) عيون الأخبار (٣/ ٢٠٢).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٤١).
(٤) أنساب الأشراف (١/ ٤١٧).
(٥) أعلام النساء (٣/ ١١٨).

* وفي التماس مرضاة الله كانت تقول: مَنْ عَمِلَ بما يسخطُ الله عاد حامدُهُ مِنَ النَّاس له ذامّاً.

* ومن أجمل أقوالها وأنْصَعِها في هذا المجال قولها: إنّكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم مَنْ قلَّة الذُّنوب، فمن سرّه أَنْ يسبِقَ الدَّائبَ المجتهد فليكفّ نفسه عن كثرة الذّنوب.

* وسئلت ـ رضي الله عنها ـ: متى يكون الرجل مسيئاً؟ فقالت: إذا ظن أنه محسن[1].

* وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أفقه النَّاس وأَعْلَم النَّاس رأياً في العامة، ولها في هذا رأيٌ في الأنصار وحسْنُ الثِّقة بهم قالت: ما تبالي المرأةُ إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحَيْن إلاّ تنزلَ من أبويها[2].

* * *

عَـائشَة في ظـلِّ الخُـلَفَـاء:

* حظيتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ ـ رضوان الله عليها ـ بالمكانةِ اللائقة في حياة الخلفاء الرَّاشدين، وكانت مرجعاً مِنْ أهمِّ المراجع في الشّؤون الفقهية والتَّشريعية، كما كان لها دورها في حياة المسلمين في مختلف مجالات الحياة.

ولم تكن بمنأى عن الأحداث التي مرَّتْ بالمسلمين خلال حياتها التي اقتربتْ منَ السَّبعين إلا قليلاً، وكان لها مواقفُ مشهورة، وآثارٌ معروفةٌ في الأحداث السِّياسية والاجتماعيةِ التي مرَّت بعد مقتلِ سيِّدنا عثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ.

وقد سجلت لنا كُتُب التَّاريخ كثيراً من الأحداث التي تركت فيها أمُّ المؤمنين عائشة لَمَساتٍ بارزةً تشيرُ إلى صورة العصر آنذاك[3].

---

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ١٦).

(٢) عيون الأخبار (٣/ ٢٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٢)، والزهد للإمام أحمد ص(٢٠٦).

(٣) من أراد الاستزادة في هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب أعلام النساء (٣/ ٣٠) وما بعدها، ففيه تفصيل كثير.

وَدَاعـاً أُمَّ المُـؤْمنيـنَ:

* شعرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقرب اللقاء مع الله سبحانه، واشتاقت إلى الذين سبقوها إلى الدار الآخرة، وكان المرضُ قد اشتدَّ عليها فلزمتْ فراشها، وجاء سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ يستأذنُ عليها، وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بنُ عبد الرحمن، فأذنت له، ولما دخل قال لها:

أبشري فما بينَك وبين أَنْ تلقَي محمّداً ﷺ والأحبة إلا أَنْ تخرجَ الرّوح من الجسد.

ثم جعل ابنُ عبّاس يذكُرُ فضائلَها، ولما أنهى حديثه قالت له:

دعني منكَ يا بن عباس فوالذي نفسي بيده لوددتُ أنِّي كنتُ نسياً منسياً[١].

* وتوفيت أمُّ المؤمنين عائشة ليلةَ الثّلاثاء (١٧) رمضان سنة (٥٨) من الهجرة، التي توافقُ عام (٦٧٨) من الميلاد، وهي ابنةُ ست وستين سنة، ودُفنتْ بالبقيع من ليلتها بعد صلاة الوتر، واجتمعَ على جنازتها أهلُ المدينة وأهلُ العوالِي، وقالوا: لم نَرَ ليلة أكثر ناساً منها، وصلّى عليها أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ونزَلَ في قبرها خمسةٌ مِنْ محارمها[٢].

* وكان لوفاتها كبير الأثر في حياة المسلمين، وحزنوا عليها أشدَّ الحزن حتى إنَّ الإمام مسروق ـ رحمه الله ـ قال: لولا بعضُ الأمرِ لأقمتُ المناحةَ على أمِّ المؤمنين [٣] ـ رضي الله عنها ـ!.

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٧٥)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٧ و٣٨) بتصرف.
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٧٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٢).
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٥).

* وفي كتابه النّفيس «سير أعلام النّبلاء» ذكر الذّهبي أنَّ أمَّ المؤمنين أمّ سلمة - رضي الله عنها - لما سمعت الصَّرخة على عائشة قالت: والله لقد كانت أحبَّ النّاسِ إلى رسول الله ﷺ إلا أباها.

وذكر البلاذري في «أنساب الأشراف» أنَّ أمَّ سلمةَ جعلت تقولُ: رحمكِ الله وغفر لكِ، وعرفنيكِ في الجنّة.

* ويكفي أمّ المؤمنين عائشة فخراً أنَّ العلماءَ والفقهاءَ والمؤرخين والكتَّابَ قد تسابقوا إلى نَشْرِ فضائلها، وما زالوا ينشرون هذه الفضائل إلى ما شاء الله.

* * *

بشَارتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

* أمُّ المؤمنينَ عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - منْ أشهرِ نساء الإسلام إنْ لم تكن أشهرهن، كانت بركة على الإسلام والمسلمين في أطوار حياتها، وخصوصاً في العهد النّبوي فقد صُنِعتْ على عين رسولِ الله ﷺ لتغدو فيما بعد المرأةَ المثاليةَ في عالم الإسلام.

* وقدّمت أمّنا عائشة - رضي الله عنها - كلَّ خيرٍ للرّسول الكريمِ ﷺ، ووفّرت له سُبُلَ الرَّاحة ووسائلها، فنالتِ البشارة بالجنَّةِ مراراً وفي مواقفَ متعددةٍ.

* من ذلك أنَّ جبريلَ عليه السَّلام جاء بصورة عائشةَ في خرقة حرير خضراءَ إلى النَّبي الكريم ﷺ فقال: «هذه زوجتُك في الدُّنيا والآخرة»[1].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في المناقب برقم (٣٦٤٣).

* وفي حديثٍ آخر ترويه أمّنا عائشة يكشفُ عن بشارتها بالجنَّةِ قالت: قلتُ: يا رسول الله مَنْ مِنْ أزواجك في الجنَّة؟.

قال: «أما إنَّك منهن».

قالت: فخُيل إليّ أنَّ ذاك لأنه لم يتزوّج بكراً غيري[١].

* وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّ زوجات النَّبي الطاهرات كلّهن مبشرات بالجنَّة إن شاء الله.

* وقد استقرّ في نفوس الصَّحابة الكرام أنَّ أمَّنا عائشة حظيت بتكريمِ الله والبشارة العظمى في الجنة، فهذا سيِّدُنا عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ يقول على المنبر: إنّها لزوجةُ نبيّنا ﷺ في الدّنيا والآخرة[٢] ـ يعني عائشة ـ في رواية: في الجنّة.

* وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بشارة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالجنّة فذكر أنَّ النَّبي ﷺ قال: «إنّه ليهونُ عليَّ أنّي رأيتُ بياض كف عائشة في الجنّة»[٣].

* وبعد، فهذه لمحاتٌ مباركة من حياة الصِّديقة عائشة، وأرجو أَنْ أكونَ قد وفّقت في عرضها، رضي الله عنها وأرضاها، ونضَّر قبرها، وقبلَ أَنْ نقولَ وداعاً أمّنا الصّديقة نقرأُ قولَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥].

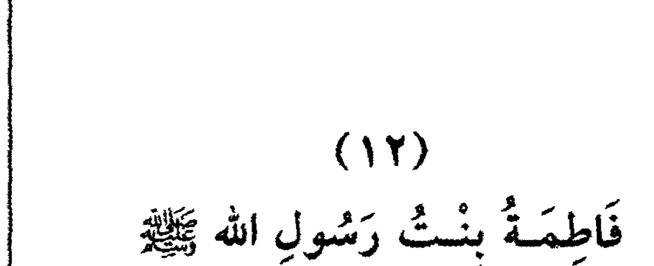
* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٥).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الفتن، والترمذي في المناقب، وانظر طبقات ابن سعد (٨/ ٦٤)، والحلية (٢/٤٠٤).

(٣) انظر الفتح الرباني (٢٢/ ١١١)، والبداية والنهاية (٨/ ٩٢).



(١٢)
فَاطِمَـةُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ
رضي الله عنها

قال النبي ﷺ لابنته فاطمة:

* «أَمَا تَرضَيْنَ أَنْ تَـكُوني سَيّدة نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّة».
* «نَزَلَ مَلَكٌ فبشَّرني أَنَّ فَاطِمَةَ سيّدةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ» حديث شريف

آلُ النَّبيّ:

مـــديـــحُ آلِ النَّبـــيّ عنـــدي
﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾[1]
أنجـــو بهـــم مِـــنْ عـــذاب نـــارٍ
﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2]

* ولقاؤُنا اليوم مع واحدة مِنْ آلِ النَّبي ﷺ، وسيّدة نساءِ العالمين في زمانها، البضعة النَّبوية، والجهة المصطفوية، أمّ أبيها، فاطمة بنت سيِّد الخلقِ، سيّدنا رسول الله ﷺ أبي القاسم محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية، وأمّ الحَسنين.

* وُلدت فاطمةُ في أمِّ القُرىٰ؛ وقريش تُجدِّدُ بناء الكعبة وذلك قبل النُّبوة بخمس سنين، فاستبشرَ أبواها بمولدها وفرحا بها فرحاً شديداً، إذْ كانت أصغر بنات النَّبي ﷺ، لذلك لمْ تسترضعْ لها خديجة، بل أرضعتها هي ـ رضي الله عنها ـ.

* نشأت فاطمةُ في بيت الطُّهْرِ، وصُنِعتْ على عيني أبويها، ومن ثمَّ نهلتْ من معين النّبوّة الصَّافي، حيث فَتحتْ عينيها على أَمْرِ الرِّسالة التي خصَّ الله سبحانه بها سيّدنا محمّداً ﷺ؛ ليحملها إلى البشرية.

* * *

في رحَـابِ السِّيَـادَة:

* قبل أَنْ نطوي الصَّفحات في قراءة حياة فاطمة، دعونا نقفْ لحظاتٍ عند الأصل الزّكي الذي تكللِ بالسِّيادة، وأشرقَ بالمجد من أطرافه.

* فأبوها سيِّدُ وَلَدِ آدم، ورحمةٌ للعالمين، نبيّنا محمّد ﷺ.

---

(١) اقتباس من سورة الجمعة من الآية (١١).
(٢) اقتباس من سورة التحريم من الآية (٦).

* وأمُّها سيّدة نساء العالمين، وأولُ النَّاس إسلاماً، أمُّنا خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وفاطمةُ نفسها سيّدة نساء أهل زمانها، وأفضل بنات النّبي الكريم ﷺ.

* وزوجها سيّدٌ في الدُّنيا والآخرة، أمير المؤمنين عليّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

* وولداها سيّدا شبابِ أهل الجنّة، وريحانتا رسول الله ﷺ الحَسن والحُسين ـ رضي الله عنهماـ.

* وعمُّها سيّد الشُّهداء، وأسدُ الرحمن وأسدُ رسوله، حمزة بنُ عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

* وعمُّها الآخر سيّد بني هاشم، كان يمنع الجار، ويبذل المال، ويعطي في النَّوائب، ويكسو العاري، ويُطعم الجائع، العبّاس بنُ عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

* وابن عمِّها السّيد الشّهيد الكبير الشّأن، عَلَمُ المجاهدين، جعفر بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

* والآن قُلْ لي بربّك مَنْ يداني فاطمة الزَّهراء في الفخار؟ وهل بعد هذا الفضل من فضل؟ ويكفيها من الفخر أنَّها تكنى أمّ أبيها.

* * *

طَلِيعَـةُ السَّـابقَـاتِ:

* لمّا نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالرِّسالةِ مِنْ ربّه، كانت أمُّ المؤمنين خديجة أولَ مَنْ آمن وصدّق بالرّسالةِ، وكانت بناتُ النَّبي الطّاهرات زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة؛ في طليعة السَّابقات إلى الإيمان بأبيهن ﷺ نبياً ورسولاً.

* وذكر ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ عن أمِّنا عائشة أنّها قالت: لما أكرمَ الله نبيّه بالنُّبوة أسلمت خديجةُ وبناته.

* فبناتُ النَّبي الكريم ﷺ في عقْد واحدٍ مع أمِّهن في السَّبْقِ إلى ساحة الإسلام، والتَّصديق برسالة أبيهن ﷺ؛ الذي تميزّ بصفاتٍ مباركةٍ قبل الرِّسالة، وكُنَّ يعرفن هذا، فكيف بعد الإسلام؟.

* يقول الإمام الزُّرقاني ـ رحمه الله ـ في شرح المواهب عن أَسْبقية فاطمة وأخواتها إلى الإسلام: ولم تُذكر بناتُه ﷺ؛ لأنّه لا شك في تمسُّكهنَّ قبل البعثةِ بهديه وسيرته ﷺ.

* وفي موضعِ آخر يبّينُ الزّرقاني سَبْقَ بناتِ النّبي ﷺ فيقول: والحاصل أَنّه لا يحتاج للنَّصِّ على سَبْقهن إلى الإسلام، لنشأتهنَّ بين أحضان أَصْدق وأَكْرم أُبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يَأخذن عن أبيهن أكرمَ المكارمِ، وعن أمّهن حصائلَ العقلِ الذي لا يُوزن به عقل امرأة في السَّابقين ولا في اللاحقين.

* كان إسلامُ أسرة النَّبي ﷺ زوجه وبناته، إسلامَ الفطرة النّقية التي غُذِّيتْ بالإيمان والنُّبوة، ونشأت على الفضيلة ومكارم الأخلاق، فللّه درُّ هذه الأسرة المباركة!.

* * *

فَاطمَـة الـزَّهراء وأَجْـلافُ قُـريش:

* مضىٰ رسولُ الله ﷺ في النُّهوض بدعوته، وتبليغ رسالة ربِّه، لا يبالي بما يلاقي من بلاء وعناء، أو سَفَهٍ وإيذاءٍ، أو تكذيب وافتراء؛ فقد وقفت قريش موقفَ العناد والتعنتِ من الرَّسول الكريم ﷺ، فكانت تسلُكُ سُبُلَ الغواية والاستهزاء به، وتدفع بأحقادها لتقف سداً منيعاً أمام الإسلام الذي أنار الوجود، وكانت الزَّهراءُ ـ رضي الله عنها ـ في بداية طفولتها تلمسُ ما يحيطُ بوالدها من مصاعبَ، فكانت ترافقه أحياناً في ذهابهِ وإيابه، وذات

مرّة رأَتْ مِنْ عقبة بن أبي معيط ـ أحد لُصَقاء قريش وأجلافهم ـ حادثة لا تكاد تغيبُ عن ذاكرتها مطلقاً، فقد كان عقبة هذا فاجراً خبيثاً مغموزَ النَّسب في قريش؛ لذلك كان يتقرَّبُ إليهم بأعمال السُّوء لتنفيذِ مآربهم حتى يُغطي على أصله الخسيس.

ففي إحدىٰ المجالس الوثنيةِ الفاجرة سمع عقبة نفراً مِنْ أجلاف قريش قالوا: مَنْ يقوم إلى هذا السَّلاَ[1] فيلقيهِ عل ظَهْرِ محمّد ﷺ وهو ساجد؟.

وتبرّعَ عقبةُ ـ أخزاه الله ـ بتنفيذ رغبتهم الدَّنيئة وقال: أنا؛ وأسرع إلى السَّلا وحملَه، ثم ألقاه على ظهرِ الحبيب المصطفى ﷺ وهو ساجدٌ، وعُصْبة الشَّر ينظرون متسافهين، يميلُ بعضهم علىٰ بعض مِنْ شدة الضَّحك والاستهزاء، وبقيَ سيِّدُ المرسلين في سجوده، حتى وصل الخبرُ إلى سيدة نساءِ العالمين وبطلة الإسلام فاطمة الزهراء فجاءت ـ رضي الله عنها ـ وأخذت الأقذار عن ظهر أبيها، وغَسَلت ما لحقَ به منْ أذى، ومنْ ثمَّ أقبلت على العصبة الفاجرة، فسبَّتهُم وشتمتهم.

ولما فرغ رسولُ الله ﷺ من صلاته رفع يديه ودعا عليهم فقال: «اللهمّ عليك بشيبة بن ربيعة، اللهمّ عليك بأبي جهل بنِ هشام، اللهم عليك بعقبةَ بن أبي معيط، اللهم عليك بأميةَ بن خلف» ولما رأَوْا ذلك سكن عنهم الضَّحك، وخافوا دعوته.

ومنْ فَضْلِ الله على نبيِّه أنَّه استجاب دعوته فقُتلوا جميعاً يوم بدر[2].

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ عقبةَ بنَ أبي معيط قد أُسر في غزوة بدر، ولما أَمَر النّبي الكريم ﷺ بقتله، قال: فَمَنْ للصِّبْيةِ يا محمد؟.

قال: «النَّار».

---

(١) السلا: هو ما يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة، ويكون به قذر ودماء.

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٧٨ و٢٧٩ و٢٨٠) والبداية والنهاية (٣/ ٤٤) بتصرف.

ثم قال: أتقتُلني مِنْ بين قريش؟.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم».

ثم التفتَ إلى أصحابه وقال: «أتدرون ما صنعَ بي هذا؟ جاء وأنا ساجدٌ خلْفَ المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظننتُ أنَّ عينيَّ ستَنْدُران[1] وجاء مرةً بسلا شاةٍ فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

وهكذا حلَّتِ القارعةُ بعقبة ـ الخبيث ـ فقُتل بأيدي المسلمين.

* * *

الـزَّهراءُ ومحنَـةُ الحِصَـار:

* لجأت قريش إلى طريقةٍ جديدةٍ في إيذائها رسول الله ﷺ، وفي هذه المرّة تعدَّتْ إلى إيذاء بني هاشم وبني عبد المطلب، وأجمع المشركون أمرهم أَنْ يقاطعوهم مقاطعةً كاملة، فلا بَيْع، ولا شراء، ولا كلام، ولا مخالطة؛ حتى يُسْلِموا إليهم رسول الله ﷺ، وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب ـ إلا أبا لهب ـ وحُبِسوا في شِعْبِ أبي طالب، واشتدَّ عليهم الحصار حتى أجهدهم، وكان يُسمَعُ من وراء الشعب أصواتُ الصِّبيان والنِّساء يتألمون من شدة الجوع، وكانت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ مع المحاصَرين، وقد أثَّر الحصارُ في صحتها تأثيراً بالغاً ظلَّ يصاحبُها إلى أنْ لقيتْ ربَّها.

واستمرَّ الحصارُ الأليم قرابة ثلاثة أعوام، وخرج منه المسلمون وعلامات الثَّبات ترتسمُ على وجوههم المشرقة بنور الإيمان، وقد استقرت في قلوبهم محبةُ اللهِ سبحانه ومحبة رسوله ﷺ.

* * *

(١) تندران: تخرجان من مكانهما.

السَّيِّدتَان فَاطمَةُ وخَديجَةُ ـ رضي الله عنهما ـ:

* لم تكد فاطمةُ الزّهراء ـ رضي الله عنها ـ تنسى مآسي الحصار، حتى جاء اليوم الأليمُ في حياتها، ذلك اليوم الذي فقدت فيه أمَّها خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وبوفاتها فقدتْ قلبها الكبيرَ الذي احتوىٰ كلَّ أعباء الحياة، كما فقدت يدها الحانية المعطاء؛ التي تركتْ بصماتٍ مباركةً في بناء بيت النُّبوة، وأضحت أعباء الحياة ملقاةً على عاتق الزَّهراء، ولكنَّ هذا زادها إيماناً وتسليماً، ومن ثمَّ تعلَّقتْ بأبيها ﷺ؛ الذي وجدت في قلبه الكبير العطفَ والرحمةَ والحنانَ، وتابعتْ معه رحلة الحياة وشاركته أعباء الدَّعوة، إلى أَنْ أذنَ الله بالهجرة إلى المدينة المنورة.

وكانت فاطمةُ الزَّهراء في عداد المهاجرات، وفي المدينة بدأت حياة جديدة بين قوم كرام يحبون مَنْ هاجَرَ إليهم، ناهيك بأنَّهم يؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصة.

«إنَّ عَـليـاً يَـذْكُـرك»:

* في السَّنة الثَّانية مِنَ الهجرة، تزوَّج سيِّدُنا عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فاطمة ابنةَ سيّدنا رسولِ الله ﷺ وبنىٰ بها، وذلك عقب غزوة بدر الكبرى.

ولخطبة فاطمةَ رضي الله عنها قصّة مباركة اكتنفتها العنايةُ الإلهية، ولنتركِ الخاطبَ نفسه سيّدنا علياً يحدثنا عن خطوات هذا الحدث المبارك قال:

خُطبت فاطمة من رسول الله ﷺ، فقالت مولاةٌ لي: هل علمتَ أَنَّ فاطمةَ خُطبتْ مِنْ رسول الله ﷺ؟.

قلتُ: لا.

قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أَنْ تأتيَ رسولَ الله ﷺ فيزوِّجَك بها؟.

فقلتُ: أو عندي شيءٌ أتزوَّجُ به؟.

قالتْ: إنَّكَ إنْ جئتَ رسول الله ﷺ زوّجك.

قال: فوالله ما زالتْ ترجِّيني حتى دخلتُ علىٰ رسول الله ﷺ، فلما أَنْ قعدتُ بين يديه أفحمتُ، فوالله ما استطعتُ أَنْ أتكلمَ جلالةً وهيبةً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاءَ بك؟ ألكَ حاجة؟».

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: فسكتُّ.

فقال: «لعلك جئتَ تخطُب فاطمة»؟

فقلتُ: نعم.

فقال: «وهل عندك مِنْ شيءٍ تستحلُّها به»؟.

فقلتُ: لا، والله يا رسول الله.

فقال: «ما فَعلْتَ بالدّرع التي سلَّحتُكَها»؟.

فقلتُ: عندي، فوالذي نفس عليٍّ بيده إنَّها لحُطَميّة[1]، ما ثمنُها أربعة دراهم.

فقال ﷺ: «قد زوجتُكَها، فابعثْ إليها بها فاستحلَّها بها».

قال: فإنها كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ[2].

وأقبل الحبيبُ المصطفى ﷺ على ابنته قائلاً لها: «إنَّ علياً يذكركِ» فسكتتْ ـ رضي الله عنها ـ فزوجها[3].

وكان عُمْرُ فاطمةَ إذْ ذاك ثماني عشرة سنة، ويكبُرها عليٌّ بأربع سنين.

* * *

---

(١) الحُطمية: نسبة إلى حطم بن محارب من عبد القيس، اشتهروا بصنع الدروع، أو لأنها كانت تحطم السيوف.

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٠)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٤٦) بتصرف يسير.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠).

«اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا»:

* لما كانت ليلةُ زفاف الزَّهراء، طلبَ رسول الله ﷺ ماءً فتوضأ منه، ثم أفرغه علىٰ عليٍّ، وقال: «اللهمَّ باركْ فيهما، وباركْ لهما في نسلهما»(١).

واحتفل بنو عبد المطلب والصَّحابة الكرام بهذا الحدثِ السَّعيد، ونَحَرَ حمزةُ بن عبد المطلب بعض إبله وأطعم النَّاس، وانتقلت الزَّهراءُ إلى بيت الزَّوجية، ذلك البيت الذي لم يُفْرش بالسُّرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، ولا النَّمارق المصفوفة أو الزَّرابي المبثوثة، وإنَّما كان في غاية البساطة والتَّواضع، في جِلْد كَبْش، ووسادة حشوها من الليف، وسقاء وجرَّتين ورحى للطحن، وكان بعيداً عن منازل النَّبي ﷺ.

* وبعد فترة جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة فقال لها: «إنِّي أريدُ أَنْ أحوِّلَك إليَّ».

فقالت: كَلِّمْ حارثةَ بنَ النُّعمان يتحوَّلْ عن بعض منازله.

فقال: «قد تحوَّلَ حارثةُ عنَّا حتى قد استحييتُ منه».

* وبلغ ذلك سيّدنا حارثة رضي الله عنه، فجاء مسرعاً وقال: يا رسول الله، بلغني أنَّك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أَسْقَبُ ـ أقرب ـ بيوتِ بني النَّجار بك، وإنَّما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله المال الذي تأخذ مني أحبّ مِنَ الذي تدع.

فقال النَّبي ﷺ: «صدقتَ باركَ الله عليك».

فحوّلَهُما رسول الله ﷺ إلى بيتِ حارثةَ بنِ النُّعمان، وسكنه عليٌّ وفاطمة ـ رضوان الله عليهما ـ(٢).

* * *

---

(١) أسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٥).

(٢) انظر هذه القصة بتوسع في سيرة الصحابي الجليل المضياف سيدنا حارثة بن النعمان في كتابنا رجال مبشرون بالجنة جزء (٢)، ففيه ما يسر النفس والقلب.

الصَّـابِـرَةُ التَّـقـيَّـةُ:

* لم يعرفِ التَّاريخُ امرأة جمعتِ الصَّبْرَ والتُّقىٰ كفاطمةَ الزَّهراء ابنة رسولِ الله ﷺ، فمنذ الأيام الأولى من زواجها بدأتْ تمارسُ أعمالَ البيت المرهقة وقتذاك، فكانت تطحن وتعجن حتى تلامس خصلات شعرها جفنة العجين وأحياناً تلامس الأرض، ثم تقومُ بعملية خَبْزِ العجين، ولم يستطعْ زوجها الزَّاهد المجاهد أَنْ يستأجرَ لها خادماً تعينُها في أعمالِ البيت، بل قال لأمِّه فاطمة بنتِ أسد ـ رضوان الله عليها ـ: اكفي فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ الخدمةَ خارجاً، وتكفيكِ هي العمل في البيت والعجن والخبز والطَّحْن.

* وكان سيِّدُنا عليٌّ يرىٰ زوجَه الطَّاهرةَ التَّقيةَ وقد أثَّر فيها التَّعبُ، غير أنَّه استبشر بوصولِ غنائمَ وسبايا من إحدىٰ الغزوات، ووجد ذلك فرصةً مناسبة فقال لفاطمة: والله لقد تعبتُ مِنْ سقاية الماء مَنْ البئر حتى اشتكيتُ صدري، وقد جاء الله أباكِ بِسَبْيٍ فاذهبي فاطلبي خادماً.

فقالتْ: وأنا والله لقد طحنتُ حتى أثَّر ذلك في يدي.

ثم أتتِ النَّبيَّ ﷺ، فقال: «ما جاء بكِ وما حاجتكِ أي بُنية»؟.

قالت: جئتُ لأسلم عليك، وأرخىٰ عليها الحياءُ ستاراً فلم تطلبْ منه شيئاً وعادتْ، فقالَ لها عليٌّ: ما فعلْتِ؟.
قالت: استحييتُ أَنْ أسأَلَهُ فرجعتُ.

فقام عليٌّ وفاطمةُ وانطلقا في تهيُّب وتردُّدٍ وحياء حتى أتيَا رسولَ الله ﷺ، وشكيا له حالهما وطلبا أَنْ يهبَ لهما خادماً.

فقال لهما النَّبيُّ ﷺ: «واللهِ لا أعطيكما، وأدع أهلَ الصُّفةِ تطوي بطونهم لا أجدُ ما أنفقُ عليهم، ولكنّي أبيعهم وأنفقُ عليهم أثْمانهم».

فرجعا وأتاهما النَّبيُّ ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطَّيَا رؤوسهما تكشفتْ أقدامهما، وإذ غطيا أقدامهما تكشفتْ رؤوسهما، فثارا ـ قاما لاستقباله ـ فقال: «مكانكما».

ثم قال: «ألا أخبركما بخيرٍ ممّا سألتماني»؟.

قالا: بلى.

قال: «كلمات علمنيهن جبريل، تُسبِّحان الله في دبر كلِّ صلاة عشْراً، وتحمدان عشْراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين وتكبران ثلاثاً وثلاثين»[1].

وقنعتِ الزَّهراءُ وعليٌّ ـ رضي الله عنهما ـ بهذه الكلمات المباركات، وبهذا الزَّاد الرَّباني الذي لَزِماهُ إلى نهاية حياتهما.

* * *

الـزَاهِـدَةُ الوَرعَـــةُ:

* وصفَ أبو نُعيم في حليته الزَّهراء فقال: ومن ناسكاتِ الأصفياء، وصفيات الأتقياء فاطمةُ ـ رضي الله تعالى عنها ـ. . . . كانت عن الدّنيا ومتْعتها عازفة، وبغوامض عيوب الدُّنيا وآفاتها عارفة.

* في حياة فاطمة الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ مواقف وضيئة تفيضُ بالبركة والنُّور، وتشير إلى زهدها وورعها وخوفها من الله سبحانه، والعمل المتواصل على مرضاته.

وقد ذكر الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ قصَّةً تشيرُ إلى ذلك فقال:

دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وقد أخذتْ من عنقها سلسلةً مِنْ ذهب، فقال: هذه أهداها لي أبو حسن ـ زوجُها ـ فقال: «يا فاطمة أَيَسرُّك أَنْ يقولَ النَّاسُ هذه فاطمة بنتُ محمد وفي يدها سلسلةٌ من نار»؟.

---

(١) الحديث صحيح رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي، ومسلم في الذكر والدعاء، والترمذي في الدعوات، وأبو داود في الخراج والإمارة، وانظر القصة بأساليب متقاربة في الطبقات (٨/ ٢٥)، وصفة الصفوة (٢/ ١٠ و١١) والإصابة (٤/ ٣٦٨).

ثم خرج، فاشترتْ بالسلسلةِ غلاماً فأعْتَـقَتْـهُ، فقال النَّبي ﷺ: «الحمدُ لله الذي نجّى فاطمة مِنَ النَّار»[1].

* إنَّه زهدٌ وورعٌ وحبٌّ لله، أوليستِ الزَّهراءُ ابنةَ سيِّدِ الزُّهاد وسيِّد الورعين رسول الله ﷺ؟ لقد سمِعَتْهُ عندما قال: «. . . . . . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ مِنْ مالي لا أغنيْ عنك مِنَ الله شيئاً»[2] فكيف تركنُ بعد هذا إلى الدُّنيا؟.

لذا فقد شمَّرتْ عن ساعد الجدِّ والعبادة، وزهدت في كلِ شيء، إلا في مرضاة الله ومرضاة رسوله، فكانت ممن قال الله عنهم: «﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

* وقد بلغتِ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ في الفضل والزهد مكانةً لم تُسْبَق إليها في نساء عصرها، واقتعدتْ في الصِّدق مقعداً مباركاً زكياً، وتشبَّهت بوالدها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى إنَّ أمَّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ شهدت لها بالسَّبْق في هذا المضمار فقالت: ما رأيتُ أحداً كان أصدق لهجة مِنْ فاطمة؛ إلا أَنْ يكون الذي وَلَدَهَا ﷺ[3].

* وحسبُك هذه الشَّهادة المباركة لتجعل فاطمة الزهراء في منازل الصِّديقين، وحسُنَ أولئك رفيقاً.

* * *

المُجَـاهِـدَةُ الوفيَّــةُ:

* لفاطمة الزَّهراءِ مواقف وضيئة في الجهاد، وأَثْرَتِ التَّاريخ بما قدمته من فضائل فواحةٍ بالأريج في مختلف المجالات المباركة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٣).
(٢) الحديث متفق عليه.
(٣) انظر: الاستيعاب (٤/ ٣٦٦).

* ففي غزوة أحد ـ تلك الموقعة الفيّاضة بالدُّروس والتّضحيات ـ أُصيب النَّبيُّ الحبيبُ ﷺ في بَدَنِهِ ووجهه، وتدفق الدمُ الشَّريف منه، وما استمسك حتى أُحرقتْ قطعة من حصير فألصقتْ به[١].

* ولكنْ أين كانتِ الزَّهراءُ عند هذا الحادث؟ وفي هذه الظُّروف؟.

الإمامُ البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ يدلُّنا في دلائله على مكان فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ فيقول:

..... وخرج نساءٌ مِنَ المهاجرات والأنصار، فحملنَ الماءَ والطعام على ظهورهن، وخرجتْ فيهن فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ، فلما أبصرت أباها والذي به من الدماء اعتنقته، وجعلت تمسح الدماءَ عن وجهه، ورسولُ الله ﷺ يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ دموا وجهَ رسولِ الله ﷺ»[٢].

* وعن دورِ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في أُحُدٍ روى الصَّحابي الجليلُ سَهْل ابنُ سعد فقال:

جُرِحَ رسول الله ﷺ وكُسِرت رباعيته، وهُشمت البيضةُ على رأسه، فكانتْ فاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ تغسلُ الدمَ وعليٌّ يسكبُ الماءَ عليه بالمجنّ، فلما رأتْ فاطمة أنَّ الماء لا يزيدُ الدمَ إلا كثرة، أخذت قطعةَ حصير أحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقَتْها بالجرحِ؛ فاستمسك الدم[٣].

* وفي هذه الغزوة استشهد سيدنا حمزةُ بنُ عبد المطلب أسد الله وأسد الرسول، وكانت فاطمة وهي الوفية ابنةُ سيد الأوفياء تذكر عمّها المطعام يوم زفافها، فكانت تزور قبره وتبكي عنده وتدعو له[٤].

* وتابعتِ الزهراء ـ رضي الله عنها ـ حياةَ الجهاد في أماكنَ أخرى،

---

(١) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٣٢٤).
(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٨٣).
(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المغازي ومسلم في كتاب الجهاد والسير، وانظر الطبقات (٢/ ٤٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٩).
(٤) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٣١٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٠٩).

فشاركتْ في غزوة الخندق، وفي خيبر، وفي هذه الغزوة قَسَمَ لها النَّبي ﷺ خمسةً وثمانين وسقاً من قمح خيبر.

* وشهدت فاطمة كذلك غزوة الفتحِ، وكان لها موقفٌ مشرقٌ مشرِّفٌ، فقد رفضت أَنْ تجبر أبا سفيان بنَ حرب عندما طلب أن تشفعَ له عند رسول الله ﷺ وقال لها: هل لكِ أنْ تجيري بين النَّاس؟.

فقالت: إنَّما أنا امرأة. وأبتْ عليه.

فقال لها: مُري ابنَكِ الحسن.

فقالت: ما بلغ أَن يجيرَ.

* ودخل النَّبي ﷺ والمسلمون مكةَ، ولما اغتسل كانت فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ تستره بثوبهِ، ثم صلى ثماني ركعات.

* وعندما بعثَ رسول الله ﷺ الأمراء الثَّلاثة[1] إلى مؤتة على رأسِ جيش لتطهيرها من المشركين، استشهدوا واحداً إِثْرَ الآخر، هناك بكَتْ فاطمة ابن عمها جعفر بن أبي طالب بكاءً مرّاً، ودخل عليها رسول الله ﷺ وهي تقول: واعمَّاه، فقال رسول الله ﷺ: «على مثلِ جعفر فَلْتبكِ الباكية» وأمر بأنْ يُصنعَ لآلِ جعفر طعاماً؛ حيث شُغِلوا عن أنفسهم بمصابِهم.

* * *

الحَبْيبَـةُ النَّبويَّــةُ:

* سُئِلَ الحبيبُ المصطفى ﷺ: أيُّ النَّاس أحبُّ إليك؟ قال: «فاطمة»[2].

* وقال الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: كان أحبّ النِّساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة، ومنَ الرِّجال عليّ.

---

(١) الأمراء الثلاثة هم: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

* ولفاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ في قلب النّبي ﷺ لا تساويها مكانة، وحبٌّ لا يعدله حبٌّ، يكفيها من الشرف أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقومُ لاستقبالها ويُجلِسُها مكانَه، ذكر هذا الإمام البُخاري بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

ما رأيتُ أحداً مِنَ النَّاس كان أشبه بالنَّبي ﷺ كلاماً ولا حديثاً ولا جلْسَة من فاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ. وكان النَّبيُّ ﷺ إذا رآها أقبلتْ رحَّبَ بها، ثم قام إليها فقبّلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه، وكان إذا أتاها النَّبيُّ ﷺ رحبتْ بهِ، ثم قامت إليه فقبلته[1].

* وبلغ مِنْ حبِّ النَّبيِّ ﷺ لفاطمةَ أنَّه كان يُسَرُّ لسرورها، ويُرى ذلك على وجهه الشَّريف، فقد لاحظ ﷺ ذات مرة أنَّ سوءَ تفاهم قد حصل بين فاطمة وزوجها، فدخلَ وأصلح بينهما ثم خرجَ، فقيل له: يا رسول الله ﷺ دخلتَ وأنتَ على حالٍ وخرجتَ ونحنُ نرى البِشْر في وجهك؟ فقال ﷺ: «وما يمنعُني؟ وقد أصلحتُ بين أحبِّ اثنين إليّ»[2].

* وكما كان النَّبي ﷺ يُسَرُّ لسرور فاطمة، كان يغضب كذلك لغضبها، ويهتمُّ بمشاعرها اهتماماً بالغاً.

وحدث أنَّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ همَّ بما رآه سائغاً مِنْ خطبة ابنة أبي جهل، فسمعتْ بذلك فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فأتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنَّك لا تغضبُ لبناتك، وهذا عليٌّ ناكح بنتَ أبي جهل.

فقام رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ فاطمةَ بضعةٌ مني وإنّي أكرهُ أَنْ يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد»[3].

وترك عليٌّ الخطبة رعاية لفاطمة، وأسرعَ إليها يطلبُ العفو الذي جادت بهِ

(١) عن حياة الصحابة (٢/ ٤٩٩).
(٢) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦)، والإصابة (٤/ ٣٦٨) بتصرف يسير.
(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

فوراً، وتلاشتْ عوامل الحزنِ من حياتها، وعادت حياة السَّعادة لتغمر أحبَّ بيتٍ إلى قلب رسول الله ﷺ.

* وقد وصف الذَّهبي ـ رحمه الله ـ فاطمة فقال: وكانت صابرة، ديّنة، خيّرة، صيّنة، قانعة، شاكرة لله، وكان النّبي ﷺ يُكرمُها.

* وروي عن سيِّدنا علي رضي الله عنه قال:

سألتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: أيُّنا أحبّ إليك أنا أو فاطمة؟ قال: «فاطمة أحبُّ إليَّ منك، وأنت أعز عليَّ منها».

* ونلمس من خلال هذه الإجابة النَّبوية الشَّافية مدى حبِّ رسول الله ﷺ لابنتهِ فاطمةَ، واحترامه وإكرامه صهره عليّاً ـ رضي الله عنه ـ.

* * *

أمُّ الحسَنَـيْن:

* مضتِ الأيام هانئة تحمل في طيّاتها بذورَ السَّعادة المتمثلة بحَمْلِ فاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ، ولما وضعت مولودها الأول في شعبانَ من السَّنة الثَّالثة للهجرة، جاء البشيرُ إلى النَّبي ﷺ فألقى الخبر، وسُرَّ النَّبي ﷺ بهذا النّبأ المباركِ، وسُرَّ المسلمون كذلك بمولد سبْط النَّبي ﷺ، وفي اليوم السَّابع لمولده عقَّ عنه رسوله الله ﷺ بكبش، وحلق رأسه، وأمر أَنْ يُتصدق بزنَةِ شعره فضة، وأتى منزلَ فاطمة ليرى المولود المبارك، ثم سمّاه حَسَناً، وأذَّنَ في أُذُنِه اليمنى.

وفي شعبان أيضاً من السَّنة الرَّابعة للهجرة وُلد الحُسين ـ رضي الله عنه ـ، وفعل معه كما فعل مع أخيه الحسن، وأضحى هذان الطفلان السَّعيدان حبيبَيْ رسول الله ﷺ، فقال عنهما: «هما ريحانتاي من الدنيا»[1]، وهما أيضاً:

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري والترمذي وأحمد.

«سيِّدا شباب أهل الجنَّة»، وثبت أنَّ النَّبي الكريم ﷺ قد سمّاهما بالحسن والحسين.

* وبلغ حبُّ النّبي الكريم لسبطيه شيئاً مباركاً يشير إلى رحمته ﷺ، روى سيدنا أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال:

خرج رسول الله ﷺ ليلةً وهو مشتملٌ على شيء، قلتُ: ما هذا؟ فكشفَ فإذا حسنٌ وحسينٌ على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا بنتي، اللهم إنّي أحبُّهما فأحبهما وأحب مَنْ يحبهما»[(١)].

* وفضائُل الحسنين ليس لها حصر ـ رضي الله عنهما[(٢)] وأرضاهما ـ، وقد أكرم الله عزَّ وجلَّ فاطمةَ الزَّهراء في نسلها الطيب الطاهرِ فاختصها بذرية سيدنا محمد ﷺ، ولم يكن له عقب من سواها، وكفى بالحسنين السِّبطين اللذين كانا قرة عينِ الحبيب المصطفى ﷺ، وأحبّ النَّاس إليه وأشبه النَّاس به، ولله در محمَّد بن أحمد بن جابر الأندلسي الضرير[(٣)] نزيل حلب حيث يقول:

جَعَلُوا لأبناءِ الرَّسولِ علامةً ... إنَّ العلامةَ شَأْنُ مَنْ لم يُشَهرِ
نُورُ النُّبوةِ في كريم وجوههم ... تغني الشَّريفَ عنِ الطرازِ الأخْضَرِ

*وذكر ابن منظور أنَّه يُقال للحسن والحسين أبناء الفواطم، فاطمة الزَّهراء أمُّهما، وفاطمةُ بنتُ أسد جدتهما، وفاطمةُ بنتُ عبد الله بن عمرو بن عمران ابن مخزوم جدة النَّبي ﷺ لأبيه[(٤)].

* أمّا بنات فاطمة الزَّهراء فهما زينب وقد وُلدت في السَّنة الخامسة من

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥١).
(٢) انظر ترجمة الحسن والحسين في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٤٥ ، ٢٨٠).
(٣) انظر ترجمته في كتاب نكت الهميان لصلاح الصفدي ص (٢٤٤).
(٤) انظر لسان العرب مادة ـ فطم ـ.

الهجرة، وأمُّ كلثوم وقد ولدت في السَّنة السَّابعةِ من الهجرة، وقد سمّاهما رسول الله ﷺ بهذا الاسم.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ زينب بنت علي قد تزوجتْ عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأمّ كلثوم تزوجت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وولدت له زيداً ورقية.

* ورُوي أنَّ سيدنا عمرَ لما تزوّج أمّ كلثوم وجلس في الرَّوضةِ مَجْلسَ المهاجرين والأنصار وقال: هنوني.

قالوا: بِمَنْ يا أمير المؤمنين؟.

قال: بأمِّ كلثوم بنتِ علي، وحدَّثَهم بأنَّه سمع مِنْ رسول الله ﷺ قال: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ وصهْرٍ ينقطعُ يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري»، وكان لي به عليه الصَّلاة والسَّلام النَّسب والسَّبب، فأردتُ أَنْ أجمعَ إليه الصّهر. فبارك له الصَّحابة الكرام وهنوه على هذه المكرمة الخيرة.

* ومن الخير أَنْ تُقَالَ كلمةُ الخير في كل خير، والخير هنا أَنْ نشير إلى أنَّ ابنَ عابدين ـ رحمه الله ـ قد ألَّفَ رسالةً تُسمى «العِلْمُ الظَّاهرُ في نَفْعِ النَّسَبِ الطَّاهر»[1] ذكر فيها النَّسَبَ النَّبويَّ الشَّريفَ والشَّفاعة النَّبوية يوم القيامَة.

ورحم الله الإمام الشَّافعي عندما قال:

آل النَّبــــــــــيِّ ذريعتــــــــــي
وهــــــمُ إليـــــهِ وسيلتـــــــي
أرجـــــو بهـــــم أُعطـــــىَ غـــــداً
بيـــــدي اليميـــــن صحيفتـــــي

* * *

(١) انظر رسائل ابن عابدين (١/ ٢) وما بعدها.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً:

* كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إذا سُئل عن عليٍّ وأهلِ بيته قال: أهلُ بيتٍ لا يُقاسُ بهم أَحَدٌ.

* والآن تعالوا نقفْ مع القرآنِ الكريم وقفةً مباركةً نرى أَهْل البيت الذي باركَه الله وأذْهَبَ عنه الإثمَ والشِّرك والشَّيطان والمعاصي والشَّكَّ والأقذار[1]. ومن بركاتِ هذا البيتِ الطَّاهر السَّيدة فاطمة الزَّهراء ابنة رسول الله ﷺ.

* روى سيّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يمرُّ بباب فاطمةَ ـ رضي الله عنهاـ ستةَ أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصَّلاة يا أهل البيت الصّلاة» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

* وتروي أمُّ المؤمنين أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسول الله ﷺ جلَّلَ على الحسَنِ والحُسين وعليٍّ وفاطمةَ كساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أَذْهِبْ عنهم الرِّجسَ وطهرهُمْ تطهيراً».

فقالت أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: وأنا معهم يا رسول الله؟.

قال: «إنَّكِ إلى خير»[3].

* ولله درُّ الشَّافعي حيثُ قال:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم
فرضٌ مِنَ الله في القرآن أَنْزله

---

(1) انظر تفسير الماوردي (٣/ ٣٢٣).

(2) انظر تفسير ابن كثير للآية (٣٣) من سورة الأحزاب، وانظر الدر المنثور (٦/ ٦٠٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٥).

(3) رواه الترمذي في المناقب، وانظر الدر المنثور (٦/ ٦٠٤).

كفــاكُــمْ مِــنَ عظيــم القَــدْرِ أنّكــمُ
مَــنْ لــم يُصَــلِّ عليكــم لا صــلاة لَــه

* وفي البيت النَّبوي الطاهر يقولُ النبي الكريم ﷺ: «لا يبغضُنا أهلَ البيتِ أحدٌ إلا أدخلَه الله النَّارَ»[1].

* وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: نظر النَّبيُّ ﷺ إلى عليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ فقال: «أنا حَرْبٌ لِمَنْ حارَبكم، سلمٌ لمَنْ سالمكم»[2].

* ومن الأخبار الشَّافية في هذا المجال ما رواه سيّدنا سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلتْ آية المباهلة[3] دعا النَّبي ﷺ علياً وحسناً والحسين وفاطمة وقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

مِـنَ مَناقِبهَـا وفَضَـائِلهَـا:

* فضائلُ سيِّدةِ النِّساء فاطمة كثيرة، وقد جمعها الإمام السّيوطي في كتاب سمّاه «الثّغورُ الباسمةُ في مناقب السِّيدة فاطمة»، وقبله جَمَعَ مناقبها أبو عبد الله الحاكم في المستدرك على الصَّحيحين.

* ومنْ أَنْصَعِ مناقب فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أَنَّ رسول الله ﷺ قال لها: «إنَّ الله تعالى ـ يرضى لرضاكِ ويغضبُ لغضبك»[4].

* وذكر ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ منقبةً عظيمةً لفاطمةَ تشيرُ إلى فضلها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٣).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٢٢).
(٣) المباهلة: الملاعنة، وقد نزلت في شأن وفد نصارى نجران ودعوتهم للمباهلة وذلك سنة (٩) من الهجرة. والآية قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وانظر الدر المنثور (٢/ ٢٣١)، والشفا للقاضي عياض (٢/ ٦٠٦)، وأسباب النزول للواحدي ص (٨٩).
(٤) انظر تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٤٢)، والإصابة (٤/ ٣٦٦).

وبركتها فقال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قدِمَ مِنْ غزوٍ أو سفر، بدأ المسجدَ فصلى فيه ركعتين، ثم يأتي فاطمةَ، ثم يأتي أزواجَه.

* ومنَ الفضائلِ المباركة التي حظيت بها فاطمة؛ أنَّ الله سبحانه قد أكرمها بتكثيرِ الطَّعام في بيتها، وذلك ببركةِ صدقها وكرمها ونقاء نفسها، فقد ذكرتِ المصادر أنَّ جارةً لها بعثتْ لها برغيفين وقطعة لحم، فوضعتْ ذلك في جفنة وغطته، وأرسلت ابنها إلى رسول الله ﷺ لتطعمه فجاء وأحضرت الجفنة، ولنتركِ الزَّهراءَ نفسها تروي بقية الحديث فتقول:

فكشفتُ عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بُهِتُّ، وعرفْتُ أنَّها بركةٌ مِنَ الله، فحمدتُ الله وصليت على نبيه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ.

فلما رآه حمد الله، وقال: «مِنَ أينَ لكِ هذا يا بنية»؟.

فقلتُ: يا أبتِ هو مِنْ عند الله، إنَّ الله يَرزقُ مَنْ يشاءُ بغير حساب.

فحَمِدَ الله، وقال: «الحمدُ لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنَّها كانت إذا رزقها الله شيئاً ـ وسُئلت عنه ـ قالت: هو من عند الله، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب».

وأكلَ النَّبيُّ الكريم ﷺ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ، وجميعُ أزواج الرسول ﷺ حتى شبعوا جميعاً، وبقيتِ الجفنةُ كما هي، ثم وزعتْ فاطمة منها على الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً[١].

* ومن الشِّفا ما رواه القاضي عياض في الشِّفا أنَّ النَّبي ﷺ دعا الله سبحانه ألا يجيع فاطمة، قالت فاطمة: فما جعتُ أبداً[٢].

* ولفاطمة الزهراء فضيلةٌ باهرةٌ لا يشاركها فيها أحد، فعن عمران بن الحصين أنَّ النبي ﷺ عاد فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وهي مريضةٌ فقال:

---

(١) عن البداية والنهاية (٦/ ١١١)، وحياة الصحابة (٣/ ٦٢٨) بتصرف.

(٢) الشفا (١/ ٤٥٩)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٠٤).

«كيف تجدينك يا بنية»؟.

قالت: إنّي لوجعةٌ، وإنَّه ليزيدني أَني مالي طعام آكلُه.

قال: «يا بُنية أَمَا تَرضَيْن أنَّك سيّدة نساء العالمين»؟.

قالت: يا أبتِ فأينَ مريم بنت عمران؟.

قال: «تلك سيدةُ نساء عالمها، وأنتِ سيدةُ نساء عالمك، أما والله لقد زوّجتُك سيِّداً في الدُّنيا والآخرة»[١].

* * *

الزَّهْراءُ وفراقُ الحَبيبِ ﷺ:

* عن ابنِ عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دعا النَّبيُّ ﷺ فاطمةَ فقال لها: إنَّه قد نُعيت إليه نفسه، فبكتْ، فقال: «لا تبكين فإنَّكِ أولُ أهلي لاحقاً بي» فضحكت[٢].

* ولما ثقلَ النَّبي الكريمُ ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: واكرب أباه، فقال: «ليس على أبيك كربٌ بعد هذا اليوم».

* وتوفي رسول الله ﷺ، ولحقَ بالرفيق الأعلى، فحزنت عليه فاطمة، وبكته، وقالت: يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه جنّةُ الفِردَوسِ مأواه.

* وعندما دُفنَ ﷺ بالمكان الذي قُبض فيه؛ قالتْ لأنس بنِ مالك: يا أنس كيف طابتْ أنفسكم أَنْ تحثوا التُّراب على رسولِ الله ﷺ؟!.

* وذكر ابن سيّدِ النَّاس ـ رحمه الله ـ أنَّه لما دُفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٣٢).

اغبــــرَّ آفـــاقُ السَّمـــــاءِ وكُـــــوِّرتْ
شمـــسُ النَّهـــار وأظلـــمَ العَصْـــرانِ
الأرضُ مِـــنْ بعْــــدِ النَّبــــيِّ كئيبــــةٌ
أسفـــاً عليـــه كثيـــرة الـــرجَفَـــانِ[1]

* وممّا يُنسبُ إلى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في رثاء رسول الله ﷺ قولها:

مــاذا علــى مَــنْ شــمَّ تــربــة أَحْمَــد
ألا يشــمَّ مــدى الــزَّمــان غَــواليــا
صُبّــتْ عَلــيّ مصــائــبٌ لــو أنَّهــا
صُبَّــتْ علــى الأيــام عُــدْنَ ليــاليــا[2]

* وذكر أنَّها ـ رضي الله عنها ـ قالت على قبره أيضاً:

إنَّـــا فقـــدنـــاكَ فَقْـــدَ الأرض وابلهـــا
وغـاب مـذ غبـتَ عنَّـا الـوحيُ والكتـبُ
فليــتَ قبلــك كــان المــوتُ صــادفَنَـا
لمــا نُعيــت وحــالــتْ دونــك الكثُــبُ

* وأوردَ ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في كتابه «أُسْدُ الغابة» أنَّ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ما رؤيتْ ضاحكةً بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى لحقتْ بالله عزَّ وجلَّ، ووَجَدَتْ ـ حزنت ـ عليه وجداً عظيماً ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* * *

الـزَّهْـرَاءُ والصِّـدِّيـقُ ـ رضي الله عنهما ـ:

* لما توفي رسول الله ﷺ تعلَّقتْ آمالُ الزَّهراء بميراثِ أبيها، فجاءت تطلبه من سيِّدنا أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، فحدَّثَها أنَّه سمعَ النَّبي ﷺ يقول: «لا نُورِّث ما تركنا صدقة»، فلم تَعُدْ تُكلمه في الميراث،

---

(١) انظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس ص (٣٥٨).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٤)، وأعلام النساء (٤/ ١١٣).

وشُغلتْ ـ رضي الله عنها ـ عن كل شيءٍ لِفَقْدِها أكرم الخلق ـ والدها ـ وهي مصيبةٌ تزري بكل المصائب، فما فَقَدَ الماضون مثل محمّد ﷺ، ولا مثله حتى القيامة يُفْقَدُ، كما شُغلتْ ـ رضي الله عنها ـ بالمرضِ الذي لازمها، وجعلتْ تستعدُّ إلى اللقاء القريب مع الله سبحانه، إذ كانت تعلم بقُرْب لحوقها بأبيها، واشتدَّتْ عليها وطأةُ المرض، وعادَهَا سيِّدُنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ.

ذكر الإمام الشَّعبي هذا فقال:

لما مرضتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ أتى أبو بكر فاستأذن.

فقال عليّ: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك.

فقالت: أتحبُّ أَنْ آذنَ له؟.

قال: نعم.

قالت: فأذنتْ له، فدخلَ عليها يترضّاها، وقال:

والله ما تركتُ الدَّار والمال والأهلَ والعشيرةَ إلا ابتغاء مرضاةِ الله ورسوله، ومرضاتِكم أهلَ البيت.

وقال: ثم ترضَّاها حتى رضيتْ[1].

* ويعلِّقُ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ على هذا الخبر تعليقاً مباركاً يرفع من مكانة الزَّهراء عالياً في سماء العلم والأدب فيقول: عَلِمَتِ السُّنة ـ رضي الله عنها ـ، فلم تأذنْ في بيت زوجها إلا بأمره[2].

* أو ليستِ الزَّهراءُ البضعةَ النَّبوية البتول، الشبيهة بأبيها الرسول؟ الفصيحةَ العاقلةَ التي تأدبت بأدب أبيها ﷺ؟.

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١). ومما يشير إلى رضاء فاطمة عن الصديق ـ رضي الله عنهما ـ أنها أوصت زوجة الصديق أن تغسلها إذا ماتت.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).

رِحْلَـةُ الخُـلُودِ:

* حدّثتِ أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

كنَّا أزواجَ النَّبي ﷺ اجتمعنا عنده، لم يغادرْ منهن واحدة، فجاءتْ فاطمة تمشي ما تخطىء مشيتها مشيةَ رسولِ الله ﷺ، فلما رآها رحّبَ بها قال: «مرحباً بابنتي» ثم أقعدها عن يمينه أو عن يساره، ثمَّ سارَّها فبكت، ثمَّ سارها الثَّانية فضحكتْ، فلما قام قلتُ لها: خصَّكِ رسولُ الله بالسر وأنتِ تبكين، عزمتُ عليك بما لي عليكِ من حق لما أخبرتني ممّ ضحكتِ وممّ بكيتِ؟.

قالت: ما كنتُ لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ.

فلما توفي قلتُ لها: عزمتُ عليك بما لي عليك من حق لما أخبرتني.

قالت: أمَّا الآن فنعم، ففي المرة الأولى حدثني «أنَّ جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وأنَّه عارضني العام في هذه السَّنة مرتين وأنّي لا أحسبُ ذلك إلا عند اقتراب أجلي فاتقي الله واصبري فنِعْمَ السَّلف لكِ أنا» فبكيتُ، فلما رأى جزعي قال: «أمَا ترضين أَنْ تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة»؟ قالت: فضحكتُ[1].

* وكانت فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ قد ثقل عليها المرضُ بعد وفاة أبيهاﷺ، ونحل جسمها من شدة الحزن، وشعرت بدنو الأجل، وشكتْ إلى أسماء بنت عميس ـ زوج أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ ما يدورُ في نفسها قالت:

يا أسماء إنّي أستقبحُ ما يُصْنَعُ بالنِّساء يُطرح على المرأة الثَّوب فيصفها.

فقالت أسماء: يا بنةَ رسول الله ﷺ، ألا أريك شيئاً رأيتُه بالحبشة؟ فدعت بجرائدَ رطبةٍ فحنَتْهَا ثمَّ طرحتْ عليها ثوباً، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله!

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٠)، وأنساب الأشراف (١/ ٥٥٢)، والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

* وتوفيتِ الزَّهراءُ ـ رضي الله عنها ـ ليلةَ الثلاثاء لثلاثٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وذكر عروة بن الزبير أنَّ فاطمةَ توفيت بعد النَّبي ﷺ بستة أشهر وهي ابنة تسع وعشرين سنة، وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ فكانت أول أهله لحوقاً به، وغسَّلَها زوجها وأسماء بنت عميس، وأشارت على زوجها أَنْ يدفنها ليلاً، وصلى عليها العباس، وقيل إنَّ علياً صلى عليها وقيل أبو بكر، ونزل في حفرتها عليٌّ والعبّاسُ والفضلُ بن العباس ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ[1].

* ولعلي بنِ أبي طالب بعد موتِ زوجته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ:

لكــل اجتمــاعٍ مِــنْ خليليــنِ فــرقــةٌ
وكــلُّ الــذي دونَ الممــاتِ قليــلُ
وإنَّ افتقــادي فــاطمــاً بعــد أَحْمــد
دليــلٌ علــى ألاَّ يــدوم خليــلُ

* * *

بشارَتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال جلَّ شأنه عن مصير الصَّادقين: ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

* ولفاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ متميزة بين نساءِ الإسلام، وخصوصاً في مجال العبادة، وقد سُمِّيتْ بتولاً لانقطاعها عن نساء الأمةِ فَضْلاً ودِيْناً وحَسَباً.

وكانت ـ رضي الله عنها ـ بعيدة عن زخارفِ الدنيا وآفاتها، مقبلة على الله

---

(١) عن الاستيعاب (٤/ ٣٦٧ و٣٦٨)، وأنساب الأشراف (١/ ٤٠٢ و٤٠٥).

سبحانه إقبالاً شديداً رفعها إلى طبقات الأصفياء، وجعلها سيّدة النساء في زمانها.

* والزّهراءُ إحدى بنات النبي ﷺ اللاتي ستقرُّ بهنَّ عينهُ ـ إن شاء الله ـ في الجنّةِ، فقد كانت ـ رضوان الله عليها ـ تريدُ الآخرة وتسعى لها سعيها، فنالتْ بذلك الرِّضوان، وأحاديثُ بشارتها بالجنةِ كثيرة مروية في الصِّحاح، مِنْ ذلك ما رُوي عن سيِّدنا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

قال: خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض أربعةَ خطوطٍ.

قال: «هل تدرونَ ما هذا»؟.

فقالوا: الله ورسولهُ أعلمُ.

فقال: «أفضلُ نساءِ أهل الجنّةِ خديجةُ بنت خويلد وفاطمةُ بنت محمد، وآسيةُ بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريمُ بنت عمران»[1].

* وعن أمِّ المؤمنينَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النَّبيُّ ﷺ لفاطمة: «أما ترضينَ أنْ تكوني سيدة نساء أهل الجنَّة أو نساء المؤمنين»[2]؟.

* ومن الأحاديثِ التي بُشِّرَتْ بها فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ ما رواه سيدنا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نزل مَـلَكٌ فبشرني أنَّ فاطمةَ سَيّدة نساءِ أهل الجنة»[3].

* وبعد، ففي حياة الزَّهراء الكثير الكثير، وأذكِّرُكَ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّها كانت إحدى راويات الحديث النَّبوي الشَّريف، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: ولا نعلمُ أحداً من بناتِ رسول الله ﷺ أَسْنَدَ عنه غير فاطمة ـ رضي الله عنها ـ.

* روت عن النَّبي ﷺ ثمانية عشرة حديثاً، ورواياتها في الكتب السّتة، وقد

---

(1) الحديث رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والحاكم (٣/ ١٦٠).
(2) رواه الإمام البخاري في علامات النبوة، ومسلم في الفضائل.
(3) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٣).

أخرج لها منها في الصَّحيحين حديث واحدٌ متفقٌ عليه، وروى عنها ابنها الحسن والحسين وعائشة وأمُّ سلمة وأنس بن مالك وغيرهم.

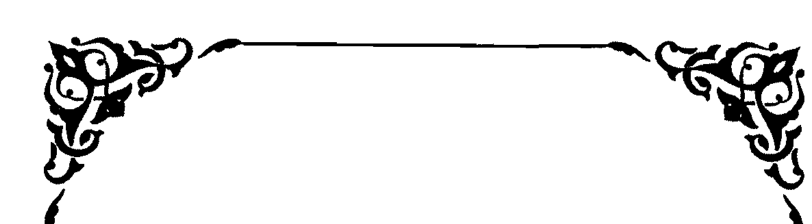
* رضي الله عن فاطمة ابنةِ سيدنا رسول الله ﷺ مثال الابنة البارّة.

* ورضي الله عنها أُمّاً مباركةً، ويكفيها من البركة أنَّ الذرية النبوية انحصرتْ فيها.

* ورضي الله عنها زوجاً صابرة، وعابدة قانتةً، وحامدةً شاكرةً.

* ومع وداع سيرتها المعطار نمتعُ الأسماعَ، ونطمئنُ القلوبَ بذكرِ الله، ونقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ـ ٥٥].

* * *



(١٣)

الفُـرَيْعَـةُ بنْـتُ مَـالِك

رضي الله عنها

* «لا يَدخلُ النَّارَ إنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الذينَ بَايَعُوا تَحْتَها». حديث شريف

* قال رسول الله ﷺ للفريعة:

«امْكُثي في بيتِكِ حتى يَبْلغَ الكتَابُ أَجَلَه».

حديث شريف





في رحَـابِ المُفْـلِحيـنَ:

* صحابيةُ هذه الصَّفحات ممَنْ كُتبتْ لها السَّعادة في الدّارين، حظيت بشرف الصُّحبة النَّبوية، وصدقت ما عاهدتِ الله عليه.

* تنتسبُ هذه الصَّحابيةُ إلى قومٍ يحبونَ مَنْ هاجر إليهم، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إنَّهم أهل المدينة المنورة الذين تَوّجهم الله بقلبِ حبيبٍ إلى قلوبهم ـ الأنصار ـ حين أَنْ تبوؤوا الإيمان، فنالوا الفلاح بإيثارهم المهاجرينَ على أنفسهم، وأنزلوهم في منازلهم منزلاً يرشحُ بالكرم ويفيضُ بالإعظام، حتى ضربوا بذلكَ أَنْصَع الأمثلة العملية في تاريخ الكرمِ والإيثار، وعرفَ المهاجرون لهم هذا الفضل، وقدَّروا لهمَ صنيعَهم الطَّيِّب، فعن سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

قالَ المهاجرون:

يا رسول الله ما رأينا مثلَ قومٍ قَدِمنا عليهم أَحْسَن مواساة في قليل ولا أحسن بَذْلاً من كثير، كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ؛ حتى لقد خشينا أَنْ يذهبوا بالأجْرِ كلِّه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «كلاّ ما أثنيتُم عليهم ودعوتُم الله عزَّ وجلَّ لهم»[1].

* إذاً فالله سبحانه هو الذي يتولى جزاء الأنصار معدن الخير والكرم، كما أنَّ الله سبحانه يُعظِمُ الأجرَ للمهاجرين ما داموا يثنون على الأنصار ويدعون لهم.

* والآن، لندخل هذه الأجواء العبقة، ونقف عند إحدى الدُّور المباركةِ من دور الأنصار نتعرفُ ضيفةَ هذه الصَّفحات.

* * *

---

(١) انظر الفتح الرباني (٢١/ ١٠).

النَّسَبُ الطَّيِّبُ:

* في دارِ بني الحارث بن الخزرج نلتقي صحابية اليوم، إنَّها الفريعةُ بنتُ مالك بنِ سنان الأنصارية الخدرية، إحدى النِّساء الفاضلاتِ الكريمات اللواتي سَعَيْنَ للخير وعمِلْن للجنَّة.

* عاشت الفريعةُ في أسرة من أشهر الأُسَر التي قدَّمتْ كلَّ خيرٍ في جميع المجالات، وأَثْرتِ التَّاريخ بمواقفها الفيّاضة بالبركات، وذلك من أولِ يوم لامَسَ نورُ الإيمان شغاف قلوبها.

* فأبوها سيِّدُنا مالكُ بنُ سنان بن عُبيد الأنصاري الخزرجي الخُدْري، الصَّحابي الجليل الذي نال البشارة بالجنَّة، وقال عنه النَّبيُّ الحبيبُ ﷺ: «مَنْ أرادَ أَنْ ينظرَ إلى رجلٍ مِنْ أهل الجنَّةِ فلينظر إلى هذا» وأشار إلى مالك بنِ سنان[1].

* وأخوها الشَّقيقُ، الإمامُ المجاهدُ، مفتي المدينة سعد بنُ مالك بنِ سنان أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، أحد أبطالِ غزوة الخندق، وأحدُ الأعلام في بيعة الرِّضوان.

حدَّثَ عن النَّبي الكريم ﷺ فأكثرَ وأطابَ، وكان أحد الفُقهاء المجتهدين، وأحد الرُّواة السَّبعة المكثرين الذين تجاوزت مروياتهم أكثر منْ ألفِ حديث، روى عن النَّبي ﷺ (١١٧٠) حديثاً.

قال عنه ابنُ عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أُسدِ الغابة: كان أبو سعيد مِنَ الحفَّاظ المكثرين العلماء الفضلاء العقلاء.

* أمَّا أخوها لأمِّها فهو الأميرُ المجاهدُ، من نُجباء الصَّحابة سيِّدُنا قتادة بنُ النّعمان الأنصاري الظَّفري، أبرز أبطال غزوة بدر، وأحد الذين أبدعوا يوم أحد، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان مِنَ الرُّماةِ المعدودين،

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سيدنا مالك بن سنان ـ رضي الله عنه ـ في كتابنا رجال مبشرون بالجنة جزء (٢) ففيه ما يدخل السرور إلى النفس.

وهو الذي وقعت عينُه على خده يوم أحد، فأتى به النَّبي ﷺ فغمزها رسولُ الله بيده الشَّريفة فردَّها فكانت أصحَّ عينيه وأحدَّهما نظراً.

* وأختُّها لأمِّها، أمُّ سهل بنتُ النّعمان الأنصارية الظَّفرية، أسلمتْ أمُّ سهل، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ.

* بين هذه الفئة الخيّرة النَّيرة، نشأت الفريعةُ بنتُ مالك ـ رضي الله عنها ـ، تنهل المكارم والفضائل، لتتركَ لمساتٍ مباركةً في تاريخِ نساء الإسلام.

* * *

الـذِّكْرى العَطِـرَةُ:

* كان سيِّدُنا مالكُ بنُ سنان ـ رضي الله عنه ـ يحدِّث أسرته عن النَّبي الكريم ﷺ قَبْلَ مَقْدمه المدينة المنورة؛ لأنَّه سمعَ من اليهود عن ظهوره، وظلَّت صفاتُ النَّبي ﷺ مرتسمةً في أذهان أسرته وخاصة في ذهن ابنته الفُريعة.

* وعندما أقبل النَّبيُّ ﷺ مهاجراً، سارع سيّدنا مالك بنُ سنان ـ رضي الله عنه ـ إلى لقائهِ وبصحبته أسرته وفي مقدمتهم الفُرَيْعة، وذلك لاستقبالِ النبي ﷺ ومبايعته.

* وحظيتْ هذه الأسرة بمكانةٍ رفيعةٍ عند رسول الله ﷺ، وصَحِبَتْه أَحْسَنَ صُحْبةٍ، وقدمت كلَّ ما تستطيع في سبيل مرضاةِ الله ومرضاة رسوله، فقدّمتِ الشَّهيدَ المجاهد، وقدّمتِ المحدِّثَ والعابد، فكُتِبَ لها الخلودُ، وفازت بالنَّعيم المقيم عند الله سبحانه وتعالى.

* * *

ابْـنَـةُ الشَّهيْـدِ:

* كان سيّدنا مالك بن سنان ـ رضي الله عنه ـ ممَّنْ لم يحضرْ غزوة بَدْر،

لأنه ظنَّ أَنْ لا يكونَ هناك قتال، ولما كانتِ غزاة أُحُد، أحبَّ أَنْ يحظى بالشَّرف الأوفى، ويكسب أَجْرَ الجهاد، وكان له رأيٌ في الخروج لملاقاة المشركين، وتقدَّم وقال لرسولِ الله ﷺ:

يا رسول الله، نحنُ والله بين إحدى الحُسنيين، إمَّا أَنْ يظفرنا الله بهم فهذا الذي نُريد، فيذلهم الله لنا، فتكون هذه وقعةٌ مع وقعةِ بدر، فلا يبقى منهم إلا الشَّريد، والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشَّهادة.

والله يا رسول الله ما أُبالي أيهما كان إنّ كُلاًّ لفيه الخير[1].

* وانطلقَ سيّدنا مالك مصطحباً معه ابنه أبا سعيد لينال هو الآخر شرف الجهاد، لكنَّ أبا سعيد لم يُسْمَحْ له بدخولِ المعركة، وردَّه النَّبي الكريم مع ثُلّةٍ مِنَ الأولاد لِصغَر سنّهم، وعاد أبو سعيد إلى بيته وعينُه تفيضُ مِنَ الدَّمع حزناً لعدم مشاركتهِ في الجهاد.

* وكانت أختُه الفُريعة ـ رضي الله عنها ـ ترى كلَّ هذا، وأخذت تمسحُ دمعةَ أخيها، وتغرسُ في نفسه الأملَ بحضورِ مشاهدَ أخرى، ثم راحت ترقُب المعركة، وتتسقّطُ أخبارها، وكان والدُها واحداً مِنَ الأبطال المتألقين الذين ثبتوا حول النَّبي الكريم ﷺ ساعة اشتدادها.

وفي هذه المعركة، جُرِحَ رسولُ الله ﷺ، فنظرَ مالكُ بن سنان ـ رضي الله عنه ـ إلى وجههِ الشَّريف فرأىٰ الدمَ يسيلُ منه، فتقدَّم وامتصَّ الدمَ مِنْ وجنَتِهِ الشَّريفة وابتلعه، فقال له ﷺ: «مُجَّه» فقال: والله لا أمجُّه أبداً، وخالط دمُ رسول الله ﷺ دمَ سيّدنا مالك؛ فتحظّر بحظار من النَّار وفاز بالرضوان، ثم ظلَّ يجاهد ويجالدُ حتى نالَ الشَّهادة وعلى وجههِ بسمةُ الرِّضا، فقد كان آخر لحظاته مِنَ الدُّنيا ملامسة وجه رسول الله ﷺ، وذلك ما كان يرغب فيه ـ رضي الله عنه ـ.

* * *

---

(١) انظر المغازي للواقدي (١/ ٢١١).

«وَبَشِّر الصَّابِرِيْنَ»:

* نَالَ سيدنا مالك بنُ سنان الشَّهادة، ومضى إلى ربه راضياً مرضياً، وخلَّفَ أسرته وقد غرسَ فيها مجموعةً مِنَ الفضائل؛ وفي مقدمتها محبّة اللهِ سبحانه ومحبة رسوله الكريم ﷺ، فآتت غِراسُه أُكُلها ونالت الأَجْرَ مِنَ الله، فقد وَرَدَ الخبرُ إلى المدينة بعودةِ رسول الله ﷺ مِنَ أحد، فخرج أبو سعيد الخُدري يتلقى رسول الله ﷺ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «سَعْدُ بن مالك»؟.

قال: نعم بأبي وأمّي أنتَ.

قال أبو سعيد: فدنوتُ منه؛ فقبلتُ ركبتيَه.

فقال النَّبي ﷺ: «آجرك الله في أبيك»[1].

* وكانتِ الفُريعةُ ـ رضي الله عنها ـ تنتظر بفارغ الصَّبر عودة رسولِ الله ﷺ مِنْ أُحُدٍ سالماً، بعد أَنْ تناثرتِ الأخبارُ بإصابته عليه الصَّلاة والسَّلام، وبسقوطِ عدد كبير من الشُّهداء، وها هو أبو سعيد يعودُ إلى أخته الفُريعة وإلى أهلهِ يبشرهم بسلامةِ النَّبي الكريم ﷺ وعودته ثمَّ أخبرهم أَنَّ الله سبحانه قد اتخذَ شُهداء ومنهم والده، فحمدوا الله على سلامة رسول الله ﷺ فكلُّ مصيبةٍ بعده جَلَل[2].

* وقد ضربتِ الفُريعة بنتُ مالك ـ رضي الله عنها ـ مع أسرتها أروعَ الأمثلةِ في الصَّبر، والرِّضا والتَّسليم لله، فقد استشهد والدُها، وترك أفرادَ أسرتهِ لا يملكون من حُطام الدّنيا شيئاً؛ وأحياناً لا يجدونَ ما يأكلون، غير أنّهم تعفّفوا واستغنَوْا، فأغناهم الله وأكرمهم حتى غدوا مِنَ أكثر الأنصار أموالاً ببركةِ صبرهم واتباعهم هديَ رسولِ الله ﷺ؛ عندما قال:

---

(١) عن صفة الصفوة (١/ ٧١٤) بتصرف يسير.

(٢) «جلل»: أي هينة.

«مَنْ يستغنِ يُغْنِهِ الله، ومَنْ يستعففْ يعفه الله، ومَنْ يتصبّر يصبره الله»[1].

* * *

«كَيْفَ قُلْتِ»؟:

* كانتِ الفُريعة - رضي الله عنها - قد تزوَّجت من سهل بن رافع بن بشير الخزرجي، وعاشت معه مدة، وخرج مرة في طلب عَبيد له فغدروا به وقتلوه قربَ المدينة المنورة، ولما بلغها مقتلُ زوجها حزنتْ عليه حزناً شديداً، واحتسبتْهُ عند الله، وأحبَّت أَنْ ترجعَ لبيت أهلها لأنَّه أَجْمع لها في أمرها، وتكون بقرب أخيها أبي سعيد، غير أنها وجدتْ في الأمْرِ شيئاً، فأحبَّتْ أَنْ تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، وتروي الفريعةُ خَبَر اللقاء المباركِ مع النَّبي ﷺ وحُكْمِهِ.

* فقد أخرجَ الإمامُ مالك - رحمه الله - في الموطأ بسنده عن زينبَ بنتِ كعب بن عجرة أَنَّ الفُريعة بنتَ مالك بنِ سنان أخبرتها:

أنَّها جاءتْ إلى رسول الله ﷺ تسأله أَنْ ترجعَ إلى أهلها في بني خُدرة، فإنَّ زوجَها خرجَ في طلب أَعْبُدٍ له أَبَقُوا، حتى إذا كانوا بطَرَفِ القَدُوم - موضع - لحقَهم فقتلوه.

قالت: فسألتُ رسولَ الله ﷺ أَنْ أرجعَ إلى أهلي في بني خُدرة، فإنَّ زوجي لم يتركْني في مَسْكنٍ يملكه ولا نَفَقَة.

قالتْ: فقال رسولُ الله ﷺ «نعم».

قال: فانصرفتُ؛ حتى إذا كنتُ في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ، أو أَمَرَ بي فنُوديتُ له.

فقال: «كيفَ قُلْتِ»؟.

فرددتُ عليه القصة التي ذكرتُ له مِنْ شَأْن زوجي.

---

(١) انظر: الإصابة (٢/ ٣٣).

فقال: «امكثي في بيتِكِ حتى يبلغَ الكتابُ أَجَلَه».

قالت: فاعتددتُ فيه أربعةَ أشهرٍ وعشراً.

قالت: فلما كان عثمانُ بنُ عفان أرسل فسألني عن ذلك فأخبرته فاتَّبعه وقضى به[1].

* وامتثلتِ الفُريعةُ ـ رضي الله عنها ـ أَمْر النَّبِي الكريم ﷺ، ومكثت في بيتها أربعةَ أشهر وعشراً، ولما تمَّتْ عدتها، وبلغ الكتابُ أجله خلف عليها سهل بن بشير بن عنبسة أحد بني ظفر من الأنصار.

وظلّتِ الفُريعة تتابعُ أحداث الإسلام في أطواره المختلفة، وتشارك في الأمور التي سمح بها الدِّين، ولما كانتْ بيعةُ الرِّضوان كانت من المبايعات ـ تحت الشَّجرة ـ اللائي بايعنَ رسول الله ﷺ، وبقيت تقدمُ ما فيه الخير إلى أَنْ لقيت ربَّها.

* * *

المُحَـدِّثَـةُ الوَاعيَـةُ:

* كان الفُريعة بنتُ مالك ـ رضي الله عنها ـ تحضُر مجالسَ النَّبي الكريم ﷺ، وكان حافظةً واعيةً، روتْ عن النَّبي ﷺ ثمانية أحاديث، وروت عنها زينب بنت كعب بن عجرة.

وقد روت زينب بنت كعب عن الفُريعة حديثها الآنف الذِّكْر[2]

---

(١) الموطأ (٢/ ٥٩١). وانظر كذلك مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٧٠ و٤٢١)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٣٦٨)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٩٨)، والإصابة (٤/ ٣٧٥).

(٢) قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في كتابه تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٤): إنَّ حديثَها المذكور صحيحٌ رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في أسانيد صحيحة. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق ـ باب المتوفى عنها زوجها.
وأخرجه الترمذي في كتاب الطلاق ـ باب ما جاء أين تعتد المتوفى عنها زوجها. =

في سكنى المتوفى عنها زوجُها.

* وفي زمن سيّدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، توفي زوجُ إحدى النِّساء، فدعا سيِّدُنا عثمان الفُريعة ـ رضي الله عنها ـ ليسألها عن حَكم رسول الله ﷺ في المتوفى عنها زوجها.

وروتِ الفُريعةُ هذا فقالت:

إنَّ عثمان ـ رضي الله عنها ـ سُئِلَ عن مثل ذلك، فذُكرتُ له فأرسل إليَّ، فدخلتُ عليه وهو في جماعةٍ من النَّاس، فسألني عن شأْني وماذا أمرني به رسولُ الله ﷺ، فأخبرتُه، فأرسل إلى المرأةِ التي توفي عنها زوجها فأمرها أَنْ لا تبرحَ بيتَها حتى يبلغَ الكتابُ أجله[1].

* وهكذا فقد تلقى سيّدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ حديثَ الفُريعة بالقَبُول وقضى به بمحضر المهاجرين والأنصار؛ وقد أخذ به العلماء واستعمله أيضاً أكثر فقهاء الأَمْصَار في المدينة وفي الحجاز والشَّام والعراق ومصْرَ، وتلقوه بالقبول وقضوا به.

* وقد أورد ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم ـ زاد المعاد ـ خبراً مفاده أَنَّ محمد بنَ سِيرينَ ـ رحمه الله ـ ذَكَرَ أَنَّ امرأة توفي عنها زوجُها وهي مريضةٌ فنقلها أهلُها، ثمَّ سألوا فكلُّهم يأمرهم أَنْ تُرَدَّ إلى بيت زوجها. قال ابن سيرين: فرددناها في نمطٍ ـ فراش ما ـ. وكان حجة رَدِّها لأهلها حديث الفُريعة بنتُ مالك ـ رضي الله عنهما ـ وأرضاهما.

* ومنَ الجدير بالذكر أنَّ روايةَ النِّساء عنْ رسولِ الله ﷺ مُجْمَعٌ على قبولها، ولولاها لذهبت سننٌ كثيرة من سُنَنَ الإسلام التي لا يُعرف أَنَّه رواها إلا النِّساء.

= وأخرجه النسائي في كتاب الطلاق ـ باب مقام المتوفى عنها زوجها في بيتها حتى تحل.

(١) الطبقات (٨/ ٣٦٧).

* وهكذا ظلَّتِ الفُريعةُ بنتُ مالك ـ رضي الله عنها ـ مرجعاً في هذا الباب لكبار الصَّحابة والتابعينَ، يسألونها عن حكم رسول الله ﷺ، كما ظلَّ حديثُها عمدة المحدثين إلى أنْ يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها.

* * *

بَشارَتُهَا بِالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿. . . . . . وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطَّلاق: ١١].

* الصَّحابية الجليلةُ الفُريعة بنتُ مالك الأَنْصاريةُ من النِّساء اللاتي حظين بالبركةِ في أطوار حياتهن، ونلن السَّعادة بالإيمان والصِّدق، ففزْنَ برضوانِ الله سبحانه وتعالى، وبالبشارة بالجنّة.

* والفُريعةُ ـ رضي الله عنها ـ مِنَ الفئة المجاهدةِ من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشَّجرة بالحديبيةِ في السَّنة السَّادسة مِنَ الهجرة، عندما صدَّ المشركونَ المؤمنينَ مِن دخول مكةَ المكرمةَ، وكلُّ مَنْ حَضَرَ هذه البيعة يُعدُّ مِنْ أهل الجنَّة ـ إنْ شاء الله ـ لقولهِ تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ . . ﴾ [الفتح: ١٨].

* هذا وأَجْمع المؤرخون وكلُّ مَنْ ترجم للفُريعة ـ رضي الله عنها ـ، أنَّها حضرتْ بيعة الرِّضوان[1] التي دعا إليها رسول الله ﷺ لمّا طالَ احتباسُ سيدنا عثمان بن عفان بمكةَ، وتطايرتِ الإشاعاتُ بأنَّ قريشاً غدرتْ به وقتلته، وقد أكرم الله نبيّه ﷺ وأصحابَه، وأَظْهَر فَضلَهم في كتابه بأنَّهم سيؤتيهم أجراً عظيماً.

---

(١) انظر مثلاً: الاستيعاب (٤/ ٣٧٥): وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٤)، والاستبصار ص (١٢٨)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٤٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٩٨).

* وقد بشَّر النَّبيُّ ﷺ الفُريعة ومَنْ حضر البيعةَ بالجنَّة، فعن أمِّ مبشّر الأنصارية أنها سمعت النَّبي ﷺ يقولُ عند حفصة: «لا يدخلُ النَّارَ إنْ شاء الله مِنْ أصحاب الشَّجرة أحدٌ من الذين بايعوا تحتها».

قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها.

فقالت حفصةُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١].

فقال النَّبيُّ ﷺ: «قد قال الله عزَّ وجل: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾»[1] [مريم: ٧٢].

* وبعدُ فهذه سيرةُ صحابيةٍ كريمةٍ ابنة صحابي كريم وأختُ صحابيين كريمَيْن وبنتُ صحابية كريمة، رضي الله عن الفُريعة وعن أهلها، ومع وداع سيرتها الطَّيبة نقرأ قولَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤٢٠)، والإمام مسلم في الفضائل (١٦/ ٥٧و٥٨).



(١٤)
أم المنـذر
سلْمَىٰ بنْتُ قيـس الأَنْصاريَّـة
رضي الله عنها

* ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. قرآن كريم

* «لا يَدخُلُ النَّارَ أَحَدٌ ممَنْ بايَع تحتَ الشَّجرة».
حديث شريف

* «أمّ المنذر بايعت بيعة الرضوان».



نِعْـمَ الأَخْـوَال :

* كان هاشم بنُ عبد مناف رجلاً تاجراً كثيرَ المالِ، يُكْثر منَ الأسفار ما بين مكة والشّام، وفي إحدى سفراته نزل بالمدينة، فرأى سلمىٰ بنتَ عمرو ابن زيد أحد بني عدي بن النَّجار من الخزرج، فأعجب بها، وكانت سلمى هذه ذات شرفٍ واعتزازٍ بنفسها في قومها، فتزوّجها هاشم؛ فولدت له عبد المطلب فسمته شيبة، فتركه هاشم عندها حتى أضحى غلاماً دون المراهقة، فذهب إليه عمُّه المُطلب فجاء به إلى مكةَ بعد أَنْ توفيَ أبوه هاشم في «غَزَّةَ» من أرض الشَّام، وصار أمْرُ بني هاشم إلى عبد المطلب.

* وفي أخبار عبد المطلب ما يشيرُ إلى ذِكْره أخواله بني النَّجار في أشعاره، من ذلك قوله يستنجدُ بهم لردِّ أركاح ـ أرض ـ سُلِبت منه :

يــا طــولَ ليلـي وأحــزانـي وأشغـالـي
هــل مِــنْ رســول إلـى النَّجـارِ أخـوالـي
فـاستَنْفِـروا وامْنَعـوا ضَيْـم ابـن أختكـمُ
لاتخـــذلـــوه فمـــا أنتـــم بخـــذّالِ

وبالفعل أقبل بنو النَّجار، واستجابوا لعبد المطلب، ورُدَّتْ له أرضه، وفي ذلك يقول عبد المطلب من قصيدة يذكرهم :

بهـــم ردَّ الإلـــهُ علـــيَّ رَكْحـــي
فكـانـوا فـي التَّنسُـبِ دون قـومـي[١]

* ومن الأخبار الطَّيبة التي تجعلُ بني النَّجار في مكانةٍ كبيرةٍ، ما أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ أنَّ النَّبي الكريم ﷺ دخل على رجل من بني النَّجار يعوده، فقال رسولُ الله ﷺ : «يا خال قُلْ لا إله إلا الله».

فقال : خالٌ أنا أو عَمٌّ؟.

---

(١) انظر في هذا كتاب «المنمق في أخبار قريش» لابن حبيب البغدادي ص(٨٤و٨٥).

فقال النَّبي ﷺ: «لا، بل خال».

فقال: «قُل لا إله إلا الله».

قال: هو خير لي؟.

قال: «نعم»[١].

* ولذلك كان النَّبي الكريم ﷺ يقولُ عن بني النَّجار الخزرجيين إنَّهم أخواله؛ لأنَّ سلمى بنتَ عمرو أمّ جدِّه عبد المطلب كانت منهم، وهذا من لُطفه وبرِّه وصِلةِ رحمه وكرمه ﷺ.

* * *

الخَـالـةُ الكريمَــةُ:

* مِنَ الأخوال الكرام، تأتي صحابية اليوم لتُتحفنا بأحداث طيِّبة، ومواقفَ مباركة، وأعمال وضيئة في المجالات الخيّرة.

* الإمام ابن الأثير ـ رحمه الله ـ يقدِّمُ لنا بطاقة تعريف لها فيقول: سلمى بنت قيس بن عمرو بن عبيد. . . بن عدي بن النَّجار، تُكنى أم المنذر، وهي إحدى خالات النَّبي ﷺ من جهة أبيه[٢].

* كانت أمُّ المنذر مِنْ أُولى المؤمنات اللائي دخل الإيمانُ في قلوبهن؛ مِنْ أولِ يوم صافح أسماعهن ـ عن طريق دعوة مصعب بن عمير إلى الإسلام في المدينة ـ فأعلنت إسلامها لتحوز السَّبْق في مضمار السَّابقات، فقد كانت مِنَ المبايعات، وصَلَّتِ للقبلتين، وحظيت بالصُّحبة النَّبوية الشَّريفة؛ قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: أمُّ المنذر الأنصارية، إحدى خالات النَّبي ﷺ، صلَّتْ معه القبلتين[٣].

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٥/ ٣٠٥).

(٢) أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠٠٥).

(٣) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٨٠).

* وقال ابن عبد البر: وهي أختُ سُليط بن قيس. . . . وسليط هذا واحد من فرسان مدرسة النُّبوة، شَهِدَ بدراً وأحداً والخندقَ والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وهو أحد أبطال معركة الجسر الشَّهيرةِ مع أبي عبيد، حيثُ قُتلَ يوم الجسر شهيداً سنة أربع عشرة من الهجرة، وله أخبارٌ مباركة تدلُّ على كرمه ومكانته وشجاعته ـ رضي الله عنه ـ[1].

* ولأمِّ المنذر أيضاً أختان أخريان هما: أمُّ سُليم بنتُ قيس وعُميرة بنتُ قيس، وقد أسلمتا وبايعتا رسول الله ﷺ[2].

* فأمُّ المنذر إذاً من غصنِ دوحةٍ زاهيةٍ زاكيةٍ، أصلُها ثابتٌ في منابتِ الإسلام وفروعها متطاولةٌ في السَّماء.

* * *

المُصَـلِّيـةُ المُبايعَـةُ:

* عندما ذكر أبو نعيم الأصبهاني الصَّحابيةَ الكريمةَ أمَّ المنذر وصفها بقوله: المُصَلِّية للقبلتين، المحافظةُ على البيعتين سلمى بنت قيس النَّجارية.

* ولبيعة أمّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ قصةٌ شائقة طريفة، ولكنْ قبل أَنْ نتعرّفَ قصةَ بيعة أمِّ المنذر، دعونا نطَّلع على المحور العام لبيعة النِّساء من خلال أركانها السِّت، فقد بايعتِ النِّساء النَّبي الكريم ﷺ:

ـ على أَنْ لا يشركن بالله شيئاً،
ـ ولا يسرقنَ،
ـ ولا يزنينَ،
ـ ولا يقتلن أولادهن،
ـ ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن،
ـ ولا يعصينَ في معروف.

---

(١) انظر ترجمة الصحابي سليط بن قيس في الطبقات (٣/ ٥١٢)، والإصابة (٢/ ٧٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٢ و٤٢٣).

* وقد ضمن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لهن الجنَّة إِنْ حافظْنَ ووفَّين بشروط هذه البيعة، وفي القرآن الكريم ذَكَرَ الله خبر هذه البيعة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ولنترك أمّ المنذر تروي لنا قصةَ بيعتها المباركة فتقول: جئتُ رسولَ الله ﷺ فبايعتهُ في نسوةٍ من الأنصار، فلما شَرَطَ علينا ألا نشركَ بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف قال: «ولا تغشُشن أزواجكن» قالت: فبايعناه ثمّ انصرفنا. فقلتُ لامرأةٍ منهن: ارجعي فَسَلي رسولَ الله ﷺ ما غش أزواجنا؟ قالت: فسألَتْه فقال: «تأخذُ مالَهُ فتحابي بهِ غيره»[1].

* وذكر ابنُ سعد في الطبقات أنَّ زوج أمّ المنذر هو قيس بن صعصعة بن وهب النَّجاري، فولدت له المنذر بن قيس.

* تلك هي بيعة أمّ المنذر ـ رضوان الله عليها ـ، وقد وفَّت بشروطها لتحظىٰ برضوان الله سبحانه وتعالىٰ.

* * *

مشَارَكتُها فـي الجِهَـاد:

* لهذه الصَّحابية الجليلة مكانة عظيمة عند رسول الله ﷺ، دلَّ عليها إكرامُهُ إياها في ساحات الجهاد حيث قَبِلَ شفاعَتها في رجل لاذَ بها[2]، كان هذا في غزوة بني قريظة عقبَ غزوة الأحزاب، إذْ حظيتْ أمُّ المنذر بمكرمة خاصةٍ من رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر الحلية (٢/٧٧)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٥٠٠٧)، والإصابة (٤/٣٢٥)، والاستبصار ص(٤٤)، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٣٨٠ و٤٢٣).

(٢) انظر في هذا الدرر ص (٢٠٦ و٢٠٧)، والبداية والنهاية (٤/١٢٦).

* ففي غزوة الأحزاب دارتِ الدَّائرةُ على المشركين مِنْ قريش وغطفانَ الذين جاؤوا ليقضوا ـ بزعمهم ـ على المسلمين، ولكنَّ الله ردَّ كيدهم إلى نحورهم، ولم تَدُرِ الدائرةُ على المشركين وحدهم، بل دارت أيضاً على يهود بني قريظة الذين غدروا وفَجَروا وتجسسوا، وأعانوا العدو، وخانوا العهد، وكانوا إلباً على المسلمين مع المشركين المتحلِّقين حول الخندق خارج المدينة، وكان المسلمون إذْ ذاك في وضع حرج، وقد صوَّرهم القرآنُ الكريم، ووصف حالتهم، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

* ولما أنزلَ الله نَصْره، وهزم الأحزاب، وردَّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، رجع النَّبي الكريم ﷺ إلى المدينة منصوراً، فنَزَلَ جبريل عليه السَّلام قائلاً للنَّبي الكريم ﷺ:

«إنَّ الله تبارك وتعالى يأمرك أَنْ تنهضَ إلى بني قريظة».

وسارع الرَّسول الكريم والمسلمون لتلبيةِ أَمْرِ الله سبحانه، وحاصروا بني قريظة، وخرجتِ الصَّحابيةُ الجليلة أمُّ المنذر إلى هذه الغزوة؛ لتؤدي دورها في خدمةِ المرضى وعلاج الجرحى وسقايتهم.

وحاصرهم الرسول ﷺ خمساً وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم الصَّحابي الجليل سيدُ الأوس سعد بن معاذ الأشهلي ـ رضوان الله عليه ـ؛ لأنَّ بني قريظة كانوا حلفاءَ الأوس في الجاهلية، فحكَمَ عليهم سعدٌ بحكْمِ الله تعالى من فوق سبعة أرقعة ـ سموات ـ بأنْ تُقتلَ مقاتلتهم وتُسبىٰ ذريتهم وأموالهم.

ونُفِّذَ ما حكم به سعد بن معاذ ـ رضي الله عنها ـ، وفي هذه السَّاعات الحرجة تبرزُ أمُّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ لتشفع في رجل سألها أَنْ تَشْفعَ له عند النَّبي الكريم ﷺ.

* * *

«نَعَـمْ هُـوَ لَـكِ»:

* عندما كان المسلمون يُنفِّذون ما حكم به سيّدنا سعد بن معاذ في بني قريظة، وفي تلك اللحظات كانت أمُّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ قرب النّبي ﷺ، ترى نهايةَ بني قريظة، وكان رفاعة بني سموأل القرظي له انقطاع إليها وإلى أخيها سليط بن قيس وأهلِ الدار، وكان رفاعة حين حُبس أرسل إلى أمِّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ أَنْ كَلِّمي محمّداً ﷺ في تَرْكي، فإنَّ لي بكم حرمة وأنتِ إحدى أمّهاتِهِ، فتكون لكم عندي أبداً إلى يوم القيامة.

ورأى النَّبي الكريمُ ﷺ علائمَ الحيرة مرتسمة على وجه أمِّ المنذر فسألها وقال: «مالك يا أمَّ المنذر»؟!.

قالت: بأبي وأمّي يا رسول الله رفاعةُ بن سموْال كان يغشانا ـ يزورنا ـ وله بنا حرمة فهَبْهُ لي.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رفاعة يلوذُ بها، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «نَعم هوَ لكِ».

ثم قالت: يا رسول الله، إنَّه سيصلي ويأكل لَحْمَ الجملِ.

فتبسَّم النَّبي ﷺ ثم قال: «إنْ يُصَلِّ فهو خيرٌ له، وإنْ يثبتْ على دينه فهو شَرٌّ له». ثم أطلَقهُ الرَّسول الكريم ﷺ.

قالتْ أمُّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ: فأَسْلَم رفاعة[1].

وهذا من حسناتها ـ رضي الله عنها ـ، ورفاعة هو خال صفية بنت حيي أم المؤمنين[2].

* ولما أسلم رفاعة كان يُقَالُ له مولى أمّ المنذر، فشقَّ ذلك عليه، واجتنب الدار؛ حتى بلغ أمّ المنذر ذلك، فأرسلت إليه وقالت له: إنّي والله ما نا لكَ بمولاة، ولكني كلَّمْتُ رسولَ الله فوهبك لي، فحقَنْتُ دَمَكَ وأنتَ

(١) انظر ترجمة رفاعة في الاستيعاب (١/ ٤٩٢)، والإصابة (١/ ٥٠٤).
(٢) أسد الغابة ترجمة رقم (١٦٩٠).

على نسبك، فكان بعد ذلك يزورها وعادَ إلى الدَّارِ[1].

* ومنَ المفيد والممتع ذِكْره في هذا المقام، أنَّ سيدنا ثابت بن قيس ابن شماس الأنصاري ـ خطيبُ رسول الله ﷺ ـ أراد اَنْ يجزيَ الزَّبير بن باطا ـ من رجال بني قريظة ـ على معروفٍ كان له عنده في الجاهلية ، فاستوهبه رسولَ الله ﷺ فوهبه له، ووهبَ له معه أهله وماله أيضاً، ولكنَّ الزَّبيرَ بنَ باطا هذا أَبَىٰ إلا أَنْ يلحقَ بأَحِبَّتهِ منَ اليهود، فضُربت عنُقُه[2].

* * *

مَـنْـقَـبةٌ لأمِّ المُـنْـذِر:

* مِنَ الكراماتِ العظيمة التي حظيت بها أمُّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ في غزوة بني قريظة، أنَّ النَّبيِ الكريم ﷺ قد أَعْرس في بيتها، ولندعْ عروسَ رسول الله ﷺ وهي ريحانةُ بنت زيد بن عمرو تروي لنا وقائع ذلك الحدَثِ السَّعيد، تقول ريحانة:

لمَّا سُبيتْ بنو قريظة عُرِضَ السَّبيُ على رسول الله ﷺ فكنتُ فيمن عُرِضَ عليه، فَأَمَر بي فعُزِلْتُ، فلّما عُزلتُ خار الله لي؛ فأرسل بي إلى منزل أمِّ المنذر بنت قيس أياماً، ثم دخل علي رسول الله ﷺ فتحييت ـ اختبأت منه حياء ـ فدعاني فأجلسني بين يديه فقال: «إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه».

فقلت: إني أختار الله ورسوله.

فلما أسلمت أعتقني رسول الله ﷺ، وأصدقني اثنتي عشرة أوقية ونشّاً؛ كما كان يصدق نساءه، وأعرس بي في بيت أم المنذر، وكان يقسم لي كما

---

(١) عن المغازي (٢/ ٥١٤ و٥١٥)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٧١)، وعيون الأثر (٢/ ١٠٣)، والسيرة لابن هشام (٢/ ٢٤٤) بتصرف يسير.

(٢) اقرأ هذه القصة بتوسع في سيرة الصحابي الجليل ثابت بن قيس من كتابنا رجال مبشرون بالجنة، الجزء الأول، طبعة دار ابن كثير.

كان يقسم لنسائه، وضرب علي الحجاب[1].

* وقد ذُكِرَ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان معجباً بها، وكانتْ لا تسأله إلا أعطاها، ولم تزلْ عنده حتى ماتت عند مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع، وكان تزويجه منها في المحرم سنة ست من الهجرة، وتذكُرُ الرِّوايات أنَّها كانت في مِلْكِ رسول الله ﷺ يطؤها حتى ماتت عنده[2].

* * *

طَعَـامُهَا شِفَـاءٌ:

* هذه الصَّحابية الجليلة كانت تحظى بنفحاتِ خاصة من النَّبي الكريم ﷺ، فقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام يخُصّها بالزِّيادة ويأكلُ عندها، ويشير إلى أَنْ طعامَهَا ذو بركةٍ وذو نفع، فقد أخرج أبو داود ـ رحمه الله ـ في سننه بسنده عن أمِّ المنذر بنتِ قيس الأنصاري قالت:

دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ ومعه عليٌّ عليه السَّلام، وعليٌّ نَاقِهٍ[3] ولنا دوالٍ معلَّقة، فقام رسولُ الله ﷺ يأكلُ منها، وقام عَليٌّ ليأكل، فطفقَ رسولُ الله ﷺ يقول لعلي: «مَهْ إنَّك نَاقِهٌ» حتى كفَّ عليٌّ عليه السَّلام. قالت: وصنَعْتُ شعيراً وسِلْقاً[4]، فجئت به فقال رسول الله ﷺ.

«يا علي أَصِبْ مِنْ هذا فهو أنفعُ لك»[5].

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/ ١٢٩ و١٣٠) وبتصرف يسير، وانظر كذلك المغازي (٢/ ٥٢١)، والإصابة (٤/ ٣٠٢)، وعيون الأثر (٢/ ٣٨٤)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤١٣ و٤١٤) في قصص مشابهة.
«النش»: وزن مقداره عشرون درهماً.

(٢) انظر في هذا السيرة لابن هشام (٢/ ٢٤٥)، وطبقات ابن سعد (٨/ ١٣١) والسيرة الحلبية (٣/ ٤١٤)، وانظر كذلك البداية والنهاية (٥/ ٣٠٨و٣٠٩).

(٣) متماثل إلى الشفاء، وعلي هو ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) نبات يؤكل.

(٥) أخرجه الإمام أبو داود في كتاب الطب ـ في الحمية ـ (٢/ ١٥١)، وأخرجه كذلك =

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ امرأةً من الأنصار كانت تطعم الصَّحابة في يوم الجمعة سِلْقاً وشعيراً، فقد أخرج البخاري عن سهلِ بنِ سعد ـ رضي الله عنه ـ قال:

كانت منا امرأةٌ تجعلُ في مزرعةٍ لها سِلْقاً، فكانت إذا كان يوم الجمعةِ تنزع أصول السِّلْق فتجعله في قدْرٍ، ثمَّ تجعل قبضةً من شعير تطحنه، فتكون أصول السِّلق عَرْقة[1].

قال سهل: كُنَّا ننصرفُ إليها منْ صلاة الجمعة فنسلِّم عليها فتقرِّبْ ذلك الطَّعام إلينا، فكنا نتمنىٰ يوم الجمعة لطعامها ذلك، وفي رواية: ليس فيها شحمٌ ولا وَدَكٌ وكنا نفرح بيوم الجمعةِ[2].

* ومَنْ يدري فلعلَّ هذه الصَّحابية المِطْعَام تكون أمّ المنذر الأنصارية بطلة ترجمتنا ـ رضي الله عنها ـ!!.

* * *

بَشارَتُـهَـا بالجَنَّـة:

* قال تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ٨٨ ـ ٨٩].

* الصَّحابية الكريمةُ أمُّ المنذر ـ رضوان الله عليها ـ مِنَ المؤمنات اللاتي سارعن إلى الإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله ﷺ؛ فجعل الله لهنَّ الخيرات، وهي منافعُ الدُّنيا والآخرة، وأثْبَتَ لهنَّ الفلاحَ والفوز يوم القيامة، وأعدَّ لهن جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

= الترمذي في كتاب الطب، ورواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه كذلك الإمام ابن ماجه في سننه.

(١) كالعظم بلحمه عندما يوضع في الطعام، وانظر الطب النبوي لابن القيم مادة السلق.

(٢) عن حياة الصحابة (١/ ٣٢٢)، والوَدَك: الدسم.

* وأمُّ المنذر ـ رضي الله عنها ـ واحدةٌ من النِّساء اللائي حظين بالبشارة العظمى ـ الجنَّة ـ، وقد فازت بهذه البشارة عندما أعلنتْ بيعتها للمرة الثَّانية مع الرَّسول ﷺ؛ ولذلك سُمِّيتْ مبايعةَ البيعتين، وقد شهدنا معها البيعة الأولى، أمّا البيعة الثانية فكانت تحت الشَّجرة في بيعةِ الرِّضوان في السَّنة السَّادسةِ من الهجرة، حينما احتجز المشركون بمكةَ سيِّدنا عثمانَ بنَ عفان ـ رضي الله عنه ـ، قال النَّبيُّ ﷺ وقتذاك: «لا نبرح حتى نناجزَ القوم» ودعا الصَّحابة إلى البيعة التي أَمَرَهُ الله بها، وسارع الصَّحابة الكرامُ رضوان الله عليهم إلى البيعة، كما سارعت أمُّ المنذر في ثُلَّةٍ من الصَّحابيات يبايعن على الموتِ، فقَبِلَ الله البيعةَ المباركة، ورضيَ عن المبايعين، وامتدحهم فقال جلَّ شأنُه: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

* ففي هذه الآية الكريمة بيانٌ بأنَّ المؤمنينَ المبايعينَ تحتَ الشَّجرة بيعةَ الرضوانِ، نالوا مرضاةَ الله وفازوا بالجنَّة عرَّفَها لهم.

* وأجمعتِ المصادر أنَّ أمَّ المنذر رضي الله عنها كانت مِنَ المبايعات بيعة الرضوان[1]، وقد بشَّر رسول الله ﷺ أمَّ المنذر ومَنْ معها بالجنَّة فقال:

«لا يدخلُ النَّار أحدٌ ممَّنْ بايعَ تحت الشَّجرة»[2].

* وهكذا حظيت الصَّحابية المعطاء أمُّ المنذر بشرفِ الجهاد، ونالت بصدقها البشارة بالجنَّة، فأكرمْ بهذه البشارة!!.

* والآن ماذا بقي عند خالة رسول الله ﷺ من مكارمَ وفضائل؟.

* مما يثيرُ الإعجاب أنَّ هذه الصَّحابية الفاضلة قد أبدعتْ في مجالات خيِّرة كثيرة، ويُضاف إلى خيريتها وفضلها أنَّها راويةٌ مِنْ راويات الحديث

---

(١) انظر الاستيعاب (٤/ ٣٢٠)، والحلية (٢/ ٧٧)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٠٠٥)، والاستبصار ص (٤٤).

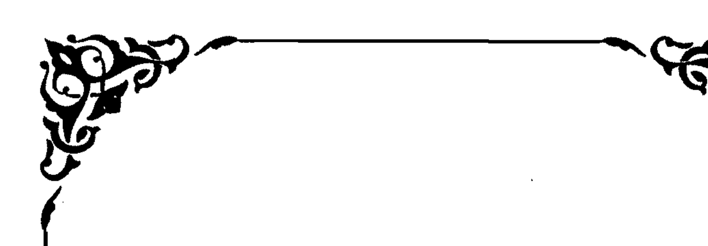
(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، وأخرجه الإمام الترمذي أيضاً في المناقب.

النَّبوي الشَّريف، فقد كانت واعية للحديث، وروت عنها أمّ سليط بن أيوب ابن الحكم، وأيوب بن عبد الرحمن، ويعقوب بن أبي يعقوب المدني[1].

* هنيئاً لأمِّ المنذر فوزها بالرضوان، وبالرَّحيق المختوم بختامٍ منْ مِسْك، ورضي الله عنها ونضَّر قبرها، وفي ختام سيرتها المباركة نقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر الاستيعاب (٤/ ٣٢٠و٣٢١)، وتهذيب التهذيب (٢١/ ٤٨٠)، وأعلام النساء (٢/ ٢٥٢).



(١٥)

أسمَـاءُ بنْتُ أَبـي بكْر
رضي الله عنهما

* «إِنَّ لَكِ بِهِمَا نِطَاقَيْن في الجنَّـةِ». حديث شريف

* قالت أسماء للنبي ﷺ:

يا رسولَ الله إنَّ أُمّي قَدِمَتْ وهيَ راغبةٌ أَفَأَصِلُها؟
قال: «نَعَم صِلِي أُمَّكِ». حديث شريف



أصلها ثابت:

* بطلةُ اليوم لا تحتاج إلى تعريفٍ أو تقديم، فهي كالشمس في رابعة النَّهار، اقترنتْ بالإسلام واقترن الإسلام بها، من أولِ يوم هبت نسائمه على الدُّنيا.

* إنَّها أسماء بنت أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان، أمُّ عبد الله، القرشية، التَّيمية، المكية، ثم المدنية.

* وأسماءُ ـ رضي الله عنها ـ صحابية جمعتِ الخيرَ من منابعه، شأْنُها في ذلك شأن الشَّجرة المعطاء التي نبتتْ نباتاً طيباً، فكانت ثابتة الأصول، أمّا فروعُها فقد باركتها العنايةُ الإلهية، فكان لها ذِكْرٌ جميلٌ، وسيرة عطرة ما تزال الأجيال تتنسّم رائحتها العبقة على مدى الأيام.

* ولدت أسماء بمكةَ قبل الهجرة النَّبوية بسبع وعشرين سنة، وكان عُمْرُ والدها الصِّديق إحدى وعشرين سنة، وفي بيت الصِّديق نشأت نشأةً طيّبة، وقد حباها الله عقلاً ورزانة، فتخلَّقت بالأخلاق الأصيلة، ونشأت على حبِّ الفضيلة.

* أسلمت بطلتنا قديماً قبل الهجرة، وبايعت رسول الله ﷺ، على يَدِ الصِّديق، فكانت في عداد السَّابقين الأولين، وفي طليعة الثُّلة الأولىٰ من جيش الهدى ودين الحق، إذ كان رقمُها في سجل الإيمان الثامن عشر، فكانت من الصَّحابيات الفاضلات اللاتي لهن فضل السَّبْقَ في الإسلام.

وقد جمعت بين صِدْقِ الإيمان وعمق النَّظرة والشجاعة ما جعلها مثلاً طيباً بين نساء الإسلام.

* * *

مَنْ يُدَانيها؟:

* لأسماء ـ رضي الله عنها ـ فضائل لم تجتمعْ لواحدة من النِّساء، فقد

اقتعدت مكاناً علياً في عَالَمِ الصَّحابيات؛ حتى غدتْ ممَنْ ينضحُ بالعلم والبركة والصَّبرِ والجهاد، ولننظر نظرة إكبار إلى البيئة الصَّالحة التي تهيأت لأسماء؛ فجعلت منها كوكباً يشعُّ بالنُّور والخير.

* فصهرها أفضل الخلق نبينا محمّد ﷺ.

* وأختها لأبيها أمُّنا عائشة زوج رسول الله ﷺ.

* وأبوها الصَّحابي الكريم، وشيخُ الصَّحابة، وأولهم إسلاماً، وأول المبشرين بالجنة من العشرة أبو بكر الصَّديق ـ رضي الله عنه ـ.

* وجدّها لأبيها ـ أبو قحافة ـ صحابي كُتبتْ له السَّعادةُ بإيمانهِ وتصديقه.

* وجدّتها لأبيها ـ أم الخير ـ سلمى بنت صخر[1] صحابية كريمة، نالتِ الرِّضوان ببركة الصُّحبة.

* وعمّاتها الثّلاث ـ صحابيات وهي: أمُّ فروة وقُريبة وأمُّ عامر[2] بنات أبي قحافة.

* أمَّا زوجها فهو صحابي كريم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد حسنات أبي بكر، حواري رسول الله، وابن عمته ﷺ، وأول مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله ـ الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ.

* وابنُها صحابي جليل، عبد الله بن الزبير، أحد الأعلام في العلم والعبادة والشَّرف والجهاد.

* وأخوها الشَّقيق عبد الله صحابي، كريم، لبيب، نجيب.

* وأخوها لأبيها عبد الرحمن ـ شقيق عائشة ـ أحد الصَّحابةِ الأعلام، كان مِنَ الرُّماة المذكورين والشجعان.

---

(١) انظر ترجمتها في الاستيعاب (٤/ ٤٢٩)، والإصابة (٤/ ٤٢٩) وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٢٨).

(٢) انظر تراجمهن في الطبقات (٨/ ٢٤٩)، وفي الإصابة وأسد الغابة.

* وحَسْبُ أسماء شرفاً وفخراً ورفعة هذه النَّفحات التي أحاطت بها إحاطة السِّوار بالمعصم، فمَنْ يدانيها؟

ولهذا قيل: لم يوجد في أحد من الصحابة أربعة كلّهم زأوا النَّبي ﷺ بعضهم ولد بعض إلا في بيتِ أبي بكر، فهي وأبوها وجدها وابنها ابن الزبير أربعتهم صحابيون[1] ـ رضي الله عنهم ـ.

* ومما يُضاف إلى مكارم أسماء أَن أختها أمّ المؤمنين عائشة قد كُنيت بكنيتها أمّ عبد الله.

أَسْمـاء وحفْـظُ الـسِّر:

* كانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ تحرصُ كلَّ الحرص على تحقيق السَّعادة لرسولِ الله ﷺ، ولوالدها الصِّديق رفيق النَّبي الكريم في هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة، ناهيك بكتمانها لسِرِّ الهجرة، فلم يكن إلا بضعة أشخاص يعلمون بهجرة النَّبي ﷺ من بينهم أسماء، ذكر هذا ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ فقال:

ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر[2].

* ما أكرمَ البيتَ البكريّ! هذا البيت الكريم ذو التَّضحيات العظيمة برجاله ونسائه ومواليه، حاز الشَّرف في رحلة الهجرة، فالصِّديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وعبد الله بن أبي بكر الفتى اللقن الفطن اللبيب يتسمَّعُ أخبار المشركين في النَّهار؛ ثم يؤديها إذا أمسى لهما، ومولى الصّديق عامر بن فهيرة يرعى غنمه نهاره كلَّه ثم يريحها قرب الغار، أمَّا أسماء فكانت تأتي بالطعام إذا أمست بما يصلحهما.

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨)، والرياض النضرة (١/ ١٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥).

ذَاتُ النِّطاقَيْن[1]:

* ذاتُ النطاقين لقبٌ حظيت به أسماء ـ رضي الله عنها ـ يوم الهجرة، وكان لقباً أثيراً لديها تركَ في حياتها آثاراً طيّبة ومعاني كريمة، وما زال هذا اللقب يُذكر بالخير على مدى الأيام، فما أَنْ تُذكر أسماء إلا وتذكر فضائلها وخصوصاً يوم الهجرة.

* وقد أوردتْ كُتُب الحديث وكتب التَّراجم والسِّير؛ أَنَّ أسماء وعائشة ابنتا الصِّديق اشتركتا في تجهيز الطَّعام الذي سيأخذه المهاجران: رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، ثم وضعتاه في جراب ـ وعاء من جلد ـ ولما أرادتا رَبْط فم الجراب لم تجدا شيئاً، فشقت بطلة التَّضحية أسماء نطاقها نصفين، فربطت فم الجراب بنصفه، وانتطقتْ بالآخر، فلذلك سُميت ذات النطاقين أو ذات النطاق.

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري عن أمِّنا عائشة قالت: «فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب؛ فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها فأوكتْ ـ ربطتْ ـ به الجراب، ولذلك كانت تسمى ذات النطاق»[2].

* إنَّ عمل أسماء هذا يعجز عنه الرجل الشُّجاع لما فيه من مخاطرَ وظلمة ووحشة، ولما يحتاجه مِنْ جرأةٍ وثبات قلب وقوة أعصاب وتحكم بالمشاعر، ولم تتوقف شجاعة أسماء عند هذا المقدار فحسب، بل لك عزيزي القارىء أَنْ تتصور مدى صبرها وتحملها للمشقة إذ كانت حاملاً بابنها عبد الله، ولك

---

(١) النطاق: هو ما تشد به المرأة وسطها، وكان الانتطاق من عادة النساء العربيات.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٨٧ و١٨٨)، وانظر كذلك سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٧٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٨٣)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٧)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٨). «أحثّ الجهاز»: من الحث وهو الإسراع. والجهاز: ما يُحتاج إليه في السفر.

أَنْ تتصور أسماء في هجعة الليل وهي تحملُ طعاماً، وتسلك الطُرق الوعرة الطويلة، وتصعدُ جبلاً لتصلَ إلى الغار ـ غار ثور ـ كانت تجتاز كل هذه المخاطر وعيون المشركين تتابعها، ولكنّه لطفُ الله سبحانه الذي أحاط بها، وعينه التي حفظتها.

* * *

مَوْقفٌ نَبيلٌ:

* وقفةٌ لطيفةٌ نُدقِقُ فيها النَّظر في موقف أسماء من جدها أبي قحافة، موقف يمثل صدق إيمانها وحسن تصرفها في الأمور الطَّارئة، ويشير إلى كياستها وذكائها.

* روى ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بسنده عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرجَ معه أبو بكر احتمل ماله كلَّه ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلقَ بها معه، فدخل علينا جَدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إنّي لا أراه إلا قد فجعكم بمالِهِ مع نفسه.

قلتُ: كلاّ يا أبت، ضَعْ يدَكَ على هذا المال، فوضع يده عليه.

فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.

ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردتُ أَنْ أُسكنَ الشَّيخ بذلك[1].

مِنْ بُطولاتِ أسماء:

حدثت أسماء ـ رضي الله عنها ـ عن واحد من مواقفها البطولية أمام جبابرة قريش فقالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، أتانا نفر من

---

(١) انظر السيرة النبوية (١/٤٤٨)، والسيرة الحلبية (٢/٢١٣ و٢١٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠) بلفظ قريب.

قريش فيهم أبو جهل بن هشام، وقفوا على الباب فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك؟.

قلتُ: والله لا أدري أين أبي.

فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمةً طرح منها قرطي[1].

* أرأيتَ كيف وصل السَّفَهُ بأبي جهل ـ أخزاه الله ـ أَنْ يتخلى عن أخلاقِ العرب وشيمهم العظيمة في التَّرفع عن إيذاء المرأة؟ وأن ينزلَ بنفسه الحقيرة إلى الدَّرك الأسفل من الإسفاف والسوء؟ فقد عجز عن مواجهة الرجال فضرب امرأة حاملاً!.

* * *

أَسْماءَ وأَولُ مَوْلُود:

* لما تمّتْ هجرة النَّبي الكريم ﷺ وصاحبه أبي بكر، أرسلا مَنْ يأتيهما بأهلهما، وهاجرت أسماء ـ رضي الله عنها ـ وهي حاملٌ مُتمٌّ بابنها عبد الله بن الزُّبير.

وشاءت إرادةُ الله سبحانه أَنْ يُسجلَ هذا المولود في سجل الأوائل، ذكر هذا أبو جعفر الطبري في تاريخه فقال:

وكان أول مولودٍ وُلدَ من المهاجرين في دار الهجرة، فكبَّر أصحابُ رسولِ الله ﷺ حين وُلد، وذلك أنَّ المسلمين كانوا قد تحدثوا أنَّ اليهودَ يذكرون أنَّهم قد سحروهم فلا يُولد لهم، فكان تكبيرهم ذلك سروراً منهم بتكذيبِ الله اليهود فيما قالوا من ذلك[2].

---

(١) عن الحلية (٢/٥٦)، وأنساب الأشراف (١/٢٦١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٢٧)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٣٠) بتصرف.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ١٠) طبعة دار الكتب العلمية، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣ و٣٦٥)، والعقد الفريد (٤/ ٤١٩).

* ولما وُلد عبد الله بن الزبير ـ في قباء ـ أَمَرَ النَّبي الكريم ﷺ جَدَّه أبا بكر فأذَّن في أذنيه بالصَّلاة، ثم أخذ رسول الله ﷺ ابنَ أسماء ـ رضي الله عنهما ـ فحنّكه بتمرةٍ لاكها، فكان ريقُ رسول الله ﷺ أول شيء نزل في جوفه، وسمّاه عبد الله، وكنّاه أبا بكر بكنيةِ جده أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ[1].

* وكان ميلادُ عبد الله بن الزُّبير فاتحةَ خيرٍ على المسلمين، واستبشروا به وتفاءلوا بمولده، ونشأ على حبِّ التَّقوى؛ فكان كما وصفته أمّه: قوّام الليل، صوّام النّهار، وكان يُسمى حمامة المسجد، وذكر البلاذري أبناء أسماء ـ رضي الله عنها ـ فقال: ولدت أسماء للزُّبير عبد الله وعروة والمنذر وعاصم وأمّ حسن وعائشة[2].

* ومن الجدير بالذكر أنَّ أول مولود وُلدَ للأنصار بعد الهجرة ـ من أبوين صحابيين ـ الأميرُ العالمُ صاحبُ رسول الله ﷺ وابنُ صاحبه النّعمان بن بشير[3] الخزرجي، ابن أخت الصَّحابي الجليل عبد الله بن رواحة ـ رضوان الله عليه ـ.

* * *

الصَّابِرَةُ الشَّاكِرَةُ:

* ضربتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ أجملَ الأمثلة العملية في الصَّبر والشُّكر، وهاتان الصِّفتان من صفات أهل الجنَّة، فقد صبرت أسماء على الفَقْرِ، وشكرت الله سبحانه على النعمة، وتحدثتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ عن ذلك فقالت:

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٦).
(٢) أنساب الأشراف (١/ ٤٢٢).
(٣) انظر ترجمة النعمان بن بشير في الاستيعاب (٣/ ٥٢٢)، والإصابة (٣/ ٥٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤١١)، والاستبصار ص (١٢٢ و١٢٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٥٢٣٥).

تزوَّجني الزُّبير وماله شيءٌ غير فرسه، فكنتُ أسوسه وأعلفه، وأدقُّ لناضحهِ ـ بعيره ـ النَّوى وأستقي وأعجن، وكنتُ أنقلُ النَّوى منْ أرض الزُّبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ، فجئتُ يوماً والنَّوى على رأسي فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نَفَرٌ، فدعاني فقال: «إخ إخ» ليحملني خلفه، فاستحييتُ وذكرت الزبير وغيرته. قالت: فمضى.

فلما أتيتُ أخبرتُ الزُّبيرَ فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد بخادم، فكفتني سياسة الفرس؛ فكأنَّما أعتقني[١].

* وقفةٌ بسيطةٌ مع أسماء ننظر فيما تحدثت به عن صبرها، فلم يكن فقر زوجها الزُّبير يمنعها من مساعدته والعمل على ما يرضيه، وتوفير أسباب السَّعادة له، فقد كانت تعمل بنفس راضية وقلبها مطمئن بالإيمان، قانعة بما قسم الله لهما، وزادُها في هذا كلِّه الصَّبر، فكان من نتيجة ذلك أَنْ تبدَّلَ الحال، وأضحى الزُّبير في سَعَة.

وأكرم الله الزُّبيرَ وأسماء، وأصبحا ينعمان في الغنى، وفي هذه الحال ازدادتْ أسماءُ شكراً لله سبحانه وتعالى، فلم تُغْرِها الأموالُ الكثيرة، ولم تَشْغَلْها عن واجباتها تجاه ربِّها وبيتها، بل كانت تنفقُ في حدود ما أمرها به رسول الله ﷺ مِنْ مالِ زوجها الزبير، وكانت مع هذا كلِّه تلهجُ بالشُّكر لما أنعم الله عليها ولما أعطاها من خير.

ولله درُّ أبي نُعيم إذ وصفها في مطلع ترجمته لها بقوله: الصَّادقة الذَّاكرة، الصَّابرة الشَّاكرة، أسماء بنت الصِّديق، الشَّاقةُ نطاقها؛ لمعصمِ قِرْبةِ النَّبي ﷺ وعلاقها[٢].

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠ و٢٩١)، وانظر الطبقات (٨/ ٢٥٠) بلفظ قريب، وانظر: زاد المعاد (٥/ ١٨٧).

(٢) الحلية (٢/ ٥٥).

السَّخيةُ الكَريمَةُ:

* عُرفتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ من بين النِّساء بأنَّها سخية اليد، كريمة الطَّبع، فُطرت مع السخاء وفُطر السخاءُ معها، ولها مع الجود والكرم مواقف رائعة، وهي التي كانت تقولُ لبناتها ولأهلها: أنفقوا وأنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفَضْل، فإنكن إنْ انتظرتن الفضل لم تُفضلن شيئاً، وإن تصدقتن لم تجدن فقده[1].

* كانتِ الصَّحابية أسماء ـ رضي الله عنها ـ سخية النَّفس، سَخَتْ بنطاقها يوم كانت لا تملك غيره، وهذا غاية الجود، سختْ بمواقفها الوضيئة، بحياتها وكل ما تملك في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى، ولكنَّها لم تسخُ بذرةٍ مِنْ إيمانها أو ذرة من كرامتها، وقد شهد بجودها وكرمها القاصي والداني.

وصفها محمد بن المنكدر فقال: وكانت امرأة سخية النفس. وحدَّثَ محمّد بن المنكدر أيضاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأسماء بنت أبي بكر: «لا تُوكي فيوكي الله عليك»[2].

* وبلغ من جود أسماء ـ رضي الله عنها ـ أَنْ ضُربِ المثل بذلك، فقد روي أنَّها كانت تمرضُ المرضةَ فتعتق كلَّ مملوك لها[3].

* وقد وَصَفَ ابنها عبد الله جودها وكرمها فقال: ما رأيتُ امرأةً قط أَجْود من عائشةَ و أسماءَ، وجودهما مختلف، أمَّاعائشة فكانت تجمع الشَّيء إلى

---

(١) الطبقات (٨/ ٢٥٢)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩).

(٢) الطبقات (٨/ ٢٥٢). ومعنى الحديث: لا تدَّخري ما عندك وتمنعي ما في يديكِ فتنقطع مادّةُ الرزق عنكِ.

(٣) المصدر السابق، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩).

الشَّيء حتى إذا اجتمع عندها وضعته في مواضعه، وأمَّا أسماء فكانت لا تدخرُ شيئاً لغَد[1].

* * *

أَسْماءُ والقُرآنُ الكَريمُ:

* فصاحةُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ ساعدتها على فَهْم آيات القرآنِ الكريم فهماً صحيحاً، وتدبرِ معانيه وأحكامه بشكلٍ سليم، فقد سألها حفيدُها عبد الله بن عُروة فقال لها: كيفَ كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرِىء عليهم القرآن؟.

قالت: كانوا كما نعتهم الله: تدمعُ أعينُهم، وتقشعرُّ جلودهم.

قال: فإنَّ ناساً إذا قُرِىء عليهم القرآنُ خرّ أحدهم مغشياً عليه.

قالت: أعوذُ بالله مِنَ الشَّيطان.

هذا هو فَهْم أسماء لمعاني القرآن، فلا عجبَ في بلاغتها، فقد نشأتْ في بيت الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ.

* وكانت أسماء ـ رضوان الله عليها ـ نموذجاً طيباً بين النِّساء اللاتي جمعن بين مخافةِ الله وفَهْم كتابه، وقد شهد لها زوجها الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ بهذا، وناهيك بشهادة الزُّبير ـ فقال: دخلتُ على أسماء وهي تصلي فسمعتُها وهي تقرأُ هذه الآية: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧] فاستعاذتْ، فقمتُ وهي تستعيذُ، فلما طال عليّ أتيتُ السُّوق ثم رجعتُ وهي في بكائها تستعيذ[2].

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٢)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٨ و٥٩)، والحديث أخرجه البخاري.

(٢) انظر: الحلية (٢/ ٥٥)، والدر المنثور (٧/ ٦٣٥).

صِـلي أُمَّـكِ:

* كانت أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ تتوخى الحق في كلِّ موقفٍ من مواقفها الحيوية، وتسألُ عما يرضي الله سبحانه، ولا تتأثر بالعواطف والأواصر ما دام ذلك يخالفُ مرضاةَ الله، فها هي تقفُ أمام أمِّها موقفَ الاستفسار والحيرة، ولكنَّ الحقَّ أقوى وأجدر أَنْ يُتبعَ، فقد أوردت كُتُب الحديث والتَّراجم والسِّير عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت:

أتتني أمي[1] راغبة وهي مشركةٌ في عهد قريش إذ عاهدوا رسولَ الله ﷺ فسألتُ النَّبي ﷺ: أَأَصِلها؟ فأنزلَ الله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ فقال: «نَعم صِلي أُمَّك»[2].

* وكانت أمُّها قد أتت بهدايا زبيب وسمن وقرظ، فأبتْ أسماء أَنْ تقبلَ هديتها أو تُدْخلها إلى بيتها إلى أَنْ وجدتِ الجوابَ الشَّافي لدى رسول الله ﷺ؛ وهكذا علمها النَّبي الكريم أَنَّ صِلة الرَّحِم واجبةٌ، وأنَّ الإسلام دينُ رحمةٍ وخيرٍ، وأنَّ صلة الرحم تُدخل صاحبَها الجنَّة.

* * *

أَسْمـاءُ وحـديـثُ رَسُولِ الله ﷺ:

* لأسماءَ ـ رضي الله عنها ـ صلةٌ وثيقة بالحديث النّبوي الشَّريف، فقد كانت من الحافظات الواعيات له، روتْ عدداً من الأحاديث بلغتْ ثمانية وخمسين حديثاً، اتفق لها البخاري ومسلم على ثلاثة عشر حديثاً، وانفرد

---

(١) أم أسماء هي قتيلة بنت عبد العزى، وكانت ما تزال مشركة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد، وانظر تفسير الماوردي (٤/ ٢٢٣)، وأسباب النزول للواحدي ص (٣٤٩)، والدر المنثور (٨/ ١٣١)، وانظر الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص (٢٧٧).

البخاري بخمسة أحاديث، ومسلم بأربعة[1].

* وأسماء ـ عليها رضوان الله ـ من الصَّحابيات اللاتي أكثرن مِنَ الرواية عن الرَّسول الكريم ﷺ كأختها أمِّ المؤمنين عائشة، وأمِّ المؤمنين أم سلمة، وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية[2]، وغيرهن، وهذا يشير إلى فضلها ومكانتها في عالم الحديث.

* حدَّث عن أسماء عددٌ جمٌّ مِنَ الصَّحابة والتَّابعين من مثل: ابنها عبد الله، وعروة، وعبد الله بن عباس، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير، ومولاها عبد الله بن كيسان وغيرهم[3].

* ومن مروياتها عن رسول الله ﷺ قوله: «إنّي على الحوضِ أنظرُ مَنْ يَرِدُ عليَّ منكم»[4].

* * *

مِنْ مَلامِحِ شَخْصيتِها:

* في شخصيةِ أسماء ـ رضي الله عنها ـ جوانب رائعة تدلُّ على تفرّدها في مجالاتٍ خيّرة، فقد بارك الله سبحانه في عمرها، فَعُمّرت دهراً قارب مئة سنة ولم يسقطْ لها سِنٌّ، وظلتْ محتفظة بعقلها ورأيها الصَّائب وكلماتها الرائعة، ولم تتوقفْ عن العطاء وأعمال البر والخير، وشهدت معركة اليرموك مع زوجها الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، وكان لها موقف شهير في هذه المعركة.

* وفي ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين حظيت أسماء ـ رضي الله عنها ـ بالمكانةِ اللائقة التي تستحقها، فجميعهم كان يعرف فضلها، ويقرُّ بسابقتها، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد فرض للمهاجرات الأُوَلِ ألفاً ألفاً

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦).
(٢) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد بن السكن في هذا الكتاب.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٨٩).

منهن أسماءُ بنت أبي بكر، وأسماءُ بنت عميس، وأمُّ عبد الله بن مسعود[1].

* ومنَ الجوانب العظيمة في شخصية أسماء حُسْن تعبيرها للرؤيا، فقد ذُكر أنَّ سعيدَ بن المسيب ـ رحمه الله ـ كان من أَعْبَر النَّاس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها[2].

* وكانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ زكية النفس، نقية السَّريرة، موصولة القلب بالله سبحانه، تراقبُ نفسها مراقبةً شديدةً في السِّر والعلانية، ومع هذا كله كانت ترى التَّقصير في نفسها، قال ابنُ أبي مليكة: كانت أسماء تصدع فتضعُ يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفره الله أكثر[3].

* ومن السِّمات اللامعة في حياة أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنَّها كانت فصيحة، حاضرة القلب واللب، تقولُ الشعر؛ ولها في رثاء زوجها قصيدة جميلة تشير إلى بلاغتها.

* * *

في رحَاب البَركَـةِ:

* ممَّا يعطر سيرة أسماء ـ رضي الله عنها ـ حرصها على التَّبرك بآثار رسول الله ﷺ، فقد كانت تسعى للحصول على كلِّ ما يمتُّ إلى التَّبرك بالرَّسول ﷺ لتزود نفسها بزادِ الإيمان والنُّور، وكانت تجدُ في ذلك برداً وسلاماً، وهذا ما جعلها تحتفظ بثوبٍ للنَّبي الكريم ﷺ، ففي الصَّحيح عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أخرجت جبَّةً طيالسة فقال: هذه جبةُ رسول الله ﷺ، وكان يلبسُها فنحنُ نغسلها للمرضى يُستشفى بها[4].

---

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري ص (٥٨٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ١٢٤)، وسير أعلام البنلاء (٢/ ٢٩٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠).

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠).

(٤) هذا الحديث رواه الإمام مسلم في ـ اللباس والزينة ـ ورواه كذلك النسائي وابن =

* ولم يتوقف تبركُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ عند هذا الحدِّ، بل كانت تتبرك بماء زمزم أيضاً، فقد ذَكَر الفاكهيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أهلَ مكةَ يغسلون موتاهم بماء زمزم إذا فرغوا من غسل الميت وتنظيفه تبركاً به، وذكر أَنَّ أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم[1].

وفي هذا دليل على تقصي أسماء ـ رضي الله عنها ـ لمنابعِ البركة في جميع صُورها.

* * *

أَسْماءُ والحجَّاجُ بن يُوسف:

* في تاريخِ النِّساء مواقف حافلة بالبطولات والتَّضحيات، ولكنَّ بطلتنا أسماء تفوق النِّساء جميعاً في موقف يشير إلى ذكائها وجودها وحسن تصرفها، ذلك الموقف مع ابنها عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ الذي امتدَّ سلطانه على الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وجدَّدَ عمارة الكعبة.

غير أنَّ سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأحاطت به جنود الحجاج بن يوسف الثَّقفي وهو في مكةَ المكرمة، وأحجار المنجنيق تنهمرُ عليه مِنَ كلِّ مكان، وكانتِ الفرصة سانحةً أمامه لطَلَب الأمان أو الفرار، ولكنْ أنَّى له ذلك وقد عرفته البلاد بطولها وعرضها بالشَّجاعة والثَّبات والإقدام؛ وأمُّه أسماء فدائية الإسلام الأولى، وها هي أمّه قد قاربت المئة وعقلها ما يزال يشعُّ بالحكمةِ وفَصْل الخطاب، وتوجه إليها يبثّها حزنه، ويستشيرها فيما يفعل، وقال لها:

يا أمّ قد خذلني النَّاس حتى أهلي وولدي، ولم يبق لي أملٌ؛ والقوم

= ماجه وأحمد، وانظر الشفا (١/ ٤٦٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٥٠٣)، وزاد المعاد (١/ ١٤٠)، والطبقات (١/ ٤٥٤).

(١) انظر: كتاب شفاء الغرام (١/ ٤١٥).

يعطونني ما أردتُ مِنَ الدُّنيا فما رأيك؟.

فأجابته الأم العظيمة: يا بني عشْ كريماً، ومُتْ كريماً؛ لا يأخذك القوم أسيراً.

وودّعَ عبد الله أمَّه بنفس راضيةٍ، وقال يخاطبها:

أسمـــــاءُ إنْ قُتلـــــت لا تبكينـــــي
لـــــم يبـــقَ إلا حَسَبـــي ودينـــي
وصـــــارمٌ لانَـــــتْ بـــــه يمينـــي

وسقط عبد اللهِ بن الزبير شهيداً، وصلبه الحجاجُ في المسجد الحرام، وقيل لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ أسماءَ في ناحية المسجد، فمال إليها وعزَّاها بابنها وقال:

إن هذه الجثثَ ليست بشيءٍ وإنَّما الأرواحُ عند الله، فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني وقد أُهدي رأسُ يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل[1].

* ومن روائع الأخبار ما أورده ابن عبد ربه حيث قال: إنَّ عبد الله ابن الزُّبير كان أول مولود وُلد في الإسلام، فلما وُلد كبَّر النَّبيُّ ﷺ وأصحابه، ولما قُتِلَ كبَّر الحجاج بن يوسف وأهل الشَّام معه، فقال ابنُ عمر: ما هذا؟ قالوا: كبَّر أهل الشَّام لقَتْلِ عبد الله بن الزبير، قال: الذين كبَّروا لمولده خيرٌ مِنَ الذين كبروا لقتله[2].

* وصبرتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ، وضربت أروعَ الأمثلة في الثَّبات والوقوف بجرأةٍ وصلابةٍ أمام الحجاج، فقد ذكر أنَّ الحجاج دخل على أسماء فقال: إنَّ ابنَك أَلْحَدَ في هذا البيت، وإنَّ الله أذاقه مِنْ عذابٍ أليم.

قالت: كذبتَ؟ كان برّاً بوالدته، صوّاماً، قوّاماً، ولكنْ قد أخبرنا

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٥).
(٢) العقد الفريد (٤/ ٤١٩).

رسولُ الله ﷺ «أنَّه سيخرجُ من ثقيف كذّابان الآخر منهما شرٌّ مِنَ الأوَّلِ وهو مُبير»(١)، فانصرف الحجاج دون أنْ يراجعها.

* * *

الأيـامُ الأخيـرَةُ:

* عاشتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ دهراً طويلاً، فكانت إحدى الوثائقِ الصَّحيحة التي وَعَتْ أحداثَ قَرْنٍ كاملٍ، وكانت خاتمةَ المهاجرين والمهاجرات وفاةً ـ رضي الله عنها ـ، وقبل وفاتها دفنتْ ابنها عبد الله بيدها، فعن ابن أبي مليكة قال: دخلتُ على أسماء بعدما أُصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أنَّ هذا صَلَبَ عبد الله، اللهم لا تمتْني حتى أوتىٰ به، فأحنطه وأكفنه فأتيتْ به بعد، فجعلتْ تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها، وصلَّتْ عليه وما أتت عليها جمعة إلا ماتت.

* وكانت وصيةُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ لأهلها: أجمروا ثيابي إذا متُّ، ثم حنطوني، ولا تذروا على كفني حنوطاً، ولا تتبعوني بنار، ولا تدفنوني ليلاً(٢).

* وكانتْ وفاة أسماء في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

بشَـارَتُهـا بالجنَّـةِ:

* قالَ تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦).

(٢) انظر: حياة الصحابة (٢/ ٦٩٤).

* الصَّحابية الكريمة أسماءُ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ نموذج رائع للنِّساء في عصرها وفي كل عصر، فقد كانت ابنة بارّة لوالديها، وأمّاً عظيمة خلّفتِ الأبطال والأعلامَ، وأختاً مثالية، وزوجاً كريمة، فقد ذُكر أنَّ زوجها الزُّبير كان شديداً عليها فقال لها أبو بكر:

يا بنية اصبري فإنَّ المرأةَ إذا كان لها زوجٌ صالحٌ، ثم مات عنها فلم تتزوّجْ بعده؛ جَمَعَ الله بينهما في الجنَّة.

أضفْ إلى ذلك كله أنَّها أوقفتْ حياتها لخدمة الرسول الكريم ﷺ، وجاهدت في سبيلِ الله حقَّ جهاده، فنالت بهذه الشَّمائل الكريمة البشارة بالجنَّة منذ فَجر حياتها، وإليك نصّ البشارة كما ورد في عددٍ من المصادر الموثوقة، ففي قصة الهجرة جادت أسماء بنطاقها ونفسها من أجل تأمين السَّعادة والطَّعام لرسول الله ﷺ، فقال لها النَّبي الكريم ﷺ: «إنَّ لكِ بهما نطاقين في الجنَّة»[1].

* وفي هذا الحديث الشَّريف بشارةٌ عظمى لأسماء في الجنَّة، وقد عاشت ـ رضي الله عنها ـ تريدُ الآخرة، وتسعى لها، وتعمل العمل الصَّالح لتزيد من رصيدها الإيماني.

* رضي الله عن أسماء وأرضاها ونضَّر قبرها، ومع وداعِ سيرتها المباركة المعطار نقرأُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر في هذا: الاستيعاب (٤/ ٢٢٩) والإصابة (٤/ ٢٢٤)، وأنساب الأشراف (١/ ٢٦٠)، والعقد الفريد (٤/ ٤١٧ و٢/ ٢١٣) وما بعدها، وانظر أيضاً السيرة الحلبية (٢/ ٢١٣)، ودرر السحابة للشوكاني ص (٥٤٧)، وغيرها من المصادر.



(١٦)
أمُّ سُلَيم بنْتُ مِلْحَانَ
رضي الله عنها

* قال ﷺ:

* «دَخَلتُ الجنَّةَ فَسمعْتُ خَشفةً بينَ يَديَّ، فَإِذا أَنا بالغُمَيصَاءَ بنتِ مِلحان». حديث شريف

* قال رسول الله ﷺ عن أم سليم:

«إنِّي أَرحَمُهَا؛ قُتِلَ أَخوهَا مَعي». حديث شريف







مـع نسَـاءِ الأنَـصـارِ:

* قال رسول الله ﷺ في الأَنصار: «اللهمّ ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناء الأنصار»(١).

* وضيفةُ حلقتنا اليوم، واحدةٌ مِنْ نساء الأنصَار، ومنَ الصَّحابيات الفاضلات اللاتي جمعْنَ العلمَ والفقه والشَّجاعة والكرم، والصَّفاء والإخلاصَ لله وللرَّسول ﷺ.

* وهذا الصَّحابية الخيِّرةُ هي أمُّ الصَّحابي الخيِّر الأثير لدىٰ رسول الله سيدنا أنس بن مالك، استهلَّ أبو نُعَيم الأصبهاني ترجمتَها بقوله: أمُّ سُلَيم المستسلمة لحكم المحبوب، الطَّاعنةُ بالخناجرِ في الوقائعِ والحروب.

* ولنتعرّف الآن نسبَ الصَّحابية الكريمةَ أم سُلَيم التي تُمتِّعُ سيرتُها العطرةُ الأسماع، وتهذِّبُ النُّفوسَ وتصقل الطِّباع، فهي أمُّ سُلَيم بنتُ مِلْحان بنِ خالد بن زيد بن حرام النّجارية الأنصارية الخزرجية(٢).

* وأمُّ سُليم يُقالُ لها الغُميصاء أو الرُّميصاء، واسمها سهلة؛ وقيل رملة، بيد أنَّها اشتهرت بأمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ.

* هذه المرأةُ العاقلة، دخل الإيمان قلبَها الصَّافي مِنْ أول يومٍ سمعتْ به، وسجَّلت أعمالاً طيّبة وضّاءة تشهد لها بالفضل والسَّبْقِ والإحسان على مرِّ الأيام، فتعالوا نعطِّر الأسماعَ بسيرة هذه الصَّحابية المجاهدة الصَّابرة، الخاشعة الكَريمة، الدَّيِّنة الخيِّرة، المحدِّثة كبيرة القَدْرِ والشَّأْنِ.

* * *

المَوقـفُ المُبَـارَكُ:

* سجَّلتْ أمُّ سُليمٍ منذ اللحظات الأولى لإسلامها موقفاً رائعاً يفوحُ

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم.

(٢) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤).

بالبركة، ويشيرُ إلى رجاحة عقلها، وإلى إيمانها وإخلاصها وصدقها، فقد أسلمتْ وبايعتْ، وكان إذ ذاكَ زوجُها مالك بن النَّضر أبو أنس بن مالك غائباً، ودخل الإيمان قلبَها واستقرَّ فيه، وأحبتِ الإسلامَ حباً شديداً خالط روحَها ونفسها، وبرهنتْ على صدقها عندما وقفت موقفاً صلباً صادقاً أمام زوجها الذي ظلَّ على شركه، ولهذا الموقف المبارك الرّائع قصة شائقة تشحذ الهمم، وتغذي الأرواحَ، فلنستمعْ إلى القصة مِنْ أولها.

* لما آمنتْ أمُّ سليم برسولِ الله ﷺ، جاء زوجُها أبو أنس وكان غائباً، وعندما علم بإسلامها غضب غضباً شديداً، وقال لها: أصبوتِ؟ قالت: ما صبوتُ ولكنّي آمنتُ بهذا الرَّجل.

ولم تتوقفْ عندَ هذا الكلام، بل جعلت تلقِّنَ ابنها أنساً وتشيرُ إليه قُلْ أشهد لا إله إلا الله قُلْ أشهدُ أَنَّ محمّداً رسول الله، واستجاب أنس ونطق بالشَّهادة، وفاز بالسَّعادة، فأخذ الغضبُ مِنْ مالك كلَّ مأخذ، وجعل يقول لها: لا تفسدي عليَّ ابني، غير أنَّ أمَّ سُلَيم راحت تقول بحكمةٍ وهدوء: إنَّي لا أفسدُهُ بل أرشدُه.

وانطلق مالكُ بن النَّضر غاضباً يريد الشّام، فلقيَهُ عدوٌّ له فقتله، ولما بلغها نبأُ مقتله قالتْ: لا جَرَمَ، لا أفطم أنساً حتى يدعَ الثَّديَ، ولا أتزوّجُ حتى يأمرني أنس، ويقول: قد قضَيْتِ الذي عليك[1].

* وانصرفت إلى تربية ابنها، تعلِّمه حُبَّ النَّبي الكريم ﷺ، وحبَّ الإسلام، ولما قدمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ مهاجراً، جاءته أمُّ سُليم مصطحبةً أنساً وقالت: يا رسول الله هذا أُنَيس أتيتُكَ به يخدمك، فادعُ الله له، قال: «اللهمّ أكْثِرْ مالَه وولده»[2].

* وكان أنس آنذاك غلاماً كاتباً ذكياً لمْ يبلغِ الحلمَ بعد، وقد نال الرِّعاية

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤)، والاستبصار ص(٣٧) بتصرف.
(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٤ و١٩٥).

والرأفةَ والبركة في بيت النَّبي الكريم ﷺ، وغدا واحداً مِنْ سادات الصَّحابةِ ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ.

* * *

نِعْمَ المَهْرُ:

* وفَّتْ أمُّ سُليم بالعهد الذي قطعته على نفسها في تربية ابنها، ونشأ وهو يقول: جزىٰ الله أمّي عني خيراً، لقد أحسنتْ ولايتي.

* وها هو أبو طلحة الأنصاري[1] يغدو يوماً على أمِّ سُلَيم ويخطبها، وهنا وقفتْ هذه المرأة العاقلة وقفةَ تأملٍ، وفكَّرت بهدوء، فأبو طلحة لا يزال مشركاً، ولكنْ لعلَّه يسمعُ منها مقالتها ويصبح سعيداً بما تعرضه عليه، وعاد أبو طلحة ثانيةً فخطبها وكلَّمها في شأْنِ الزَّواج، فقالت: يا أبا طلحة ما مثلكَ يُردُّ، ولكنَّكَ امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ لا يصلح لي أَنْ أتزوَّجَك.

قال: فمَن لي بذلك؟

قالت: لكَ بذلك رسول الله ﷺ.

فانطلقَ أبو طلحة يريدُ النَّبي ﷺ ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه، فلما رآه قال: «جاءكم أبو طلحة وغرَّةُ الإسلام بين عينيه»، فجاء فأخبر النَّبي ﷺ بما قالت أمُّ سُليم فتزوَّجها على ذلك[2]. عندها قالت لابنها: يا أنس قُمْ فزوِّجْ أبا طلحة، فزوّجها.

* وفي هذه القصة المباركة يقول ثابتُ بن أسلمَ البناني التَّابعي: فما سمعنا بمَهْرٍ قطّ كان أكرم مِنْ مهرِ أمِّ سليم: الإسلام[3].

* لقد تحققتْ فراسة أمِّ سُليم بأبي طلحة، وسَعِدتْ به زوجاً مؤمناً خيّراً

---

(١) انظر ترجمة سيدنا أبي طلحة الأنصاري في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧).
(٢) انظر حلية الأولياء (٢/ ٥٩ و٦٠) والاستبصار ص (٣٧).
(٣) صفة الصفوة (٢/ ٦٦)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩).

كريماً مخلصاً، وسعدَ بها زوجةً عاقلةً تقيةً كريمةً حافظةً للعهد، أمّا أنس ابنها فقد سَعدَ بهذا الزَّواج المثمر المِعْطاء، وكانت سعادته أعظم حينما التحقَ ليخدمَ رسول الله ﷺ.

* * *

كَرَمُهَا وشَمائِلُها:

* شمائلُ الصَّحابية السَّخية أمّ سُليم كثيرة، ولا يمكن أَنْ تُحصَرَ في صفحات محدودة، ولكنْ نحاول الاستئناس ببعض هذه الصِّفات المباركة، ومن أبرز شمائل أمِّ سُليم الكرم الذي عبَّرتْ عنه عملياً، حدَّث عن هذا سيِّدُنا أنس فقال: كانت أمُّ سُليم أعطتْ رسولَ الله ﷺ عِذَاقاً ـ نخلاً ـ لها، ولما ردَّ المهاجرونَ إلى الأنصار منائِحَهم ردَّ رسولُ الله ﷺ إلى أُمّي عِذاقها[1].

* وكانت أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ تتفقّدُ النَّبي الكريم، وتتحفه بالهدية وبالطعام بين الحين والحين، وكان الله سبحانه يكرمُها ويبارك لها في طعامها بركةً ملموسةً، لنستمعْ إلى سيدنا أنس يروي بعض هذه الكرامات عن أمِّه فيقول:

كانت لها شاة، فجمعت مِنْ سمنِها في عُكّة[2] ثم بعثتْ به مع ربيبة إلى رسول الله ﷺ، فانطلقتْ حتى أتتِ النَّبيَّ الكريمَ وأخبرته بأنَّ العُكَّةَ قد بعثت بها أمُّ سُليم فقال: «أفرغوا لها عكَّتها»، ثم دُفِعتْ إليها، وجاءتْ فعلَّقتها على وَتَدٍ، فأتتْ أمُّ سُليم ـ وكانت غائبة ـ فرأتِ العكةَ ممتلئةً تقطرُ، فقال للربيبة: أليسَ أمرتُك أَنْ تنطلقي إلى رسول الله؟.

فقالتْ: قد فعلتُ، وسلي رسول الله.

فذهبتْ أمُّ سليم وسألتِ النَّبي الكريم فقال: «قد فَعَلَتْ قد جاءَتْ».

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (١/ ١٥٠).
(٢) إناء من جلد يجعل فيه السمن.

قالت أمُّ سليم: والذي بعثكَ بالحقِّ ودين الحقِّ إنّها لممتلئة تقطرُ سمناً.

فقال لها رسولُ الله ﷺ: «يا أمّ سُليم أتعجبينَ أَنْ كان الله أطعمَكِ كما أطعمْتِ نبيَّه؟ كُلي وأطعمي».

قالت: فجئتُ إلى البيتِ فقسمتُ في قَعْب ـ كأس كبير ـ لنا كذا وكذا، وتركتُ فيها ما ائتدمنا شهراً أو شهرين[1].

* وكانت أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ تبعثُ للنَّبي الكريم الطَّعامَ والتَّمر لعلْمِها أنَّه يحبُّ ذلك، وذكر أنسٍ أنَّ أمَّه بعثتْ معه بقناع فيه رُطَب إلى النَّبي ﷺ، يقول أنس: فقبض قبضةً فبعث بها إلى بعض أزواجه، ثم أكَلَ أكْلَ رجل تعلم أنَّه يشتهيه[2].

* * *

ما عِنـدَكِ يا أمّ سُـلَيم؟:

* قصصُ الكرمِ عند الصَّحابية المِعْطاء أمّ سُليم لا تنتهي وزيادة البركةِ في طَعامها وطعام زوجها أبي طلحة ليس لها من حدٍّ أيضاً، فقد كانت ـ رضوان الله عليها ـ مضيافة كريمةً، دائمةَ التَّوكلِ على الله سبحانه، يروي سيّدُنا أنس ابن مالك ما يتوافق مع هذا فيقول:

قال أبو طلحة لأمِّ سُليم: لقد سمعتُ صوتَ رسول ﷺ ضعيفاً، أعرفُ فيه الجوع، فهلْ عندك مِنْ شيء؟ قالت: نعم، فأخرجتْ أقراصاً ـ أرغفةً ـ مِنْ شعير ثم أخذت خماراً لها فلفته فيه، ودسَّته تحت ثوبي، وأرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فوجدتُه جالساً في المسجد ومعه النَّاس، فقمتُ عليهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «أرسلكَ أبو طلحة»؟ قلتُ: نعم، فقال لمَنْ معه: «قوموا».

قال: فانطلقَ، وانطلقتُ بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرتُه فقال: يا

---

(١) عن حياة الصحابة (٣/ ٦٣٥) بتصرف يسير.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٩).

أمَّ سُليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالنَّاس وليس عندنا ما نطعمهُم، فقالت: الله ورسولهُ أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقيَ رسول الله ﷺ، فأقبل معه حتى دخل، فقال رسول الله ﷺ: «هلمّي ما عندك يا أمّ سُليم»، فأتت بذلك الخبز، فأمرَ به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت عليه أمّ سُليم عُكَّةً لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أَنْ يقولَ، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة» فأذنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا، فأكل القوم وشبعوا، وهم سبعون أو ثمانون رجلاً[1].

* ويضيفُ أبو نُعيم الأصبهاني على هذه الرِّواية قول سيدنا أنس: ثمَّ دعاني ودعا أبو طلحة؛ فقال: كُلوا فأكلنا حتى شبعنا ثم رفع يديه؛ فقال: «يا أمَّ سُليم أينَ هذا مِنْ طعامكِ حين قدَّمتيه»؟ قالتْ: بأبي أنتَ وأمّي، لولا أنّي رأيتهُم يأكلون لقلتُ ما نقص من طعامِنا شيء[2].

* ولم تتوقفْ أمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ عن الكرم والجود، ولم ينقطعْ سخاؤها، فعندما أعرس رسول الله ﷺ بزينبَ بنت جحش[3] أم المؤمنين، صنعتْ له طعاماً من تَمْرٍ وسَمْنٍ، وبعثتْ به مع أنس ابنها إلى رسول الله ﷺ، وأكل منه عدد كبير مِنَ النَّاس أيضاً[4].

* * *

مَكَانَتُهَا وفَضْلُهَا:

* حظيتْ أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ بمكانةٍ رفيعةٍ عند النَّبي الكريم الذي

---

(١) الحديث متفق عليه، ورواه الإمام مالك في الموطأ كتاب صفة النبي جزء (٢) (٩٢٧ و٩٢٨) طبعة البابي الحلبي، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٥٧)، ودلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٥٣٢ و٥٣٣)، ووفاء الوفا (٣/ ٨٨١ و٨٨٢).

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٥٣٥).

(٣) انظر سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها في هذا الكتاب.

(٤) انظر: حياة الصحابة (٢/ ٦٦١).

كان يجلُّها ويحترمها ويزورُها، روى سيِّدُنا أنس قال:

كان النَّبي ﷺ يزور أمَّ سُليم أحياناً، فتدركه الصَّلاة فيصلي على بساط لنا وهو حصير ينضحه بالماء[1].

* وروىٰ أنس بن مالك أيضاً: أنَّ النَّبي ﷺ كان يزور أمّ سُليم فتتحفه بالشَّيء تصنعه له، قال أنس: وأخ لي أصغر مني يُكنى أبا عُمير، فزارنا النَّبيُّ ﷺ ذاتِ يوم فقال: «يا أمَّ سُليم ما شأني أرى أبا عمير ابنكِ خائر النَّفس»؟.

فقالت: يا نبي الله ماتتْ له صَعْوة ـ عصفورة ـ كان يلعبُ بها.

قال: فجعل النَّبي يمسحُ رأسه ويقول: «يا أبا عمير ما فعل النُّغير»[2]؟.

وهذا يشير إلى أنَّ النَّبي الكريم كان يتبسَّط عند أمِّ سُليم، ويمزح مع ابنها الصَّغير.

* وأحياناً كان عليه الصَّلاة والسَّلام يتحفُهم بالزِّيارة والدُّعاء، فقد روى سيِّدُنا أنس عن هذا فقال:

دخل علينا رسولُ الله ﷺ، وما نحنُ إلا أنا وأمّي وخالتي أمّ حرام[3] فقال: «قوموا أصلي بكم»، فصلى بنا في غير وقتِ صلاة، فجعل النّساء على يمينه، فلمّا قضى صلاته دعا لنا أهلَ البيت بكلِّ مِنْ خيرِ الدنيا والآخرة[4].

* والآن، تعالوا نستمعْ إلى سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يروي مكانة أمّه عند رسول الله فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا مرّ بجنبات أمِّ سُليم دخلَ عليها فسلَّمَ عليها[5].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٦)، والاستبصار ص (٣٩).
(٣) اقرأ سيرة هذه الصحابية المباركة الشهيدة في هذا الكتاب.
(٤) انظر الاستبصار ص (٣٩ و٤٠).
(٥) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.

* وكفاها فخراً وشرفاً أَنْ يخصَّها النَّبيُّ الكريم ﷺ بالزِّيارة والسَّلام والدُّعاء والصَّلاة في بيتها ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

إنّي أَرحَمُهَـا:

* ممّا يجعل الصَّحابية الجليلة أمّ سليم ـ رضي الله عنها ـ ذات مكانة خاصة، ما رواه سيّدنا أنس في حديثه الذي يدلُّ على خيريّة أمّ سُليم وبركتها فقال: لم يكنْ رسولُ الله ﷺ يدخل بيتاً غير بيت أمّ سُليم، فَقِيلَ له في ذلك فقال: «إنّي أرحمُهَا قُتِلَ أخوها معي»[1].

* ومن الجدير بالذّكر أَنَّ أخاها الذي عناه رسول الله ﷺ هو حَرام بنُ مِلْحانَ، شهد بدْراً وأُحُداً، وقَتِلَ شهيداً يوم بئر معونة سنة أربع منَ الهجرة، وهو قائل العبارة المشهورة المباركة: فُزْتُ وربِّ الكعبة. وذلك لما طُعِنْ مِنْ ورائِه، فطلعتِ الحربةُ مِنْ صدره ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ[2].

* * *

تَبـرُّكُ أمّ سُـلَيم بالنَّـبيّ ﷺ:

* محبةُ رسول الله ﷺ هي أساسُ الاتباعِ له، ولولا المحبةُ العاطفيةُ الصَّادقة في القلب لما وُجدَ وازعٌ يحملُ على الاتباع في العمل، وقد جعل النَّبي الكريم ﷺ مقياسَ الإيمان بالله سبحانه وتعالى امتلاء القلب بمحبته عليه الصَّلاة والسَّلام، حيثُ تغدو هذه المحبة أقوى من محبّة الوالد والولَد والنَّاس أجمعين.

* من هنا كان الصَّحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ يتسابقون إلى التَّبرُّكِ

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم، وانظر: السيرة الحلبية (٣/ ٧٣).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٧)، والاستبصار ص (٣٦).

بالنَّبي الكريم ﷺ، وقد روى البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ صوراً كثيرة تشيرُ إلى تبرّكِ الصَّحابة بآثار النَّبي ﷺ لدفع الضَّرّ والاستشفاء وما شابه ذلك، ولعلَّ ضيفة حلقتنا أمّ سُليم من السّبّاقين والمُسَارعين إلى هذا المجال؛ الذي أقرّها عليه الرَّسولُ ﷺ.

* والآن لنتبرّك بالحديث مع تبرُّكِ أمّ سُليم بالنّبي الكريم ﷺ، فقد روى الإمام مسلم في كتاب الفضائل، في باب طيب عَرَقِهِ ﷺ، أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام كان يدخل بيت أمّ سُليم، فينام على فراشها وليست هي في البيت، فجاءَ ذات يومٍ فنام على فراشها، فجاءت أمُّ سُليم وقد عَرِقَ رسول الله ﷺ واستنْقَعَ عرقه على قطعةِ أديم على الفراش؛ ففتحتْ عتيدتها ـ صندوق صغير ـ، فجعلتْ تنشِّفُ ذلك العرقَ فتعصره في قواريرها، فأفاقَ النَّبي ﷺ فقال: ما تصنعين يا أمَّ سُليم؟ فقالت: يارسول الله نرجو بركتَه لصبياننا، قال: أَصَبْتِ[1].

* وروى محمّد بن سِيرين التَّابعي الجليل عن أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ عن مقيل النَّبي الكريم في بيتها وتعمُّدِها إلى مَسْحِ عَرَقِ رسول الله ﷺ واحتفاظِها به؛ حيثُ قالت: كان رسول الله ﷺ يقيلُ في بيتي، فكنتُ أبسطُ له نِطعاً فيقيلُ عليه فيعرق، فكنتُ آخذ سُكاً فأعجنُه بعرقهِ. قال ابنُ سِيرين: فاستوهبتُ مِنْ أمِّ سُليم من ذلك السُّك فوهبتْ لي منه، ولما مات محمَّد حُنِّطَ بذلك السُّك[2]، وكان ـ رحمه الله ـ يهَبُ منه لأصحابه.

* وذكر السُّمهودي في كتابه النَّفيس «وفاء الوفا» أنَّه لما حضرت سيّدنا أنس بن مالك الوفاة أوصى أَنْ يُجعَلَ في حنوطه من ذلك السُّك، فجُعِلَ في حنوطه[3].

---

(١) رواه الإمام مسلم (١/ ١٣)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧ و٤٢٩) بألفاظ مشابهة.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٧)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨). والسّك: نوع من الطيب.

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٨٨١).

* وأمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ تعطينا درساً في الأدب والبركة في آنٍ واحدٍ، فقد كانت تتبرَّكُ بعَرَقِ النَّبي ﷺ، روى البراء بن زيد أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ ـ نام وقت الظّهيرة ـ في بيتِ أمِّ سُليم على نِطْعٍ فعرقَ فاستيقظ وهي تمسحُ العرقَ، فقال: «ما تصنعين»؟، قالت: آخذُ هذا لِلبركة التي تخرجُ منك[1].

* ومن عيونِ الأخبار الرَّائعة أنَّ أمَّ سُليم كانت تأخذ عرقَ النَّبي ﷺ الكريم وتخلطُ به طيبها، روت هذا بنفسها فقالت: كان رسول الله ﷺ يقيلُ عندي على نِطع وكان مِعْراقاً ﷺ ـ كثير العرق ـ، فجعلتُ أَسْلِتُ العرقَ في قارورة، فاستيقظ فقال: «ما تجعلين»؟. قلتُ: أريدُ أَنْ أدوّفَ ـ أخلط ـ بعرقك طيبي[2]. وفي رواية أنَّها قالت: هذا عرقُك نجعلهُ في طِيبنا وهو أطيبُ الطِّيب[3].

* ومنَ الخير والبركةِ والمفيدِ في هذا المقام أَنْ نُوردَ شيئاً عن رائحةِ عَرَقِ رسول الله ﷺ، فقد قال سيِّدُنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: كأنَّ رسولَ الله ﷺ منذ أُسريَ به ريحُه ريح عروس، وأطيب من ريح عروس.

وعن سيِّدنا أنس أيضاً أنَّه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا مرَّ في طريق منْ طرقِ المدينة، وجدوا منه رائحة الطِّيب وقالوا: مرَّ رسولُ الله ﷺ مِنْ هذا الطَّريق.

* وذكر إسحاقُ بن راهَوَيْه ـ رحمه الله ـ نحواً مِنْ هذا فقال: إنَّ هذه الرائحة كانت رائحة رسول الله ﷺ من غيرِ طيب.

* والإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ يشيرُ إلى أنَّ هذا الرِّيحَ الطَّيبَ كرامةٌ مِنَ الله للنَّبي الكريمِ فيقول: وهذا ممّا أكرمه الله تعالى به.

* وقالوا: وكانتِ الريحُ الطَّيِّبةُ صفته ﷺ وإنْ لمْ يمسَّ طيباً، ومع هذا كان

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٨ و٣٠٩).
(٣) انظر الحلية (٢/ ٦١)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٥٨).

يستعملُ الطِّيب في أكثر أوقاته مبالغة في طيب ريحه لملاقاة الملائكة، وأخْذِ الوحي، ومجالسة المسلمين.

* وكانت أمُّ سُليم ـ عليها رضوان الله ـ تتبرَّكُ بشعْرِ النَّبي الشَّريف، وتحتفظُ به في مكان أمين مِنْ متاعها، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ لما أراد أَنْ يحلقَ رأسه بِمنى، أخذَ أبو طلحة شِقَّ شعره، فجاء به إلى أمِّ سُليم؛ فكانت تجعله في سُكتها[1].

* أمّا موضع فَمِ النَّبي الشَّريف فَلَهُ مكان لا يصلُ إليه أحدٌ، ذكر أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم، وقِرْبةٌ معلقة فشرب منها قائماً، فقامت إلى فِيِّ السِّقاء وأمسكتْهُ عندها[2]. وذكر النَّووي رحمه الله أنَّ أمَّ سُليمٍ إنَّما قطعتْ فَمَ القِربة؛ لتحفظَ موضعَ فَمِ الرّسولِ الكريم ﷺ، وتتبرَّك به وتصونَه عنِ الابتذال.

* * *

اللهُـمَّ بـارِكْ لَـهُمَـا:

* سَعِدَ أبو طلحة الأنصاري سعادةً عظيمةً بزواجهِ من المؤمنةِ التَّقية أمِّ سُليم؛ التي كانت السَّبب في إخراجه من ظلماتِ الشِّرك إلى نور الإيمان والتَّوحيد والجهاد، وقد أكرمَ الله هذَين الزَّوْجين المؤمنَيْن بولدٍ فرحا به كثيراً، وسمياه أبا عمير، وغدا أبو عمير طفلاً صغيراً، واتَّخذ طائراً صغيراً يلعبُ به، وكثيراً ما كان النَّبي الكريمُ الرؤوف الرّحيم بالأطفال وبالمؤمنين يداعبُ أبا عمير هذا، وشاء الله سبحانه وتعالى أَنْ يمتحنَ هذه الأسرة الطَّاهرة التي أُسِّسَتْ على التَّقوى مِنْ أولِ يوم، فقد مرضَ أبو عمير، وخرج أبو طلحة ذات مرة إلى المسجد فقُبِضَ الصَّبيُّ الصَّغير، وهنا ظهرت أمُّ سُليم بصورةٍ أخرى لا تقلُّ روعةٍ عن صورها السَّابقة، وسجَّلتْ فَضْلاً ظلَّ ذكره وما يزالُ

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).

وسيبقى إلى أَنْ يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها، فد تلقَّتْ وفاتَه بنفْسٍ راضيةٍ صابرةٍ وقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وسجَّتْهُ في فراشه، وقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحةَ بابنه حتى أكونَ أنا أحدثه، ولنتركِ القصةَ لشاهد عيان يرويها لنا، وهذا الشَّاهد سيّدنا أنس بن مالك فيقول:

كان ابنٌ لأبي طلحةَ يشتكي، فخرجَ أبو طلحة فقُبضَ الصَّبيُّ، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالتْ أمُّ سُليم: هو أسكنُ ما كان. فقرَّبتْ إليه العشاء فتعشّى ثمَّ أصابَ منها. فلمّا فرغَ قالت: واروا الصَّبيَّ، فلما أصبحَ أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «أعرستُم الليلة» قال: نعم. قال: «اللهمَّ بارِكْ لهما»، فولدت له غلاماً. فقال لي أبو طلحة: احمِله حتى تأتي به النَّبي ﷺ وبعثَ معه بتمرات فقال: «أمعكَ شيءٌ»؟ قلتُ: نعم تمرات، فأخذَها النَّبي ﷺ فمضغَها ثم أخذها مِنْ فيه فجعلَها في في الصّبي، ثم حنّكه وسمَّاه عبدَ الله[1].

ورُوي أنَّ عبدَ الله بن أبي طلحة كان من الصَّالحين، وكانت تلك المسحةُ غرّةً في وجهه، وقال عَبايةُ بنُ رافع: لقد رأيتُ لذلك الغلام سبعةَ بنين كلُّهم قد قرأَ القرآن[2].

وهكذا نالت أمُّ سُليم وزوجها وأولادهما البركةَ من دعاء الرَّسول الكريم لهما.

* ومن الطَّريف أنَّ صاحب كتاب السِّيرة الحلبية قد أشار إشارة طيبةً إلى قصة أمِّ سُليم هذه، وتدلُّ هذه الإشارة على ما بلغتْهُ أمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ في مقام الصَّبر فقال: ولما أخبرَ أبو طلحة النَّبي ﷺ بما تقدم عن أمِّ سليم قال: «الحمدُ لله الذي جعل في أمتي مثل صابرة بني إسرائيل»، ولما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، وللحديث عدة روايات بهذا المعنى في كتب التراجم.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣٣٤) وصفة الصفوة (٢/ ٦٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٩).

سُئِلَ عليه الصَّلاة والسَّلام عن خَبَرِها؛ ذكر قصّةً مشابهة لقصة أمّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ[١].

* وقد نالت أمُّ سليم خيراً كثيراً مِنْ دعاء رسول الله ﷺ لها مراراً عديدة، فمن ذلك ما حدَّث به سيدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم فأتته بتمر وسمن فقال: «أعيدوا سمنكم في سقائكم وتمركم في وعائكم فإنّي صائم»، ثم قال في ناحية البيت فصلّى صلاةً غيرِ مكتوبة فدعا لأمِّ سُليم ولأهل بيتها، فقالتْ أمُّ سُليم: يا رسول الله إنَّ لي خُويصة، قال: «ما هي»؟ قالت: خادمُك أنس، فما ترك خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لي به[٢].

وروي عن أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ أنهَّا قالت: لقد دعا إليَّ رسول الله ﷺ حتى ما أريدُ زيادة[٣].

* * *

الوفيّـةُ المحْسِنَـةُ:

* كانت أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ من فاضلات النِّساء العاقلات، وكانت ـ رضي الله عنها ـ ذات رأي سديد، وذكاء وفراسة، كما كانت على خُلق كريم وجمعت صفات طيبة طاهرة، وفوق هذا كله كانت ترغبُ في العلم، وتسأل رسول الله ﷺ عما كان يشكل عليها[٤].

وفي هذه الخصال المباركة قالت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نعم النِّساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أنْ يسألْنَ عن الدِّين ويتفقهنَ فيه[٥].

---

(١) انظر القصّة في السيرة الحلبية (٣/ ٧٤).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٩).
(٣) الاستيعاب (٤/ ٤٣٩)، والاستبصار ص (٣٩).
(٤) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٢٢١ و٢٢٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٦).

* وقد كان النَّبي الكريم ﷺ يعلِّم أمّ سُليم أمور الدِّين والعبادة، فمن ذلك ما رواه سيّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ إذْ قال: زار رسولُ الله ﷺ أمّ سُليم فصلى في بيتها صلاةً تطوعاً، وقال: «يا أم سُليم إذا صليتِ المكتوبةَ فقولي: سبحان الله عشراً والحمد الله عشراً والله أكبر عشراً، ثم سَلي الله ما شئتِ، فإنَّه يُقالُ لكِ نَعم نعم نعم»[1].

* وهذه الصَّحابية الكريمة كانت مثالاً عالياً في الوفاء والإحسان، فقد أحسنت بإيمانها، وأحسنت برعايتها لزوجها وأولادها، وقَبْلَ هذا أحسنت لرسول الله ﷺ.

* بهذه الأخلاق وبهذه الشّمائل كانت تنال المكانة عند رسول الله ﷺ، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يفيضُ عليها بالعلم والتَّوجيه اللطيفِ لأداء العبادة، ذكر ابن سعد أنَّ النَّبي الكريم ﷺ سأل أمَّ سُليم فقال لها: «ما لأمِّ سُليم لم تحجَّ معنا العام»؟.

قالت: يا نبي الله كان لزوجي ناضِحان، فأمّا أحدهما فحجَّ عليه، وأمّا الآخر فتركه يسقي عليه نخلَه.

فقال النَّبي ﷺ: «فإذا كان رمضان أو شهر الصوم فاعتمري فيه، فإنَّ عمرة فيه مثل حجة، أو تقضي مكان حجة»، أو قال: «عمرة في رمضان تجزيك عن حجة معي»[2].

* وفي مجال الرِّفق، كان عليه الصَّلاة والسَّلام يرفق بأمِّ سُليم ومَنْ معها مِنَ النِّساء، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن أمِّ سُليم أنَّها كانت مع نساء النَّبي ﷺ وهنَّ يسوق بهن سوَّاق، فقال النَّبي ﷺ: «أي أنجشة رويداً سوقُك بالقوارير»[3].

* * *

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق (٨/ ٤٣٠).

(٣) المرجع السابق نفسه.

شَجَاعتُهـا وجهَادُهَـا:

* عرفْنا أمَّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ سيّدةً فاضلةً منَ الطِّراز الأول، عرفناها زوجاً صالحةً، وأمّاً رؤوفاً، وعابدةً قانتةً، وكريمةً سخيةً مباركةً، ولكنْ ماذا نعرفُ عن جهادها؟.

* لا شك أنَّ أمَّ سُليم ـ رضوان الله عليها ـ قد أبدعتْ في جميع المجالات، وكان لها جهاد مشكور مع كثير منَ النِّساء اللاتي جاهدْن مع رسول الله ﷺ، فقد أخرج الطَّبراني عن أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يغزو معه نسوة مِنَ الأنصار فنسقي المرضى ونداوي الجرحى.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يغزو بأمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ ونسوة معها مِنَ الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى[1].

* وذكر الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ شهدت حُنيناً وأُحداً، وكانت مِنْ أفاضل النِّساء[2].

* وقال محمّد بنُ سيرين التَّابعي الجليل: كانت أمُّ سُليم مع النَّبي ﷺ يوم أُحد ومعها خنجر.

* والآن سنرى بعض صور مشاركتها في الجهاد مع النَّبي الكريم ﷺ.

* * *

مَوقفُهَـا في غَـزْوَةِ أُحُـد:

* لم يكْفِ أمَّ سُليم ـ رضوان الله عليها ـ أَنْ تؤدي دورها في البيت فحسب، بل حرصت على أَنْ تشاركَ رجال الإسلام في جهادهم بسقاية الماء، ومداواة الجرحى، وما شابه ذلك، ففي غزوة أُحُد خرج مع المسلمين أربع

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤).

عشْرة امرأة يحملنَ الطَّعام والشَّراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم، وكان منهن سيدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء بنت سيِّدنا رسول الله ﷺ، والصّديقة بنت الصّديق عائشة زوج النَّبي الكريم وحمنة بنت جحش وأمّ أيمن وأمّ عُمارة[١] وغيرهن.

وقد روى سيِّدُنا كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيتُ أمَّ سُليم بنتَ ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد[٢].

* وكان لأمِّ سُليم ولهؤلاء النّسوة أثرٌ طيبٌ وعملٌ مشكور يوم أحد، فقد روى الشَّيخان في صحيحيهما عن سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمَّ سُليم، وإنَّهما لمشمرتان أرى خَدَمَ سُوقهما تنقزان ـ تهرولان ـ القرب على متونهما؛ تفرغانهِ في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواهِ القوم.

* * *

دَورُهَــا في خَـيْبَرَ:

* في غزوةِ خيبرَ مع رسول الله ﷺ عشرون امرأة يبتغين الجهاد ومرضاة الله ومرضاة رسوله، منهن أمّ سلمة زوج النّبي الكريم، وأمّ عمارة المازنية، وكعيبة الأسلمية وبطلة حلقتنا أمّ سُليم رضي الله عنهن جميعاً.

وكان للصَّحابية المعطاء أمّ سُليم في هذه الغزوة فضيلة مباركة نالتها وخصَّها بها النَّبي ﷺ، وذلك عندما كان عليه الصَّلاة والسَّلام راجعاً من خيبرَ، وأراد أَنْ يتزوَّجَ صفيةَ بنت حيي، فلما كان بموضع يُقال له «الصَّهباء» قال لأمِّ سُليم: «انظري صاحبتَكِ هذه فامشطيها» وأراد أَنْ يعرسَ بها هناك، فقامت أمُّ سُليم فأخذتْ كساءين وعباءتين فسترت بهما عليها إلى شجرةٍ

---

(١) اقرأ سيرة هذه الصحابية الجليلة في هذا الكتاب.
(٢) المغازي (١/ ٢٤٩).

فمشطتها وعطَّرتْها، وأعرس بها رسول الله ﷺ هناك[1].

* وفي هذه الغزوة نالت أمّ سُليم أَجْرَ الجهاد، وحظيتْ بمرضاة رسول الله ﷺ وإكرامه وثقته، فأكرمْ بجهادِها وعملِها!.

* * *

«وَيَومَ حُنَيْنٍ»:

* للصَّحابية المجاهدةِ أمّ سُليم ـ رضوان الله عليها ـ شأن كبير ودورٌ مبارك في غزوة حنين، تلك المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين، فقد خرجت تبتغي أَجْرَ الجهاد مع النَّبي ﷺ، وكان معها خنجرٌ قد حزمته على وسطها ـ وهي يومئذٍ حامل بعبد الله بن أبي طلحة ـ ورآها سيِّدُنا أبو طلحة فقال لها: ما هذا معك يا أمّ سُليم؟ قالت: خنجر أخذتُه معي.

وجاء أبو طلحة يوم حنين يُضحِكُ رسولَ الله ﷺ منْ أمِّ سُليم؛ فقال: يا رسول الله أَلَمْ تَرَ إلى أمِّ سُليم معها خنجر؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «ما تصنعين به يا أمّ سُليم»؟، قالت: أردتُ إنْ دنا أحدٌ مِنَ المشركين منّي طعنتُه[2].

مِنْ هذا المنطلقَ وصفها أبو نعيم بأنَّها الطَّاعنة بالخناجرِ في الوقائع والحروب، فأعظمْ بهذا الوصف!.

* وهكذا حظيت الصَّحابية الجليلة ـ رضوان الله عليها ـ بشرف الجهاد، ولعِلْمِهَا بمكانة الجهاد وثوابه، سألَتِ النَّبي الكريم ذات مرة عندما برئت مِنْ مرضٍ أَلَمَّ بها فقالت: يا رسول الله ما أفضل الجهاد؟، فقال ﷺ: «عليك بالصَّلاة فإنَّها أفضلُ الجهاد، واهجري المعاصي فإنَّها أفضل الهجرة».

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٤٠)، والمغازي (٢/ ٧٠٧ و٧٠٨) وأنساب الأشراف (١/ ٤٤٣).

(٢) عن المغازي (٣/ ٩٠٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٦٦)، والسيرة الحلبية (٣/ ٧٣) بتصرف يسير.

وظلتْ أمُّ سُليم رضي الله عنها تلتزمُ بهذه القاعدة إلى أَنْ لقيت ربَّها.

* * *

بشَارَتُـهَـا بالجَنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

* الصَّحابية الجليلة أمُّ سُليم رضي الله تعالى عنها، واحدةٌ مِنْ فضليات النِّساء اللائي تركنَ أثراً خالداً في تاريخ الإسلام، قال عنها الإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ: كانت مِنْ فاضلات النِّساء[١].

كما كانت ـ رضي الله عنها ـ زوجةً صالحةً، وداعية حكيمة، ومربية فاضلة، أدخلت أَنَساً ابنها في مدرسة النُّبوة فنبغ فيها، ونال أعلى درجات النَّجاح.

وكانت مع هذا وذاك حافظةً واعيةً لأحاديث المصطفى الكريم، فقد رَوت عن النَّبي ﷺ أربعة عشر حديثاً، اتفقا على حديثين، وانفرد البخاريُّ بحديث ومسلم بحديثين[٢].

ومِمَّنْ روى عنها ابْنها سيّدنا أنس بن مالك، وسيّدنا عبد الله بن عبّاس، وسيّدنا زيد بن ثابت ـ رضي الله عنهم ـ وآخرون[٣].

* وقد حظيتْ أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ ببشارة النَّبي ﷺ بالجنَّة، لنستمع نبأَ البشارة المباركة يزفّها لنا سيّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «دخلتُ الجنَّةَ فسمعت خشفة بين يدي؛ فإذا أنا بالغُميصاءَ بنت ملحان»[٤].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٣).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١١)، والمجتبى ص (١٠٤ و١٠٥).
(٣) الإصابة (٤/ ٤٤٢).
(٤) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي، كما رواه النسائي أيضاً.

* وللحديث لفظ آخر عند الإمام مسلم وفيه البشارة بالجنَّة، فعن سيدنا جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رأيتُني دخلتُ الجنَّةَ فإذا أنا بالرُّميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعتُ خشفة، فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: هذا بلال»[1].

* وبعد، فقد عشْنَا لحظاتٍ طيبةً مباركةً مع صاحبة السِّيرة العطرة أمّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ التي فازت بالرّضوان ـ الجنَّة ـ، وسعدت بصحبةِ النبيِّ الكريم ﷺ، فأسعدَتْنا بأعمالها الرّائعة، رضي الله عنها وأرضاها.

* وقبل أَنْ نودعَ الغُميصاء أمّ الأبطال، وأخت الشّهداء وزوج الكريم أبي طلحة نقرأُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) رواه مسلم حديث رقم (٢٤٥٧)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٣٠).



(١٧)

أمّ ورقـة الأنصاريـة
رضي الله عنها

* «قَرّي في بيتِكِ، فإنَّ الله تعالى يرزقُكِ الشّهادة».

حديث شريف

* «انطَلِقوا بنَا نزور الشّهيدَة».

حديث شريف






في رحاب الأنصار:

* سرى الفرح إلى قلوب الأنصار بقرب حلول رسول الله ﷺ في المدينة، فها هو النّبي الكريم ﷺ على مقربة من المدينة قاب قوسين أو أدنى، ونادى منادٍ أنْ وصل رسول الله ﷺ المدينة، فخرج الرِّجال والنِّساء لاستقباله جميعاً، وهم مستبشرون بقدومه.

* وقد وصفت أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قدوم رسول الله ﷺ المدينة المنورة فقالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النِّساء والصِّبيان والولائدُ يقلنَ:

طلـــــع البـــــدر علينــــــا
مـــــن ثنيــــات الـــــوداع
وجـــــب الشّكـــــر علينــــا
مـــــا دعــــــا لله داع
أيهـــــا المبعـــــوث فينــــا
جئـــت بـــالأمــر المطـــاع[1]

* وروى سيِّدنا البراء ـ رضي الله عنه ـ فقال: ما رأيت أهلَ المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[2].

* ونزل النّبي لكريم ضيفاً في دار بني النّجار، وخرجت جويريات من بني النّجار بالدّفوف يقلن:

نحـــنُ جـــوارٍ مـــن بنـــي النّجـــار
يـــا حبـــذا محمّـــدٌ مـــن جـــار

فخرج إليهنَّ رسول الله ﷺ وقال: «أتحببنني»؟ قلن: نعم يا رسول الله. فقال: «والله يعلمُ أنَّ قلبي يحبكن»[3].

---

(١) عن السيرة الحلبية (٢٣٤ و٢٣٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

* وما أجمل ما قاله الإمام السّبكي ـ رحمه الله ـ:

نــزلــتَ علــى قــومٍ بــأيمــن طــائــر
لأنّـــك ميمـــون السَّنـــا والنقيبـــة

فيــا لبنـــي النّجــار مِــنْ شـــرف بـــه
يجـــرّون أذيـــال المعـــالـــي الشَّـــريفـــة

* من هذا الحي المضياف تأتي الصَّحابية الكريمة أمّ ورقة الأنصارية، التي كانت نموذجاً رائعاً لنساء الأنصار في مجالات متعددة، وفي الصّفحات التّالية نتعرّف بعض جوانب حياة أمّ ورقة التي جمعت العلم إلى جانب الفضل.

* * *

العابدةُ الحافظـــةُ:

* عندما ذَكَرَ ابنُ سعد في طبقاته الكبرى نساء بني مالك بن النجار عدَّ منهن أمّ ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية[1] ضيفة حلقتنا اليوم، وأمُّ ورقة هذه لا تُعرَفُ إلا بهذا الاسم، وبه قد اشتهرت.

* وهذه الصَّحابية الجليلة واحدةٌ مِنْ نساء الأنصار اللائي سطرن أروع الصَّفحات في تاريخ الإسلام، وقد أسلمت مع السَّابقات وبايعت رسول الله وروَتْ عنه.

* كانت أمُّ ورقة ـ رضي الله عنها ـ من فواضل نساء عصرها، ومن كرائم نساء المسلمين. نشأت على حبِّ كتاب الله، وراحت تقرأُ آياتِه آناء الليل وأطراف النّهار، حتى غدت إحدى العابدات الفاضلات، فجمعتِ القرآن الكريم، وكانت تتدبر معانيه، وتتقن فهمه وحفظه، كما كانت قارئة مجيدة للقرآن، اشتهرت بكثرة الصَّلاة، وحُسْن العبادة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٧).

وكان النبي الكريم ﷺ يزورها ويكرمها، ذكر ابن حجر العسقلاني خبر عبادتها واهتمامها بالقرآن فقال: وكانت قد قرأتِ القرآن؛ فاستأذنت النّبي ﷺ في أَنْ تتخذَ في دارها مؤذناً فأَذِنَ لها[1].

* وكان النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام يقدِّرُ أمَّ ورقة ويعرف مكانتها، ويُكْبر حفظها وإتقانها، لذلك أمرها بأداء الصَّلاة في بيتها، ففي سنن أبي داود عن عبد الرحمن بن خلاد عن أمِّ ورقة بنت عبد الله بن الحارث قال:

«كان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها، وجعل لها مؤذناً يؤذِّنُ لها، وأمرها أَنْ تؤم أهل دارها»[2].

قال عبد الرحمن راوي الحديث: فأنا رأيتُ مؤذنها شيخاً كبيراً.

* وهكذا جعلت أمّ ورقة ـ رضي الله عنها ـ من بيتها مسجداً تُؤدي فيه الصَّلوات كلها، وذلك بإشارة من النّبي ﷺ الكريم الذي لاحظ نقاء نفسها وصفاء سريرتها، فجعلها إماماً للنساء، فكن يقتدين بها في العبادة والعلم والزّهد.

* * *

حبُّها للجهادِ والشهادة:

* ظلت أمُّ ورقة ـ رضوان الله عليها ـ تحافظ على شعائر الله، وعلى إقام الصَّلاة، وكانت تؤمّ النّساء إلى أَنْ نادى داعي الجهاد، ودعا رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى بدر قائلاً: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أَن ينفلكموها» فاستجاب ناس وثقل آخرون، حيث ظنوا أنَّ رسولَ الله ﷺ لمْ يلقَ حرباً، وظنوا كذلك أَنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام لم يهتم بها، غير أنَّ

---

(١) انظر الإصابة (٤/ ٤٨١).

(٢) انظر سنن أبي داود (١/ ٩٧) طبعة دار الكتاب العربي، وانظر كذلك الاستيعاب (٤/ ٤٨٢).

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كان ظهره[1] حاضراً فليركب معنا»، ولم ينتظر عليه الصَّلاة والسَّلام مَن كان غائباً عنه.

* ونُميَ إلى أمِّ ورقةَ ـ رضي الله عنها ـ أَنَّ رسول الله ﷺ، خارج لاعتراض عير قريش، فأسرعت وأتتْ رسول الله ﷺ تطلب أَنْ يأذنَ لها الغزو، ولنترك الحديث لأم ورقة نفسها لتحدثنا عن حبِّها ورغبتها في الجهاد فتقول:

إنَّ النَّبي ﷺ لما غزا بدراً قلتُ له: يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أمرِّض مرضاكم لعلَّ الله أَنْ يرزقني الشَّهادة، قال: «قري في بيتك؛ فإنَّ الله تعالى يرزقك الشّهادة»[2].

* وعادتِ الصَّحابيةُ العابدة أمّ ورقةَ إلى بيتها سامعة مطيعة أمر النّبي الكريم ﷺ، فطاعة رسول الله واجبة.

عادت وقرّت في بيتها ولزمت دارها بانتظار بشارة رسول الله ﷺ لها بالشّهادة، وهذه الطّاعة جعلتها أهلاً لزيارة الرّسول الكريم، فقد كان النّبي ﷺ إذا أراد زيارتها اصطحب ثلة من أصحابه الكرام، وقال لهم: «انطلقوا بنا نزور الشّهيدة»[3].

* وغدت أمُّ ورقة ـ رضوان الله عليها ـ تُعْرَفُ بهذا الاسم الطّيب المِعْطار، فكانت تُسمى بالشّهيدة، ورحم الله أَبا نعيم حيث ذكرها في مطلع ترجمته لها بقوله: الشّهيدةُ القارئة، أمُّ ورقة الأنصارية، كانت تؤمُّ المؤمنات المهاجرات، ويزورها النّبي ﷺ في الأحايين والأوقات[4].

* إنَّ امرأة يزورها النّبي الكريم لذات حظ عظيم.

* * *

---

(١) «ظهره»: أي ما يركبه.

(٢) انظر سنن أبي داود (١/ ٩٧)، والسيرة الحلبية (٢/ ٣٧٥)، وكتاب «حجة الله على العالمين» ليوسف النبهاني (٢/ ٨٢).

(٣) عن أسد الغابة ترجمة رقم (٧٦١٨).

(٤) انظر الحلية (٢/ ٦٣).

بشـارتهـا بالجنَّـة:

* قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

* ظلتِ الصَّحابية الجليلة أمّ ورقة ـ رضي الله عنها ـ تحافظ على شعائر الله طَوَال حياة رسول الله ﷺ، وكانت تنتظر ما بشّرها به رسول الله ـ الشّهادة ـ لتفوزَ بالجنّة التي أُزلفت للمتقين.

وانتقل الرّسول الكريم إلى الرّفيق الأعلى وهو راضٍ عن أمّ ورقة، وتابعت حياة العبادة والتّقوى في عهد سيِّدنا أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ على الصُّورة التي كانت عليها من قبل.

* وفي عهد سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يتفقدها ويزورها، اقتداء بالنّبي الحبيب ﷺ، وكانت أمُّ ورقة ـ رضي الله عنها ـ تملك غلاماً وجارية، وكانت وعدتهما بالعتق بعد موتها، فسوَّلت لهما نفساهما أَنْ يقتلا أمّ ورقة، وذات ليلة قاما إليها فغمياها وقتلاها وهربا، فلما أصبح سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ قال:

والله ما سمعتُ قراءةَ خالتي أمّ ورقة البارحة.

فدخل الدّار فلم يَـرَ شيئاً، فدخل البيت فإذا هي ملفوفة في قطيفة في جانب البيت فقال: صدق الله ورسوله، ثم صعد المنبر فذكر الخبر وقال: عليّ بهما، فأُتي بها، فسألهما فأقرّا أنّهما قَتَلاها، فأمر بهما فصُلبا، فكانا أول مصلوبَيْن بالمدينة، شرّفها الله تعظيماً وتكريماً[1].

---

(١) انظر سنن أبي داود (١/ ٩٧)، والاستيعاب (٤/ ٤٨٢)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٧).

* عندها قال سيِّدنا عمرَ ـ رضي الله عنه ـ: صدق رسول الله ﷺ حين كان يقول: «انطلقوا بنا نزور الشّهيدة»[1].

وهذا مِنَ الأدلة القاطعة على صدق نبوة سيِّدنا محمد ﷺ في إخباره بأنَّ أمَّ ورقة ستدرك الشّهادة، فاستشهدت في عهد سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، ونالت بذلك أجر الشّهداء الذين آتاهم الله من فضله، وحظيت بالجنّة التي وُعدَ المتقون.

* رحم الله الصّحابية الأنصارية الشّهيدة العابدة المحدِّثة أمّ ورقة، ونضّر الله قبرها.

وقبل أَنْ نودعَ سيرةَ حافظة القرآن التي كانت من صفة الصَّفوة مِنَ النّساء، نقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٣٨١)، والاستبصار ص (٣٥٩)، والحلية (٢/ ٦٣).



(١٨)

أسْمَاءُ بنتُ يَزيدَ ابنِ السَّكَنِ الأنْصَارِيّة رضي الله عنها

* قال رسول الله ﷺ لأسماء عندما بايعته:

* «انْصَرِفي يَا أسْماء وَأَعْلِمي مَنْ وَرَاءَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوجِهَا وطَلَبِهَا لمرضَاتِهِ واتّباعِهَا لموافَقَتِهِ يَعْدِلُ كلَّ مَا ذَكَرْتِ للرِّجَالِ».

* «لا يَدخُلُ النَّارَ أَحَدٌ ممَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجرةِ».

حديث شريف.





البِـدَايَــةُ المُشْرِقَــةُ:

* هذه السِّيرة العَطِرةُ، لواحدة من النِّسوة الطَّاهرات، اللواتي ضربْن أروع الأمثلةِ في الإيمان والعلم والصَّبر، فكُتِبَ لها الخلود في تاريخٍ مشرقٍ بالأنوار والبركات.

* أسلمت في السَّابقين مِنَ الأنصار على يَدِ مصعب الخير، الذي انطلق من خَيرِ دُور الأنصار ـ دار بني عبد الأشهل ـ قوم سيّدنا سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ، هذا الصَّحابي الكريم الذي كان إسلامه بركةً على قومه، فقد رُوي أنَّه يوم أسلم ما أمسى في دار بنيْ عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً أو مسلمة.

* وفضائل صحابية اليوم كثيرةٌ، فهي مِنْ ذوات العقل الراجح والدِّين، والشَّجاعة والإقدام، والصَّبر والإيمان، زِدْ على ذلك أنَّها إحدى راويات الحديث النَّبوي الشَّريف، فكان لها ذِكْرٌ، وأَثَرٌ مبارك، وسَبْقٌ طيّب في مجال المكارم، وكانت ممَّنْ أوصل النّور النَّبوي إلينا خلال مروياتها عن رسول الله ﷺ.

* يعرفنا الإمام ابن حجر بهذه الصَّحابية الكريمة فيقول: هي أسماءُ بنتُ يزيد بنِ السَّكن بنِ رافع بن امرىء القيس الأنصارية الأوسية ثم الأشهلية(١)، كانت تكنى أمّ سَلَمَة ويقال أمُّ عامر(٢)، من المبايعات المجاهدات، ومن النِّساء اللائي عِشْنَ فجر الإسلام في المدينة المنورة، وفُزْن بشرف الصُّحبة النَّبوية المباركة، كما فُزْن بمرضاة الله سبحانه ومرضاة رسوله الكريم ﷺ.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ نَسَبَ أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ، يلتقي مع نسب سيِّدنا سعد بن معاذ ـ رضي الله عنها ـ، في جدهما امرىء القيس بن

---

(١) انظر تهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٩)، والإصابة (٤/ ٢٢٩).

(٢) ذكر معظم الذين ترجموا لأسماء إنها تكنى بالكنيتين، ومعظم الروايات تقول: إن أم عامر وأم سلمة هما أسماء بنت يزيد، وهذا ما لاحظناه في أخبارها.

زيد بن عبد الأشهل، فأكرمْ بهذا النَّسب!.

* * *

«إنَّ مِـنَ البَيـان لَسِحْـراً»:

* حازتِ الصَّحابية الجليلةُ أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها -، شهادة الفصاحة من الصَّحابة الكرام - رضوان الله عليهم -، فقد عُرفت بحُسْنِ المنطق، وقوة البيان، وسِحر الكلام، وقد زادت سماتها تلك بأَنْ نهلت من القرآن الكريم والحديث الشَّريف ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى لقّبوها - خطيبة النِّساء[1] -، ممّا جعل لها بهذا اللقب مكانة متميزة بين نساء الأنصار، وَفَدتْ على رسول الله ﷺ، فبايعته وسمعت حديثَه، وألقت خطبةً تدلُّ على ذكائها وحسنِ أدبها وبلاغتها، وتمكنها من ناصية الكلام.

* روى أصحاب التَّراجم والسِّير خطبة أسماء البليغة، الآسرة، المؤثرة، وذكروا أنّها أتت النَّبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمّي أنت يا رسول الله، إنّي رسولُ مَنْ ورائي مِنْ جماعة نساء المسلمين كلّهن يقُلن قولي، وعلى مثل رأيي.

إنَّ الله تعالى بعثك إلى الرِّجال والنِّساء، فآمنا بك واتبعناك، ونحنُ معاشر النِّساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرِّجال وحاملات أولادهم، وإنَّ الرجال فُضِّلوا بالجُمعة والجماعات، وشهود الجنائز والجهاد في سبيل الله، وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم، أفنشاركهم في الأَجْر يا رسول الله؟.

فالتفتَ رسولُ الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: «هل سمعتم مقالةَ امرأة أحسن سؤالاً عن دينها مِنْ هذه»؟.

---

(١) من الجدير بالذكر أن خطيب الأنصار هو سيدنا ثابت بن قيس - رضي الله عنه - أحد نجباء أصحاب محمد ﷺ. اقرأ سيرة هذا الصحابي في كتابنا: رجال مبشرون بالجنة جزء (١).

فالتفتَ النَّبي ﷺ إليها فقال: «انصرفي يا أسماء، وأَعْلِمي مَنْ وراءَكِ مِنَ النِّساء أنَّ حُسْنَ تبعُّل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته، يعدلُ كلّ ما ذكرت للرِّجال».

فانصرفتْ أسماء وهي تهلّلُ وتكبّرُ استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ[1].

* * *

دَرْسٌ فـي طَاعَــةِ الـزَّوْج:

* للزوجِ حقٌّ عظيم على زوجته كما ذكَر المصطفى ﷺ حيث قال: «لو أمرتُ أحداً أَنْ يسجد لأَحَدٍ، لأمرتُ المرأة أَنْ تسجدَ لزوجها»[2] ولذلك أحبَّ النَّبي الكريمُ ﷺ أَنْ يُوجّه أسماء والنِّساء توجيهاً لطيفاً إلى هذا الموضوع، فقد روت أسماءُ بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت:

مرَّ بي النَّبي ﷺ وأنا في جَوَارِ أَتْرابٍ لي، فسلَّم علينا وقال: «إيّاكن وكفر المنعمين».

وكنتُ مِنْ أجرئهن على مسألته، فقلتُ:

يا رسول الله، وما كُفْران المنعمين؟.

قال: «لعلَّ إحداكن تطولُ أيمتُها بين أبويها، ثم يرزقها الله زوجاً، ويرزقها منه ولداً، فتغضب فتكفر فتقول: ما رأيتُ منك خيراً قطّ»[3].

* وهكذا كانت مشاهد التّربية النَّبوية للنِّساء، وخصوصاً اللواتي كنَّ ينشُدْن الخيرَ والعِلْم من جميع جوانبه، وهو لونٌ من ألوان التَّربية العظيمة التي انغرست في نفوسِ هؤلاء النِّسوة المباركات الطاهرات.

* * *

---

(١) انظر في هذا الاستيعاب (٤/ ٢٣٣) وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٧١١) والاستبصار ص(٢١٨ و٢١٩)، والدر المنثور (٢/ ٥١٨) بروايات متقاربة.

(٢) انظر: كتاب الشفا (١/ ٤٢١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٧)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٥٧).

المُبايِعَــةُ الصَّــادِقَــةُ:

* لأسماءَ بنتِ يزيد ـ رضي الله عنها ـ أوّليةٌ مباركةٌ وسابقةٌ خَيّرة في تاريخ نساءِ الأنصار، فقد ذكر عمرو بن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: أولُ مَنْ بايعَ النَّبي ﷺ أمُّ سعد بن معاذ كَبْشَة بنتُ رافع، وأمُّ عامر بنت يزيد بن السَّكن، وحواء بنت يزيد بن السَّكن[١].

* وكانت أسماء ـ رضوان الله عليها ـ تفخر بهذه الأوّلية وهذا السَّبْقِ إلى المبايعة؛ فتقول: إنّا أولُ مَنْ بايع رسول الله ﷺ[٢].

* بايعت أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ بيعةَ الإسلام على ما كان رسول الله ﷺ يبايع النِّساء، وكانت بيعتها تفيض بالإخلاص، وتتسم بالصِّدق العملي الذي تمثلته منذ اللحظات الأولى لبيعتها، ورحم الله أبو نعيم الأصبهاني إذ وصفها بقوله: أسماءُ بنتُ يزيد بن السَّكن، النَّابذةُ لما يُورِثُ الغُرور والفتن[٣].

* وذكر أبو نعيم أيضاً في الحلية قصة تشير إلى تخلّي أسماء عن حليتها عند البيعة، فقد أخرج بسنده عن أسماء أنّها قالت:

أتيتُ النَّبي ﷺ لأبايعه، فدنوتُ منه وعليَّ سِوَاران من ذهب، فبصر بصيصَهما فقال: «ألقي السِّوارين يا أسماء، أَمَا تخافين أَنْ يسوِّرَكِ اللهُ بأساورَ مِنْ نار»؟.

قالت: فألقيتُهما فما أدري مَنْ أخذهما[٤].

* نعم، فالسَّعادة ليست في الحُلي والذَّهب وجَمْعِ المال، ولكنّها بالتُّقى

---

(١) انظر الدر المنثور (٨/ ١٤٣)، وكتاب الأوائل للعسكري ص(٢٧١)، وطبقات ابن سعد (٨/ ١٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٧٢).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٦).

والإيمان الحقيقي؛ الذي تجلى في أروعِ صُوَره عندما طرحت أسماء ـ رضي الله عنها ـ سواريها بعيداً، لتجتنب النَّار، وتحظى برضوان الله سبحانه وتعالى في طاعة رسوله ﷺ.

* * *

التّلمِيذَةُ النَّجيْبَةُ:

* يجبُ على المرأة المسلمة أنْ تتعلَم شؤون دينها كما يتعلم الرجل، وأنْ تسلك كل السُّبل المشروعة الممكنة إلى التَّسلح بسلاح العلمِ والوعي، وأَنْ تنتبه إلى مَكَامِنِ الكيد والغدر، حتى تستطيع أنْ تؤدي الطَّاعات، وتقوم بالواجبات في صورة سليمة صحيحة.

* وأسماءُ بنتُ يزيد ـ رضي الله عنها ـ، نموذج رائع من النِّساء اللاتي كُنَّ يسألن رسولَ الله ﷺ عن دقائق الأمور وتفصيلاتها لتصلَ إلى طريق الصَّواب، وتَسْلُك جانب الخير، وهذا يشيرُ إلى شخصيتها المتميزة، وعقلها الوافر.

وصفها ابن عبد البر رحمه الله بقوله: كانت من ذوات العقل والدِّين[١].

وهاتان الصِّفتان ـ العقل والدِّين ـ جعلتا أسماءَ منَ النِّساء الفاضلات النَّجيبات في مدرسة النُّبوة، وجعلتا أسماء أيضاً من فقيهات نساء الأنصار، ومما يتوافق مع هذا، أنَّ أسماء ـ رضي الله عنها ـ أتتِ النَّبي ﷺ، وسألته عن طريق تطهير المرأة مِنَ الحيض، فقد ذكر الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

إنَّ أسماء بنتَ يزيد سألتِ النَّبي ﷺ عن الغسل من الحيض فقال: «تأخذ سِدْرتها[٢] وماءها فتغسل رأسها، وتدلكه دلكاً شديداً حتى بلغ الماء شؤون رأسها، ثم تأخذ فَرْصَةً مُمسّكة[٣] فتطهر بها».

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٢٣٣).

(٢) «السِّدرة»: شيء من شجر النبق يساعد على تنقية الأعضاء عند الغسل.

(٣) «فرصة ممسكة»: خِرْقَةٌ أو قُطنة مطيّبة.

قالت: كيف أتطهرُ بها؟.

فقال النَّبي ﷺ: «سبحان الله العظيم! تطهرين»!.

قالت عائشة تشيرُ إليها: تتبعينَ آثار الدم[1].

* نلاحظ من هذا الحديث الشريف أنَّ أسماءَ بنتَ يزيد ـ رضي الله عنها ـ تمثل المرأة الواعية التي تتحرى الدِّقة والعلم واليقين في أمور الدِّين، فلا يمنعها الحياء من ذلك؛ حتى لا تكون على غضاضة من أي أَمْرٍ يُشكل عليها، ولذا فقد امتدحت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ نساء الأنصار فقالت: نِعْمَ النِّساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أَنْ يسألن عن الدِّين ويتفقهن فيه.

* وفي حديث أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثناءٌ عطِرٌ على نساء الأنصار، وثناء حسن مبارك، وشهادة صدق لهن جعلتهن في الذِّروة العليا من المكارم والفقه.

* * *

مـعَ عَـائِشَــةَ أُمِّ الـمـؤمنينَ ـ رضي الله عنهما ـ:

* لأسماءَ بنتِ يزيد ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ خاصةٌ في نفس أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فهي التي زيّنتها يوم زفافها على رسول الله ﷺ، وأدخلتها عليه، وبعد ذلك أصبحت تُدعى ـ أسماء عائشة ـ أو ـ أسماء مقيِّنة عائشة ـ[2].

* أمَّا أخبار هذا الحدث السَّعيد فترويه أسماء نفسها؛ فتقول:

إنّي قيّنتُ ـ زيّنتُ ـ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لرسول الله ﷺ، ثم جئته

---

(١) انظر: كتاب «الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة» للخطيب البغدادي ص (٢٨).

(٢) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٧٠٤)، والإصابة (٤/ ٢٤٠) و«المقينة»: التي تزين المرأة ليوم زفافها.

فدعوته لجلوتها، فجاء فجلس إلى جانبها، فأُتي بِعُسٍّ لبن ـ قدح ـ فشرب، ثم ناولها النَّبي ﷺ فخفضتْ رأسها واستحيت.

قالت أسماء: فانتهرتها وقلتُ لها: خذي من يَدِ النَّبي ﷺ.

قالت: فأخذتْ فشربتْ شيئاً، ثم قال لها النَّبي ﷺ: «أعطي تِرْبَكِ».

قالت أسماء: فقلتُ يا رسول الله، بل خُذْهُ فاشربْ منه ثمَّ ناولنيه مِنْ يدك، فأخذه فشرب منه ثم ناولنيه.

قالت: فجلستُ ثم وضعتُه على ركبتي ثم طفقتُ أديره وأتبعُه بشفتي لأصيبَ منه مَشْرب[1] النبي ﷺ، ثم قال لنسوة عندي: «ناوليهن».

فقلن: لا نشتهيه.

فقال النبي ﷺ: «لا تجمعن جوعاً وكذباً»[2].

في رحَابِ الكَرَم والكَرامَةِ:

* الكرمُ صفةٌ طيّبةٌ من صفات الأنصار الذي شهد الله لهم بذلك، كما شهد رسول الله بذلك أيضاً، وشهد لهم بالخير أيضاً وخاصة قوم أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ، فقد نقلت أسماء هذه الشَّهادة فقالت: كان رسول الله ﷺ إذا أشرفَ على بيوتنا يقول: «ماذا في هذه الدور من الخير! هذه خيرُ دور الأنصار»[3].

* وكان الأنصار رجالاً ونساءً يتسابقون إلى الفضائل ابتغاء مرضاة الله سبحانه، وكانت أسماءُ بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ ممن حاز السَّبْق في هذا المضمار، فكانت كريمةَ الطبع سخيّةً.

وقد أكرمها الله سبحانه فطرح البركة في طعامها الذي قدَّمته للنّبي ﷺ، روت خبر هذه المكرمة بنفسها فقالت:

---

(١) وذلك حتى تتبرك بموضع شربه ﷺ.
(٢) انظر الفتح الرباني (٢١/١٦).
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٣١٩).

رأيتُ رسول الله ﷺ صلى في مسجدنا المغرب، فجئتُ بعرْقٍ ـ اللحم بعظمه ـ وأرغفةٍ فقلتُ: بأبي وأمي تعشَّ، فقال لأصحابه: «كُلوا باسم الله»، فأكل هو وأصحابه الذين جاؤوا معه ومَنْ كان حاضراً مِن أهلِ الدَّار، فو الذي نفسي بيده لرأيتُ بعض العرق لم يتعرقه وعامة الخبز وإنَّ القوم أربعون رجلاً، ثمَّ شرب من ماء عندي في شَجْب ـ قربة ـ ثم انصرف، فأخذت ذلك الشَّجْب، فدهنتُه وطويته، فكنّا نسقي منه المريض ونشرب منه في الحين رجاء البركة[1].

* وأودُّ أَنْ أشيرَ في هذا المقام إلى حرص أسماء بنتِ يزيد وحرص الصَّحابة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على الاحتفاظ بأَثَرٍ مِنْ آثار النَّبي الكريم ﷺ للتبرك به والاستشفاء به، كما روت الصَّحابية الكريمة أسماء ـ رضي الله عنها ـ، ومما يشفي النَّفس هنا ما أورده القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في كتابه المبارك الطيب «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى» حيث ذكر في التّبرك بآثار النبي ﷺ وإعظامه وإكباره فقال:

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أسبابه[2]، وإكرام مشاهده[3] وأمكنته في مكةَ والمدينة، ومعاهده وما لَمَسَهُ ﷺ أو عُرِفَ به[4].

* وأُثِرَ عن كثير من الصَّحابة الكرام والتَّابعين الأخيار، احتفاظهم بأشياءَ من رسول الله ﷺ للتّبرك بها، ومن البركة هنا أَنْ نشير إلى أَنَّ القاضي عياض ـ رحمه الله ـ قد عقد في كتابه الشَّافي «الشِّفا» فصلاً في «كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره»[5] ﷺ.

* * *

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣١٩ و٣٢٠)، والإصابة (٤/ ٢٥٠)، وانظر كذلك كتاب: «حجة الله على العالمين» للنبهاني (٢/ ٢١١).
(٢) «الأسباب»: كل ما يُنسب إلى النبي ﷺ من فراشه ولباسه ممن لا روح فيه.
(٣) «مشاهده»: مواضعه التي حضرها أو نزل بها ﷺ.
(٤) انظر الشفا (٢/ ٦١٩) وما بعدها.
(٥) الشفا (١/ ٤٦٢ ـ ٤٧٠).

كَرامَــةٌ أُخْـرى لأَسْمَـاء:

* مرة ثانية يكرمُ الله سبحانه وتعالى أسماء بنت يزيد ببركة طعامها وزيادته، كان هذا في غزوة الخندق حيثُ أرسلت بقعبة فيها حَيْس ـ تمر وسمن ـ إلى رسول الله ﷺ وهو عند أمِّ سَلمَة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، فأكلت أمُّ سلمةَ حاجتها، ثم خرج بالقعبة فنادى منادي رسول الله ﷺ إلى عشائه؛ فأكلَ أهلُ الخندق حتى نَهِلوا وهي كما هي[1].

* وتكثيرُ الطَّعام إحدى المعجزاتِ التي أيّد الله بها النَّبي الكريم، وقَعَ هذا في مواضعَ كثيرةٍ، وحَدَثَ مع عددٍ منَ الصَّحابة والصَّحابيات، كما حصل لفاطمةَ الزَّهراء[2] بنتِ رسول الله ﷺ، وأمِّ سُليم[3] وزوجها أبي طلحة وجابرِ بن عبد الله رضي الله عنهم جميعاً.

* وقد أوردت كُتُب الحديث وكتب التَّراجم والسِّير كثيراً من هذه الأخبار في هذا المجال[4].

* * *

أَسْمَـاءُ وحُكْـمٌ مِـنَ القُــرآن:

* حرصَ القرآن على الاهتمام بشأن المرأةِ في جميع أطوارها، ومواقفها من مشاكلها ودقائقها، فقد تحدَّثَ عنها عن حقوقها، وجعل لها اعتباراً ومكانةً باعتبارها أمّاً وأختاً وبنتاً وزوجةً، وعالج فطرتها فبلغ بها أسمى منازل

---

(١) المغازي (٢/ ٤٧٧).
(٢) اقرأ قصة بركة الطعام في سيرة فاطمة بنت رسول الله ﷺ من هذا الكتاب.
(٣) اقرأ سيرة الصحابية أم سليم بنت ملحان وقصة بركة طعامها وتبركها بآثار رسول الله في هذا الكتاب.
(٤) الصحيحان في مواضع متفرقة، وانظر مثلاً البداية والنهاية (٤/ ٩٧)، والسيرة الحلبية (٣/ ٣٦٤) ودلائل النبوة للأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي في مواطن كثيرة، وغيرها من كتب السير والتراجم.

الكمال، كما عالج واجبها فأظهرَ ما لها وما عليها.

* وللصَّحابية الكريمة أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ نصيبٌ في القرآن الكريم، وأولوية لها بها فَضْل السَّبْق، فقد أخرج أبو داود وابن حاتم والبيهقي في سننه عنْ أسماءَ بنتِ يزيد بنِ السَّكن الأنصارية قالت:

طُلِّقْتُ على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزلَ الله حين طُلِّقتْ العدة للطلاق ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكانت أول مَنْ أُنزِلتْ فيها العدَّةُ للمطلقات[(١)].

* وهذا إكرام مِنَ الله سبحانه وتعالى للمرأة عامة ولأسماء خاصة ـ رضي الله عنها ـ، وذلك لصون المجتمع وحفظه من الشَّوائب، والمحافظة على بقائه سليماً نقياً.

* * *

أَسْمَاءُ والحَديث النَّبَويّ:

* مِنَ المناقب الكريمة التي تُضاف إلى الصَّحابية الكريمة أسماء بنت يزيد؛ وَعْيها حديث رسول الله ﷺ وروايتها له، روت عن النَّبي الكريم ﷺ جملة أحاديث بلغتْ واحداً وثمانين حديثاً، وروى لها أبو داود والتِّرمذي وابن ماجه، وحدَّث عنها مولاها مهاجر بن أبي مسلم، وشهر بن حوشب، وابن أختها محمود بن عمرو الأنصاري وغيرهم[(٢)].

* وأسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ من أكثر المسلمات رواية لحديث

---

(١) انظر سنن أبي داود (١/ ٣٥٨)، باب في عدة المطلقة، وانظر تفسير الإمام ابن كثير للآية [٢٢٨] من سورة البقرة، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٥٠)، والدر المنثور للسيوطي (١/ ٦٥٦)، وانظر كذلك «أسباب النزول» للشيخ عبد الفتاح القاضي ص (٣٨).

(٢) عن تهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧)، وأعلام النساء (١/ ٦٧).

رسول الله ﷺ، بعد أمِّنا عائشة وأمِّنا أمّ سَلَمة ـ رضي الله عنهما ـ، ولعلَّ هذا يعودُ إلى كَثْرةِ تردُّدِ هذه الصَّحابية إلى بيوت النَّبي ﷺ، فقد أورد أبو نُعيم في الحلية أنَّ أسماءَ بنتَ يزيد كانت تخدمُ النَّبي ﷺ، وهذا أيضاً يزيدها عِلماً وفقهاً وبركةً وفَضْلاً.

* * *

من مَروياتِـهَـا:

* من مرويات أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً ولا يبالي»[1].

* ومن مروياتها أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لأمِّ سعد بن معاذ: «ألا يرقأ دمعكِ ويذهب حزنكِ بأنَّ ابنَك أولُ مَنْ ضحكَ الله له واهتزَّ له العرش»[2].

* وروت أسماء أيضاً أنَّ النَّبي ﷺ قال: «اسمُ اللهِ الأعظم فيما بين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحةُ آل عمران ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»[3].

* * *

رِحْـلَتُـهَـا مـعَ الجِهَـاد:

* الجهادُ في سبيل الله تعالى، هو ما كانت تتطلعُ إليه أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* ولأسماءَ باعٌ طويلٌ ورحلةٌ شائقةٌ في عَالَمِ الجهاد، فمنذ أَنْ بايعتْ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وانظر كتاب: حُسْنُ الأسوة ص (٢٨٢).
(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٢٧)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٣٤).
(٣) انظر العقد الفريد (٣/ ٢٢٣).

رسولَ الله ﷺ بيعتها المشهورة، كانت تطوي في نفسها التَّطلع إلى المشاركة في الجهاد.

* وقد نشأتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ في أسرة عُرِف أفرادها بالتَّضحية والجهاد منذ أَنْ أعلنتْ كلمة التَّوحيد، ومنذ أَنْ صادفَ نورُ الإيمان قلوبهم الصَّافية خاليةً فتمكن منهم.

* وإذا ما تتبعنا رحلة جهاد أفراد أسرتها، ألفيناهم منْ أبطال الإسلام وأعلامه، ومن فرسان مدرسة النُّبوة الميامين، حازوا فضيلة الجهاد مع رسول الله ﷺ، ونالوا شرف الاستشهاد إذ اتخذهم اللهُ شهداء، ومَنْ يتخذِ اللهُ شهيداً فقد فاز فوزاً عظيماً.

* ولآلِ السَّكن هؤلاء مواقفُ وضَّاءةٌ في غزوة أُحُد، كما أنَّ لأسماءَ ـ رضي الله عنها ـ موقفٌ وضيءٌ ينضح بالبطولة، ويفوحُ برائحة الإيمان ويشيرُ إلى حبِّ الفداء للنبي الكريم ﷺ.

* وتعال ـ عزيزي القارىء ـ نشهد مع هذه الأسرة المباركة وقْفَتَها الخالدة يوم أحد؛ ونرى دورَ أسماءَ وأقاربها.

* فأبوها: يزيدُ بنُ السَّكن الأنصاري الأشهلي، استشهد يوم أحد مع ابنه عامر بن يزيد ـ رضي الله عنهما ـ[1].

* وعمُّها: زياد بن السَّكن الأنصاري الأشهلي، أَحَدُ الفرسان الأبطال الذين باعوا أنفسهم لله واستشهدوا يوم أحد عندما قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ رجلُ يبيعُ لنا نفسه»؟.

فوثبَ فتيةٌ مِنَ الأنصار خمسة منهم زياد بن السَّكن رضي الله عنه، فقاتلوا حتى كان آخرهم زياد بن السكن، فقاتل حتى أُثْبِتَ ـ جُرِح جراحة لا يتحرك

(١) انظر الاستيعاب (٣/ ٦١٢)، والإصابة (٣/ ٦٢٠)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٥٥٥١)، والاستبصار ص (٢١٨).

منها ـ ثم ثابَ إليه ناسٌ من المسلمين فقاتلوا عنه حتى أجهضوا ـ أزالوا ـ عنه العدو، فقال رسول الله ﷺ لزياد بنِ السَّكن: «أُدْنُ مني»، وقد أثبتته الجراحة، فوسده رسول الله ﷺ على قَدَمِه حتى مات عليها(١).

* وابنُ عمِّها: عمارة بن زياد بن السَّكن، قُتِلَ يوم أحد شهيداً، ووُجِدَ به أربعة عشر جرحاً(٢).

* وهكذا فقد اتخذ الله المؤمنين شهداء، ومنهم آل السّكن الأخيار، الذين خلَّفوا وراءهم نساء يحملن قلوباً مملوءة بمحبة الله سبحانه ومحبة رسوله الكريم ﷺ، ومنهن أمُّ سعد بن معاذ وبطلةُ حلقتنا أسماء بنتُ يزيد ـ رضي الله عنهما ـ، فإنَّه لما بلغها استشهاد أبيها وأخيها وعمّها وابن عمها خرجت تنظر إلى سلامة رسول الله ﷺ، وهو قادم من أحد، وعندما رأته سالماً قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَكَ جَلَلَ(٣) ـ هينة ـ.

وخرجت كذلك أمُّ سعد بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ، فلما رأتِ النَّبي ﷺ قالت: أَما إذ رأيتُك سالماً فقد أشوتِ ـ هانت ـ المصيبةُ. وكان ابنها عمرو بن معاذ قد استشهد مع اثني عشر رجلاً من بني عبد الأشهل، فعزّاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو ثم قال:

«يا أمّ سعد، أَبْشري وبشِّري أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً وقد شُفِّعوا في أهليهم».

قالت: رضينا يا رسول الله ومَنْ يبكي عليهم بعد هذا؟.

ثم قالت: ادُعُ يا رسول الله لمن خلِّفوا.

فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (١٨٩٩)، والاستبصار ص (٢١٧).
(٢) انظر الاستيعاب (٣/١٩و ٢٠)، والاستبصار ص (٢١٧).
(٣) المغازي للواقدي (١/ ٣١٥ و٣١٦).

«اللهم أَذْهِبْ حُزْنَ قلوبهم، واجبر مصيبتَهم، وأَحْسِنِ الخلف على مَنْ خلّفوا»[1].

* وهكذا نال هؤلاء الشُّهداء وأهلهم الجنَّة ببركةِ دعاء سيّدنا محمّد ﷺ.

* وشهدت أسماءُ بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ كثيراً من الأحداث الهامة في الإسلام، وكانت تشارك فيها، فقد تابعت رحلة الجهاد مع رسول الله ﷺ، فشاركت في غزوة الخندق بإكرام النَّبي ﷺ بالطَّعام، وخرجت معه إلى الحديبية[2]، وبايعت بيعة الرِّضْوان[3]، ثمَّ شاركت في غزوة خيبر[4]، وظلت تقدم جهداً مشكوراً في حياة النَّبي ﷺ إلى أَنْ توفي وهو راضٍ عنها.

* * *

أَسْـمَاءُ ورحْـلَةُ جِـهَـادٍ أخرى:

* لم تتوقفِ الصَّحابية الجليلة أسماء بنت يزيد عن الجهاد، فما إنْ أقبلتَ السَّنة الثالثة عشرة من الهجرة، حتى خرجت إلى بلاد الشَّام لتأخذ مكانها في جيش المسلمين في اليرموك لتسقي العطشى، وتضمد جراح الجرحى.

* ومعركة اليرموك من أشهر معارك المسلمين التي خلَّدها التَّاريخ، وسجَّل المسلمين فيها انتصاراً يفيض بالبركة، كما سجَّل كذلك دور المرأة المسلمة التي شاركت فيها مشاركةً فعليةً مع المجاهدين. فقد ذُكِرَ أنَّ أبطالَ المسلمين قاتلوا قتالاً شديداً يومذاك، حتى قاتلتِ النِّساء مِنْ ورائهم أشدَّ القتال، وكُنَّ يشجعنهم، ولما احتدمتِ المعركةُ واستعرتْ نارُها جعل بعضُ رجال المسلمين يتراجع، ولكنَّ النِّساء المجاهدات كنّ لهم بالمرصاد، وكانت النِّساءُ تستقبل مَن انهزمَ ويضربنهم بالخشب والحجارة، وذكر ابنُ كثير

---

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر المغازي (٢/ ٥٧٤).
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧).
(٤) المغازي (٢/ ٦٨٥)، والإصابة (٤/ ٤٥٠).

ـ رحمه الله ـ دور النِّساء في هذه المعركة الحاسمة فقال:

وقد قاتل نساءُ المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خَلْقاً كثيراً مِنَ الرُّوم، وكُنَّ يضربن مَنْ انهزم مِنَ المسلمين ويقُلن: أين تذهبون وتدعوننا للعُلُوج، فإذا زجرنَهم لا يملكُ أحد نفسه حتى يرجعَ إلى القتال[1].

* وعندما سمع جنود المسلمين هذا رجعوا إلى مواقفهم، وتبايعوا على الموت، وقاتلوا حتى كَتَبَ اللهُ لُهم النَّصرَ وشرَّدوا جموعَ الرُّوم.

* أمَّا بطلةُ النِّساء أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ، فلم تكن أَقلّ شجاعةً وبسالةً مِنْ جنود المسلمين الذين جندلوا آلاف المشركين، فانغمرت في الصُّفوف وأردتْ عدداً منْ رجال الشِّرك، ذكر هذا ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ فقال:

أمُّ سلمةَ الأنصارية هي أسماءُ بنتُ يزيد بن السَّكن، شهدتِ اليرموك، وقتلتْ يومئذٍ تسعةً مِنَ الرّوم بعمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً[2].

* وأورد الإمامُ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ أسماءَ بنتَ يزيد ـ رضي الله عنها ـ سكنتْ دمشق، وقَبْرُ أمِّ سلمةَ الذي بمقبرةِ بابِ الصَّغيرِ هو قَبْرُها إنْ شاء الله[3].

* وهذا الكلام معقول جداً، لأنَّ اليرموك في الشَّام، وعقب انتهاء معركة اليرموك، انتقلتْ أسماء إلى دمشق مع مَن انتقل مِنَ الصَّحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ.

* وذكر الذَّهبي أيضاً ما يتوافقُ مع هذا فقال: عاشت إلى دولةِ يزيد بن

---

(١) انظر البداية والنهاية (٧/ ١٣). ولمزيد من تفاصيل معركة اليرموك اقرأ تاريخ الطبري (٢/ ٣٣٥) وما بعدها طبعة دار الكتب العلمية.
(٢) الإصابة (٤/ ٢٢٩)، وانظر كذلك مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٦٠) حيث أورد هذا الخبر وقال عنه: رواه الطبراني ورجاله ثقات، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧).
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧).

معاوية. وقولُ الذهبي ـ رحمه الله ـ ينسجم مع قولِ ابن حجر بأنَّ أسماء عاشت دهراً بعد معركة اليرموك.

* * *

بشَارتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠].

* أسماءُ بنتُ يزيد الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ من فَصيلةِ أَهْلِ الإيمان الذين أَثْبت اللهُ رِضَاه عنهم، وإثبات رضاء الله عنهم دليلٌ على أنَّهم أهلٌ لهذا الرِّضا الذي يهدي إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات والأرض أُعدّت للمتقين.

* وأسماء ـ رضي الله عنها ـ جمعتْ مِنَ الفضائل والمكارم ما جعلها من النِّساء اللائي خصَّهن رسول الله ﷺ بالفَضْل، وشهد لهن بالجنَّة في أكثر من مقام، وذلك لسابقتهن في الإسلام، وصبرهن وجهادهن وإعلائهن كلمة الله.

وقد حظيتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ ببشارة رسول الله ﷺ بالجنة أكثر من مرة، ففي غزوة أحد ذكر رسول الله ﷺ أَنَّ شهداء بني عبد الأشهل ومنهم والد أسماء قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً، وقد شُفِّعوا في أهليهم[1].

* وفي الحُديبية كانت أسماءُ بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ مِنْ أصحاب الشَّجرة، ومَنْ حَضَر البيعةَ المباركة ـ بيعة الرضوان ـ وبايعت يومئذٍ، فنالت مع مجموعة المبايعين والمبايعات مرضاة الله، وحظيت ببشارة الرَّسول الكريم ﷺ بالجنَّةِ عندما قال: «لا يدخلُ النَّار أحدٌ ممَنْ بايعَ تحتَ الشَّجرة»[2].

---

(١) عن المغازي (١/٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل من بايع تحت الشجرة.

* وفي حديث آخرَ يشيرُ إلى أَنَّ الذينَ حضروا غزوة بدر وشهدوا الحديبية، لا يدخلون النَّار إنْ شاء الله تعالى، ويدلُّ على هذا ما رواه الإمام مسلم والتّرمذي عن سيِّدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: أن عبداً لحاطب[1] جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطباً فقال:

يا رسول الله، ليدخلن حاطب النَّار.

فقال: «كذبتَ لا يدخلها؛ فإنَّه شهدَ بدراً والحُديبية»[2].

* رضي الله عن أسماءَ بنت يزيد العاقلة المُحدِّثة، والمجاهدة المؤمنة، والخيِّرة الكريمة، ونضَّر الله قبرها وجزاها خيراً عمّا قدمت وعمّا فعلت.

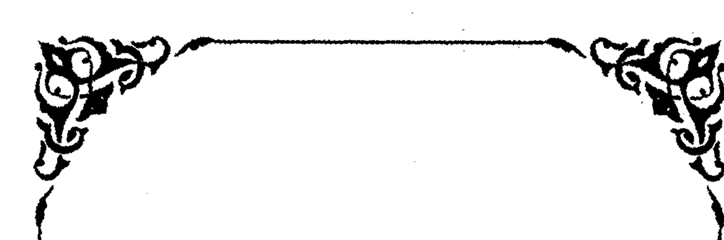
* ومع وداع سيرة أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ، نقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥].

* * *

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سيدنا حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ في كتابنا ـ رجال مبشرون بالجنة ـ جزء (٢) طبعة دار ابن كثير.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر. وأخرجه الترمذي في المناقب.



(١٩)

أمُّ هِشَام بنْتُ حَارِثَـةَ
رضي الله عنها

* «لا يدخلُ النّار أَحَدٌ ممَنْ بايعَ تحتَ الشَّجَرة».

حديث شريف

* قالت أم هشام ـ رضي الله عنها ـ:

«..... ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا مِنْ لسانِ رسول الله ﷺ....».







الأُسْـرةُ الحَـارثـيّـة:

* في بيتٍ يعبق بطيوب الإيمان، ويفيض بالكرم والبركات، ويتَّسِمُ بالصِّدق والعطاء والوفاء، نشأت أمُّ هشام بنت حارثةَ بن النُّعمان الأنصارية النَّجارية، إحدى نساء الإسلام الفاضلات.

* فأبوها سيّدنا حارثةُ بنُ النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ، واحدٌ مِنْ فضلاء الصَّحابة الأنصار الأطهار وسادتهم، ومن السَّابقين إلى الإسلام، وممَنْ قدَّمَ مساكنه لرسولِ الله ﷺ حتى قال عنه النَّبيُّ الكريمُ: «لقد استحييتُ من حارثةَ بنِ النُّعمان مما يتحوَّلُ لنا عن منازله»(١).

فقد كانت لحارثةَ ـ رضوان الله عليه ـ منازلُ قُربَ النَّبي الكريم في المدينة المنورة، وكان كلَّما أحدثَ رسولُ الله أهلاً تحوَّلَ له حارثة عن منزلٍ بعد منزل.

وذكر ياقوت الحموي كَرَمَ سيِّدنا حارثة، ووهْبِهِ منازله للنَّبي الكريم فقال: وكان أولُ مَنْ وَهَبَ له خططه ومنازله حارثةُ بن النُّعمان(٢).

* وسيّدنا لحارثةُ هذا واحدٌ ممَنْ حظوا بالبشارة بالجنَّةِ، فعن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت:

قال رسولُ الله ﷺ: دخلتُ الجنَّةَ فسمعتُ قراءةً فقلتُ: «مَنْ هذا»؟.

قيل: حارثة.

فقال النَّبي ﷺ: «كذاكُم البرّ» وكان برّاً بأمِّه ـ رضي الله عنه ـ(٣).

---

(١) انظر في هذا طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٨).

(٢) انظر معجم البلدان (٥/ ٨٦) مادة المدينة.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠)، والاستبصار ص (٦٠).

* وسيّدنا حارثةُ أيضاً مِنَ المئة الصَّابرة يوم حُنَين الذين تكفَّلَ اللهُ بأرزاقهم في الجنَّة[1].

* ولحارثةَ ـ رضوان الله عليه ـ منقبة عظيمةٌ، فقد رأى جبريل عليه السَّلام مرتين في حياته، وروى حارثة نفسه هذه المنقبة فقال:

رأيتُ جبريل من الدَّهر مرتين، يوم الصُّورين ـ موضع المدينة بالبقيع ـ حن خرج رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة، مَرَّ بنا في صورة دِحْيَةَ فأمرنا بلبس السِّلاح، ويوم موضع الجنائز حين رجعنا مِنْ حُنين، مررتُ وهو يكلِّمُ النَّبي ﷺ، فلم أُسلِّمْ فقال جبريل: مَنْ هذا يا محمّد؟.

قال: حارثةُ بن النُّعمان.

فقال: أَمَا إِنَّه مِنَ المئةِ الصَّابرة يوم حنين الذين تكفَّلَ الله بأرزاقهم في الجنَّةِ، ولو سلَّم لردَدْنا عليه[2].

* وهذا الصَّحابي الكريم يقول عنه الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: شهد بدراً والمشاهد، . . . وكان ديّناً خيّراً بَرّاً بأمِّهِ[3].

* أمَّا والدةُ أمِّ هشام فهي أمُّ خالد بنتُ خالد بن يعيش الأنصارية من بني مالك، أسلمتْ وبايعتِ النَّبي ﷺ، وكانت مِنْ فواضل النِّساء، تزوّجها حارثةُ بن النُّعمان النّجاري فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن، وسَوْدة وعمرة وأمّ هشام[4] بطلة ترجمتنا اليوم، كما كانت لحارثة ابنتان أخريان هما أمُّ كلثوم وأَمَةُ الله[5].

* كانت هذه الأسرة المباركة مسلمة كلها، وكانت أمُّ هشام وأخواتها مِنَ

---

(١) انظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٤).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٨ و٣٧٩).
(٣) اقرأ سيرة هذا الصحابي الجليل في كتابنا رجال مبشرون بالجنة جزء (٢) طبعة دار ابن كثير.
(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٢٤)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٤).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٧).

المبايعات، ذكر ابن سعد أَنَّ سودة وعمرة وأمَّ هشام وأمَّ كلثوم وأمةَ الله قد أسلمنَ وبايعنَ رسولَ الله ﷺ[١]، وكان لهذه الأسرة الحارثية الطيّبة شأنٌ عظيمٌ في صَدْر الإسلام.

* * *

الجـوَارُ المُبـارَكُ:

* في رحاب تلك الأسرة الكريمة، نشأت أمُّ هشام بنت حارثة، وفي ظلال الجوار المبارك عاشت أمُّ هشام، فكانت ترى النَّبيَّ الكريم دائماً، وترى أزواجه أمهاتِ المؤمنين، فقد كانوا جيراناً لأكرمِ جوار على الإطلاق، ألا وهو جوار رسول الله ﷺ.

وكان لهذا الجوار أثره الطيِّب في نفس الصَّحابية أمِّ هشام التي رأتْ نورَ النُّبوة عن كَثب، إذ تأثرت بأخلاق المصطفى ﷺ، وبأخلاق زوجاته الطَّاهرات، وكان يُرى البشْرُ والسُّرور في وجه أمِّ هشام، وخصوصاً عندما جعل بنو النّجار يتناوبون في حَمْلِ الطّعام إلى رسول الله ﷺ حين مقامه في منزل سيِّدنا أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قرابة تسعة أشهر[٢]، بل كانت تزداد سروراً حينما كانت ترى عواطف الإيثار والمؤانسة تملأُ المدينة المنورة، وتُرحِّبُ بالمهاجرين حيث حرص الأنصار على الحفاوة بالمهاجرين، وبذلوا كل ما بوسعهم في إكرامهم واحترامهم.

* في رحاب هذا الجوار المبارك كانتِ الأسرةُ الحارثيةُ سعيدةً بمشاركة رسول الله ﷺ في استخدام بعض المتاع، وتروي لنا هذه المشاركة ضيفتُنا الصَّحابية الجليلة أمّ هشام فتقول: كان رسول الله ﷺ معنا، وإن تنّورَنا[٣] وتنورَه واحدٌ سنة أو بعض سنة[٤].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٢٧٧).
(٣) «التنور»: الكانون يخبز فيه (عن القاموس المحيط).
(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٤٢)، والإصابة (٤/ ٤٨٠).

الحَـافِظَـةُ المُحدِّثَــةُ:

* كان النّبي الكريمُ ﷺ يقرأُ في الأعياد سورتَيْ «ق، والقمر» كما كان يقرأ سورة «ق» يوم الجمعة على المنبر، وقد ذُكر أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ بهذه السُّورةِ المباركةِ في المجامع الكبار كالعيد والجُمَع، وذلك لاشتمال هذه السُّورة على ابتداء الخلق، والبعث والنُّشور والمعاد والقيامة، والحساب والجنَّة والنَّار، والثَّواب والعقاب، والتَّرغيب والتَّرهيب، وغير ذلك من أمور الدِّين[1].

* ولهذا فقد كانت الصَّحابيةُ المباركة أمّ هشام بنت حارثة تحفظ هذه السُّورة لكثرةِ ما كان النَّبي الكريمُ ﷺ يقرؤها في كل جمعة، وحدّثتْ أمُّ هشام ـ رضي الله عنها ـ بهذا عن نفسها فقالت:

لقد كان تنّورُنا وتنّورُ رسولِ الله ﷺ واحداً سنتين ـ أو سنة وبعض سنة ـ، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا مِنْ لسانِ رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يقرأُ بها كل جمعة إذا خطبَ النَّاس[2].

* وبالإضافة إلى اهتمام أمِّ هشام بالقرآن وحفظها سُوَراً منه، كانت تهتمُّ بالحديثِ، فقد وعتْ وحفظتْ أحاديثَ رسول الله ﷺ، وروت عنه.

* روتْ عنها أختُها عمرة، ومحمّد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، ويحيى بن عبد الله، وحبيب بن عبد الرحمن بن يساف[3].

* وهكذا فقد جمعت أمُّ هشام حِفْظَ القرآن وروايةَ الحديث، وجمعت مع هذا فضيلة الجهاد، وما أدراك ما فضيلة الجهاد! وخاصة إذا كان بصحبة

---

(١) انظر تفسير القاسمي لمقدمة سورة ق.

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٦)، وانظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٦١٠)، والإصابة (٤/ ٤٨٠)، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً أبو داود والنسائي والإمام أحمد.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٨٢)، والإصابة (٤/ ٤٨٠).

رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه الذين رضي الله عنهم، وكانوا خير أهل الأرض آنذاك.

* * *

جهَادُها وفَوزُهَا بالرِّضْوَانِ:

* في شهر ذي القعدة من السَّنة السَّادسة للهجرة النّبوية أعلن النَّبي الكريم ﷺ في المسلمين أنَّه متوجِّهٌ إلى مكةَ معتمراً، فتبِعَه جَمْعٌ كبيرٌ مِنَ المهاجرين والأنصار بلغ عددُهم ألفاً وأربعمئة حسب ما روى سيِّدُنا جابر بن عبد الله.

وخرجتِ الصَّحابية المجاهدة أمّ هشام بنت حارثة مع جَمْعٍ مِنَ النِّساء لأداء العمرة بصحبة النَّبي الكريم، ولكنَّ قريشاً حينما علمت بمسير رسول الله ﷺ معتمراً، ركبتْ رأسها وأجمعت رأيها أَنْ تمنعَ المسلمين مِنْ أداء العمرة.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام قد أرسل سيّدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ إلى قريش ليكلِّمَهم في أَمْر هذه العمرة، فاحتبستْه قريش عندها مدةً، وبلغ النَّبي الكريم ﷺ إذْ ذاك أنَّ عثمان قد قُتِلَ، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»[1] فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، فكانت بيعة الرِّضوان تحت الشَّجرة.

وسارع الصَّحابةُ ـ رضوان الله عليهم ـ يبايعون رسول الله على الموت أو على ألا يفرّوا، وكانتِ الصَّحابية أمّ هشام قد بايعتْ مع مَنْ بايع، فربح البيعُ، ونال المسلمون المبايعون مرضاة الله، وقد أشار الله عزَّ وجلَّ إلى هذا في قوله: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].

---

(١) انظر عيون الأثر (٢/ ١٥٥).

(٢) سورة الفتح آية(١٨)، وانظر تفسير ابن كثير لسورة الفتح.

* ولم يطُل احتباس سيّدنا عثمانَ عند المشركين، وعاد سالماً إلى رسول الله ﷺ، وأرسلتْ قريش سهيلَ بن عمرو[1] ليعقد صلحاً مع رسول الله ﷺ، فكان صلح الحديبية.

* ونالتِ الصَّحابيةُ المجاهدة أمّ هشام الفوزَ العظيم في هذه البيعة، وكُتبت مع المجموعة السَّعيدة، وكُتِبَ لها شرفُ الجهاد مع المسلمين المبايعين بيعة الرّضوان؛ التي كانت مفتاح خير للمسلمين وفتحاً مبيناً لرسول الله ﷺ.

* * *

بشَـارتُها بالجَـنَّـةِ:

* قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

* أمّ هشام بنتُ حارثة ـ رضي الله عنها ـ واحدة من النِّساء ذوات الفضلِ اللاتي حظين بشرف الصُّحبة لرسول الله ﷺ، وقد تركت هذه الصَّحابيةُ الكريمة لمسَاتٍ مباركةً في تاريخ الإسلام، وفي واحدة مِنْ هذه اللمساتِ

---

(١) هو أبو يزيد سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري أحد سادات قريش وأشرافهم وخطيبهم، أسره المسلمون يوم بدر، وعليه انبرم الصلح يوم الحديبية، ثم أسلم يوم الفتح، كان كثير الصلاة والصوم والصدقة والعبادة وكان كثير البكاء رقيقاً عند قراءة القرآن، له أقوال نفيسة تدل على سعة عقله وحسن إيمانه. ولما توفي رسول الله ﷺ ارتجت مكة لما رأت من ارتداد العرب فقام سهيل بن عمرو خطيباً وقال من خطبة طويلة: يا معشر قريش لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليمتدن هذا الدين امتداد الشمس والقمر.
وخرج بأهله مجاهداً إلى الشام فاستشهد باليرموك سنة (١٨هـ)، وهو والد الصحابي أبي جندل ـ رضي الله عنهما ـ.
(عن تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٣٩ و٢٤٠ بتصرف).

نالت البشارة بالجنَّة مع مَنْ بايعَ بيعة الرِّضوان، ناهيك بأنَّها إحدى السَّابقات من النِّساء إلى اعتناق الإسلام والإيمانِ برسول الله ﷺ، والسَّكن بجواره في المدينة المنورة.

* وقد حظي «الشَّجريون» ببشارة نبي الله ﷺ بالجنَّة ومنهم أمُّ هشام بنت حارثة، ولنترك سيّدنا جابر بن عبد الله يروي لنا نبأ البشارة العطرة حيثُ روى عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا يدخل النّار أحدٌ ممَنْ بايعَ تحتَ السَّجرة»[1].

* وفي حديثٍ آخر يرويه سيّدنا جابر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل مَنْ بايع تحت الشَّجرة كلّهم الجنَّة، إلا صاحب الجمل الأحمر»[2]، وأخرجَ التّرمذي هذا الحديث بلفظ «ليدخُلنَّ الجنَّةَ مَنْ بايع تحت الشَّجرة إلا صاحب الجمل الأحمر»[3].

* وحدّث سيّدنا جابر ـ رضي الله عنه ـ بعد ما كفّ بصره فقال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض، وكنّا ألفاً وأربعمئة، ولو كنتُ أبصرُ اليوم لأريتكم مكانَ الشَّجرة».

* وظلتِ الصَّحابيةُ الكريمة أمُّ هشام تنعم بهذه البشارة العظيمة إلى أنْ لقيت ربَّها عز وجل.

* رضيَ الله عن أمِّ هشام وعن والدها سيِّدنا حارثة وعن الصَّحابة والصَّحابيات جميعاً، ونحن في وداع سيرةِ هذه الصَّحابية الشَّجرية[4] الحافظةَ الرَّاوية الكريمة نعطِّر الأسماعَ ونمتِّع الأفواه ونرطّبها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

---

(١) انظر الحديث في تفسير ابن كثير لسورة الفتح (٤/ ٢٠٢).

(٢) انظر جامع الأصول (١٠/ ١١٣)، والحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي؛ وصاحب الجمل الأحمر هو الجد بن قيس كان منافقاً يطلب جمله.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥/ ١٥٧).

(٤) يقال لمن حضر تحت الشجرة ببيعة الرضوان ـ شجري ـ فأكرم بهذه التسمية.





(٢٠)

أم المؤمنين
حَفصَةُ بِنْتُ عُمَرَ
رضي الله عنها

* «تَتَزَوّجُ حَفْصة مَنْ هُوَ خَيرٌ مِنْ عثمان، وَيَتزوَّجُ عُثْمانُ مَنْ هيَ خَيرٌ مِنْ حَفْصَةَ» . حديث شريف

* نزل جبريل عليه السلام على سيدنا رسول الله ﷺ وقال له عن حفصة:

«إِنَّهَا صَوامَةٌ قَوّامَةٌ وإِنَّهَا زَوْجَتُكَ في الجَنَّةِ».



السَّيِّـدةُ الكريـمَـةُ:

* السِّترُ الرَّفيعُ حَفْصَةُ أم المؤمنين بنتُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ضيفةُ هذه الصَفحات.

* كانت قريش تجددُ بناءَ الكعبة قَبْل مبعثِ النَّبي الكريم ﷺ بخمس سنين، وكانت هذه فاتحة خير لقريش إذ توحدتْ كلمتُها بفضْلِ رأي سيّدنا رسول الله ﷺ؛ حينما حسم الخلافَ بين المتنازعين على وضْعِ الحجر الأسود مكانه.

* في تلك الأيام السَّعيدة، وُلدتْ أمُّ المؤمنين حفصة بمكةَ، وقد جُمعَ لها الفضلُ من جميعِ نواحيه، وصاحبَتْها البركةُ منذ البداية.

* فأبوها غنيٌّ عنِ التَّعريف، يكفيه من الفضل الكبير أنَّه الوزير الثَّاني للنَّبي ﷺ، وأنَّه سراجُ أهل الجنة، ويكفيه مَنَ الطيب الفيّاض ما قالتْ عائشةُ ابنة الصِّديق فيه: إذا شئتم أنْ يطيبَ المجلسُ فعليكم بذكْرِ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

* وأمُّها زينبُ بنتُ مظعون بن حبيب، أخت الصَّحابي الجليل سيّدنا عثمان بن مظعون، أحد سادة المهاجرين، ومنْ أولياءِ الله المتقين، الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيِّهم فصلى عليهم، وهو أولُ مَنْ دُفِنَ بالبقيع.

* وأخوها عبدُ الله بن عمر، شَهِدَ له رسول الله ﷺ بالتُّقى والصَّلاح فقال: «نِعْمَ الرَّجلُ عبد الله لو كان يصلي مِنَ الليل». فكان بَعْدُ لا ينام مِنَ الليل إلا القليل، وهذه الشَّهادة رفعته إلى مَصَافِّ الأتقياء.

* وعمُّها زيدُ بنُ الخطاب، السَّيدُ الشَّهيدُ المجاهد التَّقي قال عنه سيدنا عمر: أَسْلَم قبلي واستشهد قبلي. وقال أيضاً: ما هبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجدُ ريح زيد.

* وعمتها فاطمةُ بنت الخطاب إحدى السَّابقات إلى ساحة الإيمان، مع زوجها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

* * *

النَّشْأةُ الطَّيبةُ:

* في هذه المجموعة الفريدة نشأتْ حفصةُ ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ ولما أشرقت مكةُ بنورِ الإسلام، انضم والدها إلى ركْبِ السَّابقين الأولين، وفاز بنور الإيمان، وتباشرتِ الملائكةُ بإسلامه الذي كان بركةً على الإسلام والمسلمين منذ اللحظات الأولى التي نطق فيها بالشَّهادتين.

* نشأت حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ على حبِّ المعرفة، ونهلتْ من عيون الأدب والعلم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى غدت إحدى فصيحات النِّساءِ في قريش، وتعلَّمتِ الكتابةَ من الشِّفاءِ بنت عبد الله القرشية العدوية.

ولما بلغت أشدها واكتملت أنوثتها تزوَّجها خُنَيسُ بنُ حذافة بن قيس القرشي السَّهمي ـ أخو سيدنا عبد الله بن حذافة ـ، وكان خُنيس ـ بالتَّصغير ـ رضي الله عنه أحد السَّابقين الأولين إلى ساحة الإيمان، إذ أسْلَمَ قبل دخولِ رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم[1]، وذلك على يدي سيِّدنا أبي بكر الصِّديق ـ رضوان الله عليه ـ.

* * *

المُهَاجِرَةُ الصَّابِرَةُ:

* لما اشتدَّ أذى قريش للمؤمنين، كان خُنيس ممَنْ توجَّه تلقاء الحبشة فهاجر إليها مع مَنْ هاجر، ثم عاد إلى مكةَ وهاجر إلى المدينة ومعه حفصة زوجه، ونزل على رفاعة بنِ عبد المنذر، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عَبْس بن جبر، فخُنَيس رضي الله عنه مِنْ أصحابِ الهجرتين.

* وحينما كانت غزوة بدر[2] العظمى شَهِدَها خُنيس، ولم يشهد من بني،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٣٩٢).

(٢) من الأخبار السارة المباركة التي تضاف إلى مكارم أم المؤمنين حفصة ـ رضي الله =

سَهْمٍ بدراً غيره، فكانَ مِنْ أبطالها المجاهدين الذين قاتلوا لتكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى وأصيب بالجراح في مواضعَ من جسده، لكنَّه ظلَّ يجالدُ إلى أَن انتهتِ المعركةُ بنَصْر المسلمين، ولما عاد المسلمون إلى المدينة المنورة مات خُنيس ـ رضي الله عنه ـ متأثراً بجراحه، وصلّى عليه رسول الله ﷺ ودفنه بالبقيعِ إلى جانب قبرِ عثمانَ بنِ مظعون ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* وترمّلَت حفصةُ بنت عمر وهي ما تزال في ريعان شبابها، وحزنت لوفاة زوجها حزناً شديداً ظهرت آثاره على قَسَمَات وجهها، لكنَّها تذرعت بالصَّبر والإيمان، وكان أبوها يزورها ويخففُ من آلامها وأحزانها، ويرعاها بحنانه ويحوطها بعطفه، وكأنَّه بإحساسه وفراسته وعبقريته يرى أَنَّ لابنتهِ هذه شأناً، وكان ذلك، ولله درُّ مَنْ قال فيه:

متيقـظُ العَـزمـاتِ مُـذْ نهضـتْ بـه
عـزمـاتُـه نحـو العُلـى لـم يَقْعُـدِ
ويكـادُ مِـنْ نـور البصيـرة أَنْ يـرى
فـي يـومـهِ فعْـلَ العـواقـبِ فـي غـدِ

* * *

مَعَ أَهْلِ الخَيْـرِ:

* كانت حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ مِنْ فاضلاتِ النِّساء العابدات الورعات، الصَّابرات القانتات اللائي ضربن أَعْلى الأمثلة في مجال العبادة، وكان أبوها يُسَرُّ لهذه الصِّفات الخيّرة التي تتحلى بها، غير أَنَّه كان يؤلمه حال ابنته القانتة التي ترملت وهي في ميعة الصِّبا.

= عنها ـ، أن سبعة من أهلها شهدوا بدراً، وأبلوا بلاءً حسناً وهم: أبوها عمر، وعمها زيد، وزوجها خنيس، وأخوالها عثمان وعبد الله وقدامة، والسائب بن عثمان ابن خالها.

* ونظر مِنْ حوله نظرةً فاحصةً، فإذا به يرى الظُّروف مواتيةً لسعادة حفصة، فها هو أَحَدُ أهلِ الخير، وأحد الأعلام السَّابقين إلى الإسلام ـ عثمان ـ أضحى وحيداً بعد وفاة زوجه رُقَية بنت النّبي ﷺ، فانطلقَ عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى عثمان مواسياً ومخففاً مِنْ مُصابه، وعرض عليه ابنته حفصة قائلاً: إنْ شئتَ أنكحتُكَ حفصةَ، فقال عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ: سأنظرُ في أمري.

* مكثَ عمر بضعة أيام ثم لقي عثمان، فأخبره أنَّه لن يتزوجَ هذه الأيام فتركه، ثم التقى أبا بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ فقال له: إنْ شئتَ زوجتُك حفصةَ، ولكنَّ الصِّديق لزمَ الصَّمْتَ ولم ينطقْ بكلمةٍ واحدةٍ، وترك عمر ومضى في طريقه، فتأثّر الفاروقُ مِنْ هَذين الموقفَيْنِ، وشعر بانكسار نفسه، فذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو حاله، وأدرك رسولُ الله ﷺ ما يعانيه عمر، فأجابه بجوابٍ شافٍ كان برداً وسلاماً عليه فقال له: «يتزوجُ حفصة مَنْ هو خير مِنْ عثمان، ويتزوج عثمان مَنْ هي خير مِنْ حفصةَ».

* تُرى مَنْ خير مِنْ عثمان ومَنْ خير مِنْ حفصةَ؟.

سؤالانِ يعتملانِ في ذهن عمر، بَيْدَ أَنَّ تساؤله لم يطُلْ، فخطب رسول الله ﷺ حفصة، وأصبحت إحدى أمهات المؤمنين، وزوَّجَ رسول الله ابنته أم كلثوم من عثمان ـ رضي الله عنه ـ[1]. وسَعِدَ عمر ـ رضي الله عنه ـ بهذا النَّسب الذي رفعه مكاناً علياً. قال سعيدُ بن المسيب ـ رحمه الله ـ عن هذا الزَّواج: فخار الله لهما جميعاً، كان رسول الله ﷺ لحفصةَ خيراً مِنْ عثمانَ، وكانت بنتُ رسول الله ﷺ لعثمانَ خيراً مِنْ حفصة[2].

* وعندما زوَّجَ سيّدنا عمر حفصة ـ رضوان الله عليهما ـ، لقيه سيدنا أبو بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقال له:

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٨٢)، والاستيعاب (٤/ ٢٦٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨) بتصرف.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٨٣).

«. . . لعلكَ وجَدت عليَّ ـ غضبتَ ـ حين عرضتَ عليَّ حفصة فلمْ أرجعْ إليكَ شيئاً؟.

قال عمر: نعم.

قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعني أَنْ أرجعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ، إلا أنّي كنتُ علمتُ أَنَّ رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكنْ لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[1].

* وتزوج رسولُ الله ﷺ حفصة سنة ثلاث من الهجرة قبل غزوة أحد، وأصدقها أربعمئة درهم، وكان ذلك أعظم إكرام ومنّةٍ وإحسانٍ لحفصةَ وأبيها ـ رضي الله عنها ـ.

* وأودُّ أَنْ أشيرَ إلى أَن تصرفَ سيدنا عمر في عَرْضِ ابنته على الأَكْفَاءِ مِنْ أهلِ الخير، كان مفتاح خيرٍ في هذا المضمار، وباب بركة وسنَّةٍ طيّبةٍ أيضاً، فمن بركات هذا الزَّواج أَنَّ الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ قد عقد في صحيحه فصلاً عنوانه: بابُ عَرْض الإنسان ابنته أو أخته على أَهْلِ الخير[2]. وما زالت هذه المحاسنُ تقرأ وتنشر، ويقتدي بها أهل الخير إلى ما شاء الله.

* * *

حَفْصَةُ وأُمَّهاتُ المؤمنينَ ـ رضي الله عنهن ـ:

* كانت حفصةُ أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ تحظى بمكانةٍ رائعةٍ بين زوجات النَّبي الطَّاهرات، قالت عنها أمُّ المؤمنين عائشة: هي التي كانت تُساميني مِنْ أزواجِ النَّبي ﷺ[3].

* كما حظيتْ أمُّنا حفصة بمكانةٍ لائقةٍ عند رسول الله ﷺ، فهي إحدى

---

(١) الحديث في صحيح البخاري (٧/ ١٨).
(٢) انظر صحيح البخاري (٧/ ١٧) كتاب النكاح.
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧).

زوجاته الخمس مِنْ قريش وهن: عائشةُ، حفصةُ، أمُّ حبيبة، أمُّ سلمة، وسَوْدَةُ بنتُ زمعة[1] ـ رضي الله عنهن جميعاً ـ.

* ثم إنَّ أمَّ المؤمنين حفصةَ مِنْ خيارِ النِّساء الصَّالحاتِ اللاتي يؤدين العبادات على أحسن وَجْهٍ، وقد عُرِفتْ رضوان الله عليها بكثرة الصِّيام والقيام، وهاتان الصِّفتان مِنْ أَنْصَع وأعْلى منازل العبادة، وقد حضَّ النَّبي الكريمُ ﷺ مَنْ أراد أَنْ يتزوجَ أَنْ يبحثَ عن تلك الصّفات فقال: «فاظفرْ بذاتِ الدِّين تربت يداك».

* ولهذا فقد كانت أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ ممَنْ شهد القاصي والدَّاني بفضلها في العبادة والصَّلاح.

أمَّا في مجال الحياة الزَّوجية فكانت تحرصُ على مرضاة رسول الله ﷺ، وتسابقُ عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في هذا المجال، فقد روت أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

كان رسولُ الله ﷺ مع أصحابه، فصنعتُ له طعاماً، وصنعتْ له حفصة ـ رضي الله عنها ـ طعاماً، فسبقتني حفصة فقلتُ للجارية: انطلقي فاكفئي[2] قصعتَها فأهوت أَنْ تضعها بين يدي النَّبي ﷺ فكفأتها، فانكفأتِ القصعةُ فانتشر الطعامُ فجمعها النَّبي ﷺ وما فيها مِنَ الطَّعام على الأرض فأكلوا، ثمَّ بعثَ بقصعتي فدفعها النَّبيُّ ﷺ إلى حفصةَ؛ فقال: «خذوا ظرفاً مكان ظرفكم وكلوا ما فيها»[3].

* * *

لا تُخْبري بذلكَ أَحَداً:

* عاشَ النَّبي الكريمُ ﷺ في بيتهِ مع أزواجه بشراً رسولاً، وكان معهن كما

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٥٩٣).

(٢) «اكفئي»: اقلبي قصعتها ليصب ما فيها.

(٣) انظر حياة الصحابة (٢/ ٥٣٦).

وصفته أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كانَ إذا خلا بنسائهِ ألين النَّاسِ وأكرم النَّاس ضحّاكاً بسَّاماً[١].

غير أنَّ حياةَ أزواجهِ الطَّاهرات رضي الله عنهن لم تَخْلُ مِنْ بعض المشاعر البشرية التي تعتريها الغيرة أو التَّنافس أو ما شابه ذلك، ولذا فقد كان النَّبي الحبيبُ ﷺ يعالج أموره بالتَّربية الإلهية في بيته مع زوجاته ومع أصحابه وأمَّتِه، ويأخذ بيَدِ الجميع إلى جَادةِ الصَّواب.

* ويبدو أنَّ أمَّنا حفصة ـ رضي الله عنها ـ قد أخذتِ الغيرةُ بقلبها، وذلك لما رأتِ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ يؤثرُ زينب بنت جحش أمّ المؤمنين بالجلوسِ عندها وقتاً طويلاً، أو يخلو بمارية أمِّ ولده إبراهيمَ، مما جَعلها تتعاون مع أمِّ المؤمنين عائشة لإقصاءِ هاتين المرأتين عن قلب رسول الله ﷺ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل آياتٍ مباركاتٍ فيها التعليمُ لهما ولأزواج النَّبي ﷺ، وفيها تأييدُ لرسولهِ الكريم، وكان درساً بليغاً حكيماً أَبْعَدَ الغيرةَ عن قلوبِ أمهات المؤمنين.

* فقد أخرج الإمامُ البخاري رحمه الله بسنده عن أمِّنا عائشةَ ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت:

كان رسولُ الله ﷺ يشرب عَسَلاً عند زينب بنت حجش، ويمكثُ عندها فتواطأتُ أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير[٢]، إنّي أجدُ منك ريح مغافير. قال: «لا ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً»[٣].

* ولم تستطعْ حفصة ـ رضي الله عنها ـ كتمانَ الخبر ولم تعمل بما

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير.
(٢) «المغافير»: صمغ حلو الطعم كريه الرائحة.
(٣) انظر صحيح البخاري (٦/ ١٩٤) تفسير سورة التحريم، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٧)، والدّر المنثور (٨/ ٢١٣).

أوصاها به رسول الله ﷺ، وأخبرت ـ صفيّتها ـ عائشة بالأمر ظناً منها أن لا حرج في ذلك.

* وأخرج ابنُ جرير وابن المنذر ـ رحمهما الله ـ عن سيّدنا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

قلتُ لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: مَن المرأتان اللتان تظاهرتا؟.

قال: عائشةُ وحفصة، وكان بدءُ الحديث في شأن مارية أمّ إبراهيم القبطية، أصابها النّبيُّ ﷺ في بيتِ حفصة في يومها، فوجدتْ حفصةُ فقالت: يا نبي الله لقد جئتَ إليّ شيئاً ما جئته إلى أَحَدٍ مِنْ أزواجك في يومي وفي داري وعلى فراشي، فقال: «ألا ترضَيْنَ أَنْ أحرِّمَها فلا أقربها»؟.

قالت: بلى، فحرّمها وقال: «لا تذكري ذلك لأحد».

فذكرته لعائشةَ ـ رضي الله عنها ـ فأظهره الله عليه[1].

ولما علم رسولُ الله ﷺ بما أفشته من سرٍّ غضبَ، واعتزلَ نساءه شهراً.

* * *

أَتُراجعينَ رَسُول الله؟!

* لم يكن سيّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ يتصور أن تراجعَ امرأةٌ زوجها في أَمْرٍ من الأمور مهما كان، فكيف بحفصة ابنته تراجعُ رسول الله ﷺ وتهجره إلى الليل؟!!.

هذا ما حصل فعلاً، وزاد من استغرابه أَنَّ حفصةَ أقرَّتْ بذلك في بساطة.

روى هذا سيّدنا عبدُ الله بن عبّاس عن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:

كنّا معشرَ قريش نغلبُ النِّساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوماً، فإذا

(١) الدر المنثور (٨/ ٢١٤).

هيِ تراجعني فأنكرتُ أَنْ تراجعني، فقالتْ: ما تنكر مِنْ ذلك؟ فو الله إنَّ أزواجَ النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل!.

قال: فانطلقتُ فدخلتُ على حفصةَ فقلتُ: أتراجعينَ رسول الله ﷺ؟.

قالت: نعم.

قلت: وتهجرُهُ إحداكن اليوم إلى الليل؟.

قالت: نعم.

قلت: قد خابَ مَنْ فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمنُ إحداكن أَنْ يغضبَ اللهُ عليها لغَضَبِ رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ، وتسأليه شيئاً وسليني ما بدا لَكِ، ولا يغرنَّك إنْ كانت جارتك أوسم ـ أجمل ـ وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، يريدُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

وهكذا كان سيدنا عمر نِعْمَ الأب النّاصح لابنته.

* * *

لولا أَنـا لَطـلَّـقَـكِ:

* كان لعمر ـ رضي الله عنه ـ جارٌ مِنَ الأنصار، فجاء وأخبره أَنَّ رسول الله ﷺ اعتزلَ نساءه، فقال عمر: قد خابتْ حفصة وخسرت، قد كنتُ أظنُّ هذا كائناً، ثم قال: رغم أنف حفصة وعائشة، وذهبَ إلى عائشة رضي الله عنها ـ وذلك قبل أَنْ يُضْرب الحجاب ـ فذكّرها وحذّرها، ثم انطلق إلى ابنته حفصة فوبّخها وعنّفها وقال لها: والله لقد علمت أَنَّ رسولَ الله ﷺ لا يحبُّك ولولا أنا لطلقكِ. فتركها وهي تبكي بكاءً شديداً، ثم قَصَدَ إلى رسولِ الله ﷺ وهو معتزلٌ في مَشْربةٍ ـ غرفة ـ يُصْعَدُ إليها بدرج، وعلى الباب غلامٌ يُدعى رباح فقال: يا رباح استأذن لي على رسول الله ﷺ، وألحَّ عمرُ بالإذن مراراً، ولم يأتِ رباح بجواب، فرفع عمر صوته وقال: استأذن لي على رسول الله، فإنّي أظنُّ أَنَّ رسولَ الله ﷺ ظنَّ أنّي جئتُ مِنْ أجْلِ حفصةَ، والله لئن أمرني

رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها. فأشار إليه رباح وقال: ادخل فقد أذَنَ لكَ.

ودخل عمرُ على رسول الله ﷺ، وما زال يلاطفه حتى تبسَّمَ، ثمَّ سأله: أطلقتَ يا رسول الله نساءَك؟. فقال ﷺ: «لا».

فقال عمر: الله أكبر. ثم ذكر له الحديث الذي دار بينه وبين حفصة فتبسَّم ثانيةً ﷺ، ولما رأى عمر ـ رضي الله عنه ـ سرورَ النَّبي الكريم ﷺ طلب الإذن بالجلوس وقال: أستأنسُ يا رسول الله.

قال: «نعم».

وجلسَ عمر، وجال ببصره في المشربة، فألفى رسول الله ﷺ على حصيرٍ، وتحت رأسه وسادة مَنْ أدم حشوها ليف، وعنده جِلْدٌ معلقة عند رأسه، وقد أثَّر الحصيرُ في جنبه فبكى.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك»؟.

فقال: يا رسول الله، إنَّ كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله!.

فقال: «أما ترضى أَنْ تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخرة»[1]؟.

وفي رواية أخرى أنَّه ﷺ قال: «أَوَ في شكٍ أنتَ يا بن الخطاب؟ أولئك قومٌ قد عُجلتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا»[2].

* وكان النَّبي ﷺ قد أقسم ألا يدخل على نسائه شهراً فعاتبه الله في ذلك، وأنزلَ مخوِّفاً ومحذراً نساءه قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٩٦)، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٩١).

(٢) انظر الدر المنثور (٨/ ٢٢١)، وحياة الصحابة (٢/ ٦٨٣).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ١ ـ ٥].

فكفَّر رسولُ الله ﷺ عن يمينه، وتابَ نساؤُه إلى الله ورسوله[١].

* وعادت حياةُ الصَّفاءِ والاستقرار إلى حفصةَ وزوجاتِ النَّبي ـ رضي الله عنهن ـ، وظلتْ حفصةُ في بيت رسولِ الله ﷺ لم تفعلْ ما يغضبُ الله ورسوله، إلى أَنْ انتقلَ الحبيبُ المصطفى إلى الرّفيق الأعلى راضياً عنها وعن زوجاته الطّاهرات ـ عليهن رضوان الله ـ.

* * *

رَحْمَـة لعُمَر:

* رأينا كيف كان موقفُ سيّدنا عمر مِن ابنته حفصة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، ففي موقفه الطّيب ذاك ارتقى منزلةً عاليةً في الطّاعة ومحبّة رسول الله ﷺ، فنال رحمة الله تعالى، فقد أوردتِ المصادرُ قصةً تشير إلى ذلك فقالت:

طلّقَ رسولُ الله ﷺ حفصة، فبلغَ ذلك عمر، فحثا على رأسه التّراب وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته، فنزل جبريلُ مِنَ الغد وقال للنّبي ﷺ: إنَّ الله يأمرك أَنْ تراجعَ حفصةَ رحمةً لعمر[٢] ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

---

(١) انظر تفسير الآيات من سورة التحريم في تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي والدر المنثور، وتفسير القاسمي، وانظر كذلك صحيح البخاري ومسلم في كتاب التفسير.

(٢) انظر مثلاً: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٩)، والاستيعاب (٤/ ٢٦١)، والإصابة (٤/ ٢٦٥) وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٤٥).

حفْـصَـةُ وعُمَـرُ ـ رضي الله عنهما ـ:

* بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، لزمتْ أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ بيتها، وأضحتْ إحدى مراجع العلم والفقه، وكانت مكان إكبار وإجلال في عهد الخليفة الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ.

* ولما تولى سيدُنا عمر الخلافة ظلَّتْ أمُّنا حفصة متمسكةً بما عاهدتِ الله عليه، ولم تفكر يوماً بأنَّها ابنة أمير المؤمنين.

وكان لسيّدنا عمر وحفصة ـ عليهما سحائب الرضوان ـ مواقف عظيمة تدلُّ على زهدهما، وعلى إعراضهما عن الدنيا إعراضاً كاملاً، كما تشيرُ إلى صفاء نَفْسٍ كل واحد منهما، وتعلقها بمرضاة الله سبحانه وتعالى واتباع هَدْي النَّبي الحبيبِ ﷺ، مِنْ ذلك ما ذكر أنَّه دخل على حفصةَ ـ رضي الله عنها ـ فقدمت إليه مرقاً بارداً وخبزاً، وصبّتْ في المرق زيتاً فقال: أُدْمان في إناءٍ واحدٍ! لا أذوقُه حتى ألقى الله[1].

* ولا يذهبن بك الظّن ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ أمَّنا حفصة ـ رضي الله عنها ـ لا تعرفُ حقيقة الزُّهد، بل فعلتْ ذلك لتكرمَ والدها ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ.

* وكانت أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ ترى والدها وما هو عليه مِن شدة العيش، فقالت له يوماً: يا أمير المؤمنين لو لبستَ ثوباً ألين مِنْ ثوبك هذا، وأكلتَ طعاماً ألين من طعامك، فإنَّ اللهَ سبحانه قد وسَّعَ عليك مِنَ الرزق وأكثر مِنَ الخير.

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: سأخاصمُك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش؟ وما زال يذكرها حتى أبكاها، ثم قال: إنّي والله لئن استطعتُ لأشاركنَّهما في عيشهما الشَّديد لعلّي ألقى معهما

---

(١) انظر حياة الصحابة (٢/ ٢٨٢).

عيشهما الرّخي[1]، يعني رسول الله وأبا بكر.

* * *

عِلْمُهَا وفِقْهُهَا:

* عُرفتْ أمُّنا حفصة ـ رضي الله عنها ـ بالعلم والفقه والتَّقوى، وهذه الصِّفات أحلتها محلاً كريماً لدى رسول الله الكريم ﷺ، وظلتْ تحتفظُ بالمكانة نفسها في عهد الخلافة الرَّاشدة وخصوصاً في خلافةِ والدها، فكثيراً ما كان يركن إلى آرائها وأحكامها الفقهية، مِنْ ذلك سؤاله إياها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت ـ رضي الله عنها ـ: ستة أو أربعة أشهر[2].

* وكانت أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ مرجعاً لكثير من الصَّحابة في مجال الحديث النَّبوي الشَّريف والعبادة، وقد كان أخوها عبد الله بن عمر المؤتسي برسول الله ﷺ يتلقى عنها ما رأته في بيت رسول الله ﷺ، أضف إلى ذلك أنَّ سيدَنا أبا بكر الصديق قد اختار أمّ المؤمنين حفصةَ من بين زوجات النَّبي ﷺ لتكون حافظة القرآن الذي جمعه، ولعل اختيار سيدنا أبي بكر لها لتلك الصفات التي اجتمعت فيها من التُّقى والعلم والصَّوم؛ ناهيك أنَّها كانت تتقنُ القراءة في عهدها، فقد كان قليلٌ من الرِّجال مَنْ يعرف القراءة والكتابة فكيف بالنِّساء؟ لذا فقد كانت أمُّ المؤمنين حفصة التلميذةَ النَّبويةَ النجيبةَ التي نقلت كثيراً منَ الأحكام النبوية إلى النَّاس.

* * *

حَارسَةُ القُرآن:

* لأمِّنا حفصةَ ـ رضي الله عنها ـ أمانةٌ في عُنُق كلّ مسلم إلى يوم الدِّين، فكلَّما قرأنا آيةً من القرآن تذكّرنا فضلها بحفظه في بيتها، كما أننا لا ننسى

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٧) بتصرف يسير جداً.
(٢) انظر حياة الصحابة (١/ ٤٧٦)، والدر المنثور (١/ ٦٥٢).

فَضْل أبيها عمر الذي أشار على أبي بكر الصِّديق بجمعه عندما كثُر استشهادُ القرّاءِ وحَفَظَةِ القرآن في حروب الرِّدةِ، ووافقَ الصّديقُ ـ رضي الله عنه ـ، وأوعز إلى زيد بن ثابت الأنصاري أحد كُتَّاب النَّبي ﷺ وقال له: إنَّكَ رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتهمُك، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله ﷺ، فتتبَّعِ القرآنَ فاجمعه[1].

* وشرحَ اللهُ سبحانه صَدْرَ زيدٍ فقام بهذا العمل الجبار قال زيد ـ رضي الله عنه ـ: لما أمرني أبو بكر فجمعتُ القرآن كتبتُه في قطعِ الأدَمِ وكسر الأكتافِ والعسب، فلما هلك أبو بكر رضي الله عنه كان عمر، كَتبتُ ذلك في صحيفةٍ واحدةٍ فكانت عنده[2].

ثم إنَّ سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عهد بهذه الأمانة العظيمة إلى أمِّ المؤمنين حفصة لتصونَها وتحفظها، وظلت عندها إلى أَنْ شرَع سيِّدُنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في كتابة المصحف؛ وذلك لاختلافِ وجوه القراءات بين أهل العراق والشَّام، وقَدِمَ سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان لما رأى الاختلاف بذلك، وأفضى إلى سيِّدنا عثمان بخبر الخلاف، فسارع إلى كتابة المصحف، وبعث إلى أمِّنا حفصة أَنْ أرسلي بالصُّحف التي جُمِعَ فيها القرآن ننسخها في المصاحف ثم نردها عليك، فأرسلتْ بها إلى عثمانَ، ودعا زيد بن ثابت، وعززه بثلاثةٍ من فصحاء قريش وهم: عبدُ الله بنُ الزبير، وسعيدُ بنُ العاص، وعبدُ الرحمن بنُ الحارث بن هشام، وأمرهم أَنْ ينسخوها في المصاحف.

ولما كُتبتِ المصاحف بعث إلى كل أُفْقٍ بمصحف، ثمَّ ردَّ الصحيفة إلى حارسةِ القرآن أمِّ المؤمنين حفصةَ ـ رضي الله عنها ـ، فكان لها السّبق والثّناء في هذا العمل المبارك، وبقي المصحفُ محفوظاً ما بقي الدهر، حتى يأتي أَمْرُ الله لا تجري عليه زيادة ولا نقصان كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ١٤٩).

(٢) الحلية (٢/ ٥١)، والإتقان للسيوطي (١/ ١٨٦)، طبعة دار ابن كثير.

﴿ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

* أمّا عن مصحفِ أمِّنا حفصة ـ رضي الله عنها ـ، فكانت أوصت به إلى أخيها عبد الله بن عمر العالم التّقي، الصَّفي النَّقي، فلما ماتت حفصةُ أرسلَ عبد الله بالصحيفة بعُزْمَةٍ[١] فأعطاهم إياها فغسلت غسلاً[٢].

* * *

راويَـةُ الحَـديـثِ:

* أضافت أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنه ـ إلى تعلُّمِها لكتاب الله تعالى وحفظه روايتها لحديثِ رسول الله ﷺ ووعيها له، وكان النَّاس مِنَ الصَّحابة والتَّابعين يحرصون على سماع ما عندها من حديثِ النَّبي الكريم ﷺ، روت عن رسول الله ﷺ ستينَ حديثاً، اتفق لها الشَّيخان على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث[٣].

*وممَّنْ روى عنها فأطابَ وأجاد أخوها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت أبي عبيد، وأم مبشّر الأنصارية، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وآخرون[٤].

* ومن مروياتها ما رواه عبدُ الله بن عمر عن أخته حفصة أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا سكتَ المؤذنُ مِنَ الآذان لصلاة الصُّبح صلى ركعتين خفيفتين قبل أَنْ تُقام الصَّلاة[٥].

* * *

---

(١) «العُزْمَة»: بالضم: أسرة الرجل وقبيلته. انظر: مادة عزم في القاموس المحيط والمعجم الوسيط.
(٢) الحلية (٢/ ٥١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٠)، والمجتبى لابن الجوزي ص (٩٣).
(٤) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤١٠).
(٥) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٤٥).

الصَّوَّامَـةُ القَوَّامَـةُ:

* ذكر ابن حجر ـ رحمه الله ـ صوم أمِّنا حفصة ـ رضي الله عنها ـ فقال: ماتتْ حفصةُ حتى ما تفطر[1].

* وافتتح أبو نعيم الأصبهاني ترجمتها بقوله: الصَّوامةُ القَوامةُ، المزريةُ بنفسها اللوامة، حفصة بنت عمر بن الخطاب، وراثة الصحيفة الجامعة للكتاب ـ رضي الله تعالى عنها ـ[2].

* «الصّوامةُ القوامةُ» هذا اللقب المبارك فازتْ به أمُّ المؤمنين حفصة منَ السَّماء، والصِّيام والقيام والقنوت من أعلى مراتب العبادة التي يحافظُ عليها الإنسان في هذه الحياة، فالعبادة تبني النَّفسَ وتصلحُ القلب وتجعل المرء على صلةٍ دائمةٍ بالله عزَّ وجلَّ، فهنيئاً لِمَنْ تحلّى بهذه الصِّفات، وهذا ما انصرفتْ إليه أمُّ المؤمنينَ حفصة ـ رضي الله عنها ـ لتنال الدَّرجةَ العاليةَ عند الله وتفوز الفوز العظيم.

* كانت أمُّنا حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ قد تعلَّمتْ مِنْ رسول الله ﷺ الخيرَ كلَّه خلال حياته، ونشأت في مدرسته حتى أصبحت عابدةً عالمةً، تقيّةً ورعةً، زاهدةً مؤتسية به ﷺ، ولذلك نزلت شهادةُ صلاحها وتقاها مختومة برحيق الإيمان مِنْ جبريل عليه السَّلام عندما قال: إنَّها صوامةٌ قوامةٌ[3].

* ولا نبالغُ إذا قلنا: إنَّ حياةَ أمّنا حفصةَ ـ رضوان الله عليها ـ في دقائقها وفي تفصيلاتها تطبيقٌ عمليٌّ لما كانت عليه حياة النَّبي الكريم ﷺ، وزاد منْ فَضْلِ حفصةَ معرفتها القراءة والكتابة مما جعلها حافظةَ القرآنِ وحارستَه.

وقد عَرفَ الصَّحابةُ الكرام والتَّابعون الأخيار فضائلها في هذا المضمار،

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٦٥).
(٢) الحلية (٢/ ٥٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨).

وشهدوا بها للبشرية والتَّاريخِ وكلّ مَنْ يودُّ معرفة الحقِّ أينما كان. ويكفيها مِنَ الفضلِ ما قالته أمّنا عائشة فيها: إنَّها ابنةُ أبيها. وفي هذا القول تنبيهٌ على فضلِها ومكانتها رضي الله عنها وعن أبيها.

* * *

الأَديبــةُ الفَصيْـحَــةُ:

* أُثِرَ عن حفصةَ ـ رضي الله عنها ـ تعاهدها القرآن، فقد جعلته شغلها الشَّاغل آناء الليل وأطراف النهار، ثم رفدتْه بأدب النّبوة، ومن هذين المنبعَيْنِ المباركين استقتْ أدبَها وفصاحَتها وعِلمَها، فقد كانت ذات بلاغة تشيرُ إلى تمكّنها من الكلام، اسمعْ من جميل كلامها ما قالته عندما طُعِنَ سيدنا عمر بخنجر الغدر والكيد والخيانة:

يا أبتاه ما يحزنكَ وفادتكَ على ربّ رحيمٍ ولا تَبِعة لأحد عندك، ومعي لكَ بشارة لا أذيع السِّرَّ مرتين، ونِعْمَ الشفيعُ لك العدل، لم تخف على الله عزَّ وجلّ خشنَةُ عيشتِكَ، وعفافُ نهمتِكَ، وأخذُك بأكظام المشركين والمفسدين[1].

* * *

الـوَدَاعُ الأَخِـيْـرُ:

* في سنةِ خمس وأربعينَ مِنَ الهجرة النَّبوية، شعرت أمُّ المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ بقربِ اللقاء مع الله عزَّ وجلَّ ومع الأحبة، ولم تمضِ بضعة أيام من شهر شعبانَ من تلك السَّنةِ حتى لحقت بالرفيقِ الأعلى[2].

وطار الخبر في أرجاء المدينة أَنْ توفيتْ حارسة القرآن زوج النَّبي ﷺ، وأقبل الصَّحابة الكرامُ لتشييع جنازتها وفي مقدمتهم سيدنا أبو هريرة

---

(١) انظر بقية هذه القطعة الأدبية في أعلام النساء (١/ ٢٧٥) وما بعدها.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٠)، والطبقات (٨/ ٨٦).

وأبو سعيد الخُدري ـ رضي الله عنهما ـ، وصلى عليها والي المدينة آنذاك مروان بن الحكم، ودُفنتْ في البقيع، ونزل في قبرها أخواها عبدُ الله وعاصم، وسالم وعبد الله وحمزة بنو أخيها عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

وكان عمرها عندما توفيت ثلاثاً وستين سنة ـ رضي الله عنها ـ، وكانت قد أوصت إلى أخيها عبد الله بمالٍ وصدقةٍ.

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ سيِّدَنا عمر بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد أوصى بعد موته إلى حفصة بصدقةٍ ومالٍ، وأوصت حفصة لأخيها بما أوصى به إليها عمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ[1].

* * *

بشارتها بالجنة:

* قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ـ٣٢].

* أمُّ المؤمنينَ حفصة ـ رضي الله عنها ـ ممَنْ سبقتْ لها الحسنى، وهي واحدةٌ مَنَ النِّساءِ اللاتي عرفن معاني العبادة الحقيقة، فكانت موصولة القلب بِالله دائماً، كثيرة الذكر له سبحانه وتعالى، فاستقرتْ أسبابُ الرِّضا في نفسها، وعزفتْ عن حُطامِ الدُّنيا لعِلْمِها بأنَّ السَّعادة في الدارين إنّما هي لأهلِ الإيمان، وخاصة أهل الطّاعة والاستقامة؛ فاللهُ معهم في هذه الحياة يحييهم حياةً طيّبةً مباركةً تفوحُ منها نسائم الخشوع والرّغبة والرّهبة، وفي الآخرة يقابلُهم بالحفاوةِ والغفران والإنعـام في دار النّعيم، وثمرة ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٢٦١).

* وقد اجتمعتْ في أمِّ المؤمنينَ حفصة ـ رضي الله عنها ـ صفاتٌ جعلتها من أهل الجنَّةِ، فنالتِ البشارة بها، فقد ورد أنَّ النبي الكريمَ ﷺ طلَّق حفصةَ تطليقةً ثمَّ راجعَها بأَمْر جبريلَ عليه السَّلام بذلك، وقال: «راجعْ حفصةَ فإنَّها صوامةٌ قوّامةٌ، وإنَّها زوجتك في الجنَّةِ»[1].

* وقد ثبت أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أزواجي في الدنيا هنَّ أزواجي في الآخرة»[2]. وهذا الحديث الشَّريف يشيرُ إلى أنَّ زوجاتِ النَّبي الطَّاهرات معه في الجنَّة إنْ شَاءَ الله.

* رضي الله عن أمِّ المؤمنين حفصة التي أرادتِ الله ورسوله والدَّارَ الآخرة، فأعدَّ لها الأجْرَ العظيم، وأنزلها المقامَ الأمين، وكتبها في أصحاب اليمين.

* وقبل أَنْ نودِّعَ سيرةَ أمِّنا العطرةَ نقرأُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٥)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، والاستيعاب (٤/ ٢٦١)، والإصابة (٤/ ٢٦٥)، والحلية (٢/ ٥٠). وطبقات ابن سعد (٨/ ٨٤)، وغيرها من المصادر.

(٢) انظر تفسير الماوردي (٣/ ٣٠٥).

قائمة بأهم المراجع في هذا البحث[1]

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ تفسير الماوردي.
٣ ـ تفسير القرطبي.
٤ ـ تفسير ابن كثير.
٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي.
٦ ـ تفسير القاسمي.
٧ ـ أسباب النزول، للواحدي.
٨ ـ أسباب النزول، عبد الفتاح القاضي.
٩ ـ صحيح البخاري.
١٠ ـ صحيح مسلم.
١١ ـ جامع الأصول، لابن الأثير.
١٢ ـ الموطأ، الإمام مالك.
١٣ ـ سنن أبي داود.
١٤ ـ فضائل الصحابة، الإمام أحمد.
١٥ ـ مجمع الزوائد، الهيثمي.
١٦ ـ تهذيب الأسماء واللغات، النووي.
١٧ ـ تهذيب التهذيب، ابن حجر.
١٨ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي.
١٩ ـ أسد الغابة، ابن الأثير.

---

(١) ملاحظة: هناك مراجع وردت في الحواشي، واكتفينا هنا بذكر أهمها.

٢٠ ـ الإصابة، ابن حجر.
٢١ ـ الاستيعاب، ابن عبد البر.
٢٢ ـ الاستبصار، ابن قدامة المقدسي.
٢٣ ـ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني.
٢٤ ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد.
٢٥ ـ صفة الصفوة، ابن الجوزي.
٢٦ ـ المجتبى من المجتنى، ابن الجوزي.
٢٧ ـ أعلام النساء، عمر رضا كحالة.
٢٨ ـ الرياض النضرة، المحب الطبري.
٢٩ ـ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي.
٣٠ ـ منح المدح، ابن سيد الناس.
٣١ ـ الأعلام، الزركلي.
٣٢ ـ وفيات الأعيان، ابن خلكان.
٣٣ ـ رجال مبشرون بالجنة، أحمد خليل جمعة.
٣٤ ـ الأوائل، العسكري.
٣٥ ـ تاريخ الإسلام، الذهبي.
٣٦ ـ تاريخ الأمم والملوك، الطبري.
٣٧ ـ البداية والنهاية، ابن كثير.
٣٨ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
٣٩ ـ العبر، الذهبي.
٤٠ ـ النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي.
٤١ ـ وفاء الوفا، السمهودي.
٤٢ ـ شفاء الغرام، الفاسي.
٤٣ ـ السيرة النبوية، ابن هشام.
٤٤ ـ عيون الأثر، ابن سيد الناس.
٤٥ ـ السيرة الحلبية، ابن برهان الحلبي.
٤٦ ـ الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير.

٤٧ ـ جوامع السيرة النبوية، ابن حزم.
٤٨ ـ الروض الأنف، السهيلي.
٤٩ ـ دلائل النبوة، الأصبهاني.
٥٠ ـ دلائل النبوة، البيهقي.
٥١ ـ فقه السيرة، البوطي.
٥٢ ـ حجة الله على العالمين، النبهاني.
٥٣ ـ حياة الصحابة، الكاندهلوي.
٥٤ ـ فتوح البلدان، البلاذري.
٥٥ ـ السير والمغازي، ابن إسحاق.
٥٦ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر.
٥٧ ـ المغازي النبوية، الزهري.
٥٨ ـ المغازي، الواقدي.
٥٩ ـ أنساب الأشراف، البلاذري.
٦٠ ـ المعارف، ابن قتيبة.
٦١ ـ المحاسن المجتمعة، الصفوري.
٦٢ ـ المنمق في أخبار قريش، ابن حبيب.
٦٣ ـ نسب قريش، مصعب الزبيري.
٦٤ ـ الاشتقاق، ابن دريد.
٦٥ ـ الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، الخطيب البغدادي.
٦٦ ـ معجم البلدان، الحموي.
٦٧ ـ القاموس المحيط، الفيروزابادي.
٦٨ ـ تاج العروس، الزبيدي.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهـــداء	٥
مقدمة بقلم الأستاذ منذر شعار	٦
مقدمة المؤلف	٧
١ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد	١٢
الطاهرة المباركة	١٣
الطاهرة والمكانة العليا	١٤
الطاهرة الخيرة	١٥
الطاهرة والزواج المبارك	١٥
الطاهرة الودود الولود	١٨
الطاهرة ومطلع الفجر	١٩
الطاهرة العاقلة	٢٠
الطاهرة الصديقة الأولى	٢١
الطاهرة وبيتها المبارك	٢٢
الطاهرة البرة الوصولة	٢٣
الطاهرة العابدة	٢٣
الطاهرة الصابرة	٢٥
وداعاً أمنا الطاهرة	٢٦
الطاهرة أم العيال	٢٨

الثناء على الطاهرة ٢٩
الوفاء للطاهرة ٣٠
أوليات للطاهرة ٣١
الطاهرة خديجة والصديقة عائشة ٣٣
الطاهرة وبشارتها بالجنة ٣٤
٢ ـ فاطمة بنت أسد ٣٨
تعريف وتقديم ٣٩
رعايتها للنبي ﷺ ٤٠
إسلامها ٤٢
مكانتها ومناقبها ٤٣
وفاتها وكرامتها ٤٥
بشارتها بالجنة ٤٧
٣ ـ أم حرام بنت ملحان ٥٠
السابقة السابقة ٥١
الشجرة الطيبة ٥١
المكانة العليا ٥٣
جبها للجهاد ٥٤
من مناقبها ٥٤
بشارتها بالجنة ٥٥
من كراماتها بعد موتها ٥٧
٤ ـ أم عمارة نسيبة بنت كعب ٦٠
المجدة المجتهدة ٦١
وامرأتان ٦٢
البيعة المباركة ٦٣
أسرتها ٦٤
مشاهدها ٦٤

مواقفها وبطولاتها يوم أحد ٦٥
أم عمارة قرب الرسول ﷺ ٦٥
استقدت يا أم عمارة ٦٦
أم عمارة تصد هجوماً ٦٨
أم عمارة ونساء قريش ٦٩
بعد غزوة أحد ٧٠
رحلة الجهاد ٧١
أم عمارة وبيعة الرضوان ٧٢
في غزوة خيبر ٧٣
أم عمارة في عمرة القضية ٧٣
من بطولاتها يوم حنين ٧٤
الصابرة أم الشهيد ٧٥
بطلة اليمامة ٧٧
مع الصديق والفاروق ٧٨
أم عمارة والقرآن الكريم ٧٩
أم عمارة والحديث النبوي ٧٩
بشارتها بالجنة ٨٠
٥ ـ أم رومان بنت عامر ٨٢
أم الفضائل ٨٣
حياتها في الجاهلية ٨٤
أم رومان من السابقات ٨٤
المؤمنة التقية والأم المثالية ٨٥
الحماة الكريمة ٨٦
أم رومان وأحداث الهجرة ٨٦
أم رومان والمحنة الكبرى ٨٧
البراءة العظمى والفرحة الكبرى ٨٩
كرامة للأسرة البكرية الطاهرة ٩٠

الخيرة الدينة ٩١
ودعاً أم الصديقة ٩٢
بشارتها بالجنة ٩٣
٦ ـ أم أيمن بركة بنت ثعلبة ٩٥
يا أمه ٩٦
الحاضنة الطيبة ٩٧
إنك لمبارك ٩٨
عتقها وزواجها ٩٩
الهجرة المباركة ١٠٠
صور من جهادها ١٠١
دورها في غزوة أحد ١٠٢
موقفها في خيبر ١٠٢
الصابرة في مؤتة وحنين ١٠٣
مكانتها عند النبي ﷺ ١٠٤
النبي الكريم باسماً ١٠٧
النبي الكريم معلماً ١٠٧
أم أيمن والصديقة عائشة ١٠٨
أم أيمن وبنات النبي ١٠٩
فراق الحبيب ١١٠
منزلتها ١١٢
بشارتها بالجنة ١١٤
٧ ـ الربيع بنت معوذ ١١٦
البداية الخيرة ١١٧
الشجرة الطيبة ١١٧
من مناقبها ١١٩
هدية وإكرام ١٢٠
علمها وفقهها ١٢١

لو رأيته ١٢٢
مشاركتها في الجهاد ١٢٢
أنا ابنة قاتل عبده ١٢٣
لك كل شيء ١٢٤
الراوية المحدثة ١٢٥
بشارتها بالجنة ١٢٦
٨ ـ سمية بنت خباط ١٢٩
الأسرة الياسرية ١٣٠
السابقون الأولون ١٣٠
سابعة سبعة ١٣١
الأسرة الصابرة ١٣٢
سمية تتحدى ١٣٣
أول شهيدة ١٣٤
ابن سمية ١٣٥
بشارتها بالجنة ١٣٦
٩ ـ كبشة بنت رافع ١٣٩
أم الأبطال ١٤٠
إسلامها ١٤١
الفرحة الكبرى ١٤٢
الأم المؤمنة الخيرة ١٤٣
الصابرة الصادقة ١٤٥
بشارتها بالجنة ١٤٨
١٠ ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش ١٥٠
السيدة الشريفة ١٥١
من الرعيل الأول ١٥٢
زينب في ركب المهاجرين ١٥٢

رضيته لك ١٥٤
زينب وزيد ١٥٥
من فوق سبع سموات ١٥٦
والله يقول الحق ١٥٨
الحجاب ١٥٨
مع الرسول في الغزو والحج ١٦٠
زينب وعائشة ١٦١
مكانتها وفضلها ١٦٣
الثناء عليها ١٦٥
من كراماتها وزهدها ١٦٦
وفاتها ١٦٧
بشارتها بالجنة ١٦٨
١١ ـ أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ١٧١
الشجرة الطيبة ١٧٢
الصديقان ١٧٢
الصديقة أم المؤمنين ١٧٣
الحدث السعيد ١٧٤
حبيبة الحبيب ﷺ ١٧٥
من مكارمها ١٧٥
من فضائلها ١٧٧
صور من جهادها ١٧٨
عائشة والمحنة الكبرى ١٨٠
لؤم المنافقين ١٨٠
كيف تيكم؟ ١٨١
الخبر الأليم ١٨٢
فصبر جميل ١٨٢
الشهادة الربانية الزكية ١٨٣

شهادات مباركة ١٨٤
مع القرآن مرة أخرى ١٨٦
فراق الحبيب ﷺ ١٨٧
عائشة وحديث الرسول ﷺ ١٨٩
فقهها وعلمها ١٩١
زهدها وكرمها ١٩١
عبادتها وورعها ١٩٢
أم المؤمنين والشعر ١٩٣
أم المؤمنين والطب ١٩٥
من غرر أقوالها ١٩٦
عائشة في ظل الخلفاء ١٩٧
وداعاً أم المؤمنين ١٩٨
بشارتها بالجنة ١٩٩
١٢ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ٢٠١
آل النبي ٢٠٢
في رحاب السيادة ٢٠٢
طليعة السابقات ٢٠٣
فاطمة الزهراء وأجلاف قريش ٢٠٤
الزهراء ومحنة الحصار ٢٠٦
السيدتان فاطمة وخديجة ٢٠٧
إن علياً يذكرك ٢٠٧
اللهم بارك لهما ٢٠٩
الصابرة التقية ٢١٠
الزاهدة الورعة ٢١١
المجاهدة الوفية ٢١٢
الحبيبة النبوية ٢١٤
أم الحسنين ٢١٦

ويطهركم تطهيراً ٢١٩
من مناقبها وفضائلها ٢٢٠
الزهراء وفراق الحبيب ﷺ ٢٢٢
الزهراء والصديق ٢٢٣
رحلة الخلود ٢٢٥
بشارتها بالجنة ٢٢٦

١٣ ـ الفريعة بنت مالك ٢٢٩
في رحاب المفلحين ٢٣٠
النسب الطيب ٢٣١
الذكرى العطرة ٢٣٢
ابنة الشهيدة ٢٣٢
وبشر الصابرين ٢٣٤
كيف قلت؟ ٢٣٥
المحدثة الواعية ٢٣٦
بشارتها بالجنة ٢٣٨

١٤ ـ أم المنذر سلمى بنت قيس ٢٤٠
نعم الأخوال ٢٤١
الخالة الكريمة ٢٤٢
المصلية المبايعة ٢٤٣
مشاركتها في الجهاد ٢٤٤
نعم هو لك ٢٤٦
منقبة لأم المنذر ٢٤٧
طعامها شفاء ٢٤٨
بشارتها بالجنة ٢٤٩

١٥ ـ أسماء بنت أبي بكر ٢٥٢
أصلها ثابت ٢٥٣

من يدانيها؟ ٢٥٣
أسماء وحفظ السر ٢٥٥
ذات النطاقين ٢٥٦
موقف نبيل ٢٥٧
من بطولات أسماء ٢٥٧
أسماء وأول مولود ٢٥٨
الصابرة الشاكرة ٢٥٩
السخية الكريمة ٢٦١
أسماء والقرآن الكريم ٢٦٢
صلي أمك ٢٦٣
أسماء وحديث رسول الله ﷺ ٢٦٣
من ملامح شخصيتها ٢٦٤
في رحاب البركة ٢٦٥
أسماء والحجاج بن يوسف ٢٦٦
الأيام الأخيرة ٢٦٨
بشارتها بالجنة ٢٦٨
١٦ ـ أم سليم بنت ملحان ٢٧٠
مع نساء الأنصار ٢٧١
الموقف المبارك ٢٧١
نعم المهر ٢٧٣
كرمها وشمائلها ٢٧٤
ما عندك يا أم سليم ؟ ٢٧٥
مكانتها وفضلها ٢٧٦
إني أرحمها ٢٧٨
تبرك أم سليم بالنبي ﷺ ٢٧٨
اللهم بارك لهما ٢٨١

الوفية المحسنة ٢٨٣
شجاعتها وجهادها ٢٨٥
موقفها في غزوة أحد ٢٨٥
دورها في خيبر ٢٨٦
ويوم حنين ٢٨٧
بشارتها بالجنة ٢٨٨
١٧ ـ أم ورقة الأنصارية ٢٩٠
في رحاب الأنصار ٢٩١
العابدة الحافظة ٢٩٢
حبها للجهاد والشهادة ٢٩٣
بشارتها بالجنة ٢٩٥
١٨ ـ أسماء بنت يزيد ٢٩٧
البداية المشرقة ٢٩٨
إن من البيان لسحراً ٢٩٩
درس في طاعة الزوج ٣٠٠
المبايعة الصادقة ٣٠١
التلميذة النجيبة ٣٠٢
مع عائشة أم المؤمنين ٣٠٣
في رحاب الكرم والكرامة ٣٠٤
كرامة أخرى لأسماء ٣٠٦
أسماء وحكم من القرآن ٣٠٦
أسماء والحديث النبوي ٣٠٧
من مروياتها ٣٠٨
رحلتها مع الجهاد ٣٠٨
أسماء ورحلة جهاد أخرى ٣١١
بشارتها بالجنة ٣١٣

١٩ ـ أم هشام بنت حارثة ٣١٥
الأسرة الحارثية ٣١٦
الجوار المبارك ٣١٨
الحافظة المحدثة ٣١٩
جهادها وفوزها بالرضوان ٣٢٠
بشارتها بالجنة ٣٢١
٢٠ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر ٣٢٣
السيدة الكريمة ٣٢٤
النشأة الطيبة ٣٢٥
المهاجرة الصابرة ٣٢٥
مع أهل الخير ٣٢٦
حفصة وأمهات المؤمنين ٣٢٨
لا تخبري بذلك أحداً ٣٢٩
أتراجعين رسول الله؟ ٣٣١
لولا أنا لطلقك ٣٣٢
رحمة لعمر ٣٣٤
حفصة وعمر ٣٣٥
علمها وفقهها ٣٣٦
حارسة القرآن ٣٣٦
راوية الحديث ٣٣٨
الصوامة القوامة ٣٣٩
الأديبة الفصيحة ٣٤٠
الوداع الأخير ٣٤٠
بشارتها بالجنة ٣٤١
المصادر والمراجع ٣٤٣
موضوعات الكتاب ٣٤٦


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com